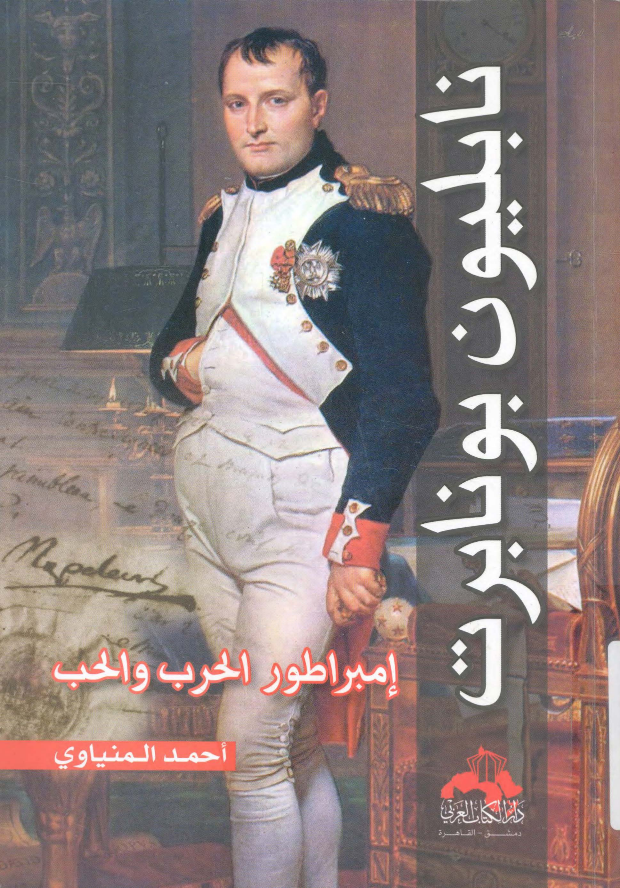
نابليون بونابرت

إمبراطور الحرب والحب

أحمد المنياوي



دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

نابليون بونابرت

إمبراطور الحرب والحب

اسم الكتاب : نابليون بونابرت إمبراطور الحرب والحب
اسم المؤلف : أحمد المنياوى
المراجعة اللغوية والتدقيق : طه عبدالرؤوف سعد
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٠٩/١٥٢٠٧
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 978 - 977 - 376 - 490 -7
التنفيذ الفنى: أحمد وليد ناصيف
الإشراف الفنى: محمد وليد ناصيف
الإشراف العام: أ. أسعد بكرى كوسا

تطلب كافة منشوراتنا :
حلب : دار الكتاب العربى ـ الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين ـ ت: ٢٢٥٦٨٧٠
دمشق : مكتبة رياض العلبى ـ خلف البريد ـ ت : ٢٢٣٦٧٢٨
مكتبة النورى ـ أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤
مكتبة عالم المعرفة ـ جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢
مكتبه الفتال ـ فرع أول ـ ت: ٢٤٥٦٧٨٦
فرع ثانى ـ ت : ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى
٢٠١٠

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

سوريا ـ دمشق ـ الحجاز ـ شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥ فاكس : ٢٢٤٧٢٩٧
مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت ـ شقة ١١ تلفاكس : ٢٣٩١٦١٢٢ ـ ٢٣٩٣٣٦٧١
لبنان ـ تلفاكس : ٤٣٤١٨٦ / ٠٥ ـ تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٣ ـ ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات

darelkitab-nassif@hotmail:com

www.darketab.com - info@darketab.com

نابليون بونابرت

إمبراطور الحرب والحب

◆

أحمد المنياوي

◆

الناشر

دار الكتاب العربي

دمشق - القاهرة

تنويه

معظم كتب دار الكتاب العربى
تعتمد على الإثارة أكثر من المصداقيـة

تـقديـم

في تاريخ العالم شخصيات محورية غيرت مساره، وشكلت أحداثه الكبرى، ولولاها لما أصبح العالم كما نراه عليه الآن..

نابليون بونابرت يأتي في طليعة هذه الشخصيات الرئيسية، التي تقاطعت مسارات العالم ذات يوم عندها، فراحت تعيد تشكيله وفق رؤيتها، وبحكم قوتها، وحجم تأثيرها الفاعل من موقعها هذا على مجريات الأحداث.

نابليون بونابرت هذا القائد العسكري الفذ، والإمبراطور الفرنسي العتيد هو نموذج متقن للعبقرية العسكرية، ورمز لا يضاهَى في السطوة السياسية عندما تؤتَى لحاكم لا يُشَقُّ له غبار.

ورغم رحيل نابليون منذ زمن طويل، إلا أن الحديث عنه لا ينقطع، والنبش في سيرته لا يتوقف، سواء بهدف الكشف عن المزيد من عبقريته، أو فك طلاسم حياته وموته، أو استيقاء الدروس والعبر من سيرة رجل أقام الدنيا في زمانه وأقعدها.

ورغم أن إمبراطور فرنسا وصاحب الانتصارات المتعددة وأعظم عبقرية عسكرية عرفها التاريخ، كان إمبراطورا في الحرب، إلا أنه كان إمبراطورا في الحب أيضا. ولطالما توقف العالم أمام غراميات نابليون، كما توقف بالضبط عند حروبه وفتوحاته، انتصاراته وانكساراته.

وفي هذا الكتاب نتوقف عند سيرة نابليون إمبراطور الحرب والحب، وكل ما يتعلق بشخصية وأعمال هذا القائد. التاريخي، دون أن نغفل آخر ما تكشف من أسرار وخفايا تتعلق بحياته ورحيله.

أحمد المنياوى

1

من جزيرة كورسيكا إلى بطلٍ قوميّ



نابليون بونابرت..
أولى خطوات الصعود

ولد نابليون بونابرت في ١٥ أغسطس ١٧٦٩، في أجاكسيو بجزيرة كورسيكا الإيطالية.

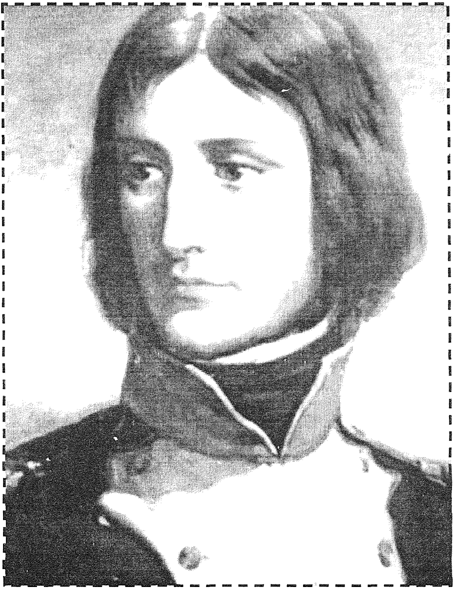
وكان الطفل الرابع لكارلو بونابرت، وليتيزيا رامولينو، وينتمي والده إلى عائلة إيطالية نبيلة.

دخل نابليون، وهو في التاسعة من عمره، مدرسة أوتون، وأمضى بها خمس سنوات، التحق بعدها بمدرسة فرنسية عسكرية، في مدينة براين، في فرنسا، ثم التحق بأكاديمية باريس العسكرية، وكان مستواه متوسطاً في معظم المواد الدراسية، إلاّ أنه كان متفوقاً في الرياضيات.

في سبتمبر ١٧٨٥، تقلد رتبة ملازم ثانٍ في سلاح المدفعية في الجيش الفرنسي، وعمره ستة عشر عاماً، وخدم في مدرسة تدريب ضباط المدفعية. وفي ١٧٩١، رُقي إلى رتبة ملازم أول، ثم إلى نقيب في عام ١٧٩٢م. انضم إلى جماعة اليعاقبة، التي طالب كثير من أعضائها بإعلان فرنسا حكومة ملكية دستورية.

ويحدثنا التاريخ بكثير من التفصيل عن جماعة ظهرت على مسرح الثورة الفرنسية وهي جماعة اليعاقبة. وقد كانت هذه الجماعة تمثل حزباً سياسيّاً بالمعنى الحديث، وكان قادة هذا الحزب من أعظم الرجال وأكثرهم إيماناً بالخير والعدل والحرية والمساواة والتعاطف مع المظلومين والمعذبين في الأرض. ولكن هؤلاء الرجال بسبب إيمانهم بالعنف جَرُّوا على فرنسا كثيرا من المآسي وأغرقوا أوروبا كلها في الدماء وانتهى الأمر بهم هم أنفسهم إلى المقصلة على يد بعضهم البعض.

وقد سمي اليعاقبة بهذا الاسم لأنهم كانوا يجتمعون في كنيسة للرهبان المسيحيين من أتباع المذهب اليعقوبي المعروف في الدين المسيحي.



الملازم نابليون في شبابه

وكان من المفارقات اللافتة للنظر أن يكون اليعاقبة هم أكبر أحزاب الثورة الفرنسية تطرفاً وإيماناً بالعنف وهم يستمدون اسمهم من مذهب مسيحي والديانة المسيحية بشتى مذاهبها لا تؤمن بالعنف ولا تعترف به. وهكذا اختار اليعاقبة اسما لا علاقة له بالعنف فأصبح هذا الاسم على صفحات التاريخ أكبر رمز للعنف في كل العصور.

كانوا يؤمنون بأنه لا علاج للشر إلا بالشر، وأن العدل لن يتحقق إلا عن طريق الإطاحة برؤوس الذين يعتبرهم هؤلاء اليعافبة أعداءً للجنس البشري وأنصاراً للطغيان وعقبة في طريق التقدم الإنساني.

أما زعيم اليعاقبة الأكبر فهو روبسبيير وكان قبل الثورة الفرنسية يعمل بالمحاماة وقد استمد أفكاره من كتابات جان جاك رُوسُّو، وخاصة دعوة روسو إلى المساواة بين الناس وقوله بأن الإنسان يولد مليئاً بالخير وتأتي الشرور بعد ذلك من الظروف الاجتماعية السيئة فإذا استطعنا أن نزيل هذه الظروف استطعنا أن نكشف الخير الكامن في الإنسان. ومن أجل إزالة كل هذه الظروف السيئة دعا روسو إلى إقامة مجتمع يكون فيه الشعب هو صاحب السيادة ومصدر السلطات.

آمن روبسبيير بهذه الأفكار إيماناً يشبه الإيمان الديني وكانت هذه الأفكار عن الحرية والمساواة والعدالة عند روبسبيير أفكاراً مقدسة لا تقبل الشك ولا تحتمل التردد في الدفاع عنها. وعندما قامت الثورة الفرنسية وأصبح زعيما لحزب اليعاقبة لم يستطع أن يهتدي إلى وسيلة لتطبيق ما آمن به من أفكار سوى العنف والقسوة وإسالة الدماء.

كان في الواحدة والثلاثين من عمره عندما قامت الثورة أي أنه كان في قمة شبابه وحماسه واندفاعه ولم يلجأ إلى أي لون من ألوان المرونة أو اللين أو الحيلة في الدفاع عن مبادئه فقد كان على الدوام قاطعاً مثل السيف الحاد.

وأصبح اسمه يثير الرعب في النفوس ويقترن بالنزعة الدموية وكأنه وحش تاريخي مفترس خالٍ من أي صفة إنسانية. وقد قال عنه أحد أعدائه من

المعاصرين له إنه هو و أنصاره مجموعة من أكلة لحوم البشر في باريس.

ورغم ذلك كله فإن كتب التاريخ مليئة بالحديث عن جوانب أخرى في شخصيته تثير الدهشة فالمؤرخ هربرت فيشر وهو من أكبر أعداء الثورة يقول عن روبسبيير إنه : " كان أنيقاً في هندامه إلى أقصى حدود الأناقة، مؤدب السلوك، رائع التظاهر بالتمسك بالفضائل الجمهورية ".

أما نهرو في كتابه المشهور "لمحات من تاريخ العالم" فيقول: "إن روبسبيير كان نزيها مخلصا حتى أسماه الناس بالمعصوم من الفساد والرجل الذي لا يمكن رشوته".



وكان إلى جانب ذلك خطيباً مؤثراً وكانت كلماته تنفذ إلى القلوب ببساطتها وقوتها وما تحمله من إيمان قوي وعاطفة نحو الشعب وحقوقه. . ويحاول أن يبرر استبداده ونزعة العنف التي كان يميل إليها فيقول: "يجب ألا يخلط الناس بين استبداد الحرية واستبداد الطغيان، فالشدة التي يلجأ إليها الطغاة مصدرها التعنت والقسوة، أما الشدة التي تمارسها الجمهورية فمصدرها حب الخير".

وهكذا يبتكر روبسبيير عبارة استبداد الحرية وهي عبارة غريبة ومتناقضة فالحرية تتعارض كل التعارض مع الاستبداد ولكنه يريد أن يبرر إيمانه بالعنف دفاعاً عن مبادئه.

لقد كان الجانب السلبي الخطير في شخصية روبسبيير وفي حزب اليعاقبة كله هو الإيمان بالعنف وعدم القدرة على الحوار وسرعة الشك في الآخرين واللجوء إلى الاتهام بالخيانة ضد كل صاحب رأي مختلف حتى لو كان صاحب هذا الرأي من حزب اليعاقبة أنفسهم. وهذا ما فعله روبسبيير بزملائه في حزب اليعاقبة ممن كانت لهم أدوار تاريخية مشهودة في هذا الحزب وفي الثورة الفرنسية كلها.

ومن هؤلاء الذين أعدمهم روبسبيير زميله في زعامة حزب اليعاقبة جورج جاك دانتون المشهور بدانتون وكان من أذكى وأقوى زعماء اليعاقبة وكان في البداية مثل روبسبيير مؤمنا بالعنف وإسالة الدماء لحماية الثورة إلا أنه عندما أحس أن موجة العنف قد بلغت حدودا غير مقبولة بدأ يميل إلى الاعتدال وأخذ ينادي بشيء من ضبط النفس.

وهنا اعتقد روبسبيير أن زميله قد انحرف عن الموقف الثوري الصحيح واتهمه بالخيانة والتآمر ونجح في إصدار حكم بإعدامه وتنفيذ الحكم دون أن يعبأ بتاريخ دانتون اللامع في الثورة الفرنسية. .

كما أعدم زميلاً آخر هو ديمولان كل ذنبه أنه ألف كتابا دعا فيه الثورة وزعماءها للرجوع إلى فضائل الرحمة والاعتدال والكف عن تقديم رؤوس الناس إلى المقصلة. وانتهى الأمر بتدبير مؤامرة لاعتقاله وتم إعدامه سنة ١٧٩٤ وهو في السادسة والثلاثين من عمره. وفي اليوم التالي لإعدامه تم إعدام ثمانين آخرين من أنصاره في حزب اليعاقبة وبذلك انتهت سطوة هذا الحزب وانتهى عصر روبسبيير الذي سمي باسم عصر الإرهاب.

وهكذا يتبين لنا صحة المقولة:" إن العنف يفضى إلى العنف وأن كل إصلاح ينهض على العنف يذهب به العنف".

إن المبادئ الإنسانية النبيلة تحتاج إلى وسائل من نفس النوع لتحقيقها، أما أن

تكون هناك مبادئ عظيمة تسعى إلى تحقيق النجاح والانتصار بوسائل غير مناسبة لها فذلك من الأمور التي تجر وراءها أسوأ النتائج والشرور.

وفي عام ١٧٩٣، تمكن نابليون من حماية مدينة طولون، أثناء الثورة الفرنسية. ومكافأةً له، عُين قائداً للجيش الفرنسي، في إيطاليا.

و من المهم أن نتحدث بشيء من التفصيل عن الثورة الفرنسية حتى نستطيع فهم الدور الذي لعبه نابليون، والذي سيكون أول خطوة على طريق صعوده لقمة السلطة في فرنسا فيما بعد كما سنرى.



الثورة الفرنسية تعتبر فترة تحولات سياسية واجتماعية كبرى في التاريخ السياسي والثقافي لفرنسا وأوروبا بوجه عام بدأت الثورة عام ١٧٨٩ وانتهت تقريباً عام ١٧٩٩. عملت حكومات الثورة الفرنسية على إلغاء الملكية المطلقة، والامتيازات الإقطاعية للطبقة الأرستقراطية، والنفوذ الديني الكاثوليكي.

أدت الثورة إلى خلق تغييرات جذرية لصالح "التنوير" عبر إرساء الديمقراطية وحقوق الشعب والمواطنة، وبرزت فيها نظرية العقد الاجتماعي لـ جان جاك روسو والعديد من القاده الفكريّين الآخرين، والذي يعتبر مُنظر الثورة الفرنسية وفيلسوفها.

في السنوات الـ ٧٥ التالية للثورة، حدثت في الحكومة الفرنسية عدة تقلبات بين الجمهورية والدكتاتورية والدستورية والإمبراطورية، إلا أن الثورة بحد ذاتها شكلت حدثا مهمّا في تاريخ أوروبا، وتركت نتائج واسعة النطاق من حيث التغير والتأثير في الدول والشعوب الأوروبية. في القرن التالي للثورة الفرنسية، حكمت فرنسا بوصفها جمهورية، وديكتاتورية، ونظاما ملكيا دستوريا، واثنان من الامبراطوريات.

خلال المائة عام قبل الثورة كانت فرنسا أكبر وأقوى أمة أوروبية. ولكن خلال بضعة أشهر كان قد خسر الملك نفوذه في إصدار القوانين، وقام الشعب بانتخاب ممثلين قاموا بالتصويت لإعدامه، وقام الحكام الجدد بكتابة دستور جديد وقاموا بخطوات إصلاحية في كثير من القوانين. كان التغير الراديكالى قد أعطى الشعب الإحساس بأنهم يعيشون في عصر جديد وأصبحوا يطلقون على الفترة التى سبقت عام ١٧٨٩ بالحكم القديم.

وقد اختلف المؤرخون حول الطبيعة السياسة والاجتماعية والاقتصادية للثورة. فهناك التفسيرات الماركسية التقليدية، مثل تلك التي قدمها جورج ليفيفر، وصفت الثورة باعتبارها نتيجة للتصادم بين إقطاعيي الطبقة النبيلة الرأسمالية والطبقة البرجوازية.

بعض المؤرخين يقولون إن النظام الأرستقراطي القديم استسلم لتحالف صاعد من البرجوازية والفلاحين المتضررين، والعاملين بأجر في المناطق

الحضرية، كان عامة الناس يعانون من النظام الأرستقراطي القديم.

أما الأسباب السياسية لقيام الثورة، فقد كانت تتمثل في الاستبداد المطلق لنظام الحكم في فرنسا قبل الثورة. وقد عرف لويس السادس عشر الذي عاصر الثورة (١٧٧٤-١٧٩٣) بضعف الشخصية وبسيطرة الحاشية عليه ورغم ذلك كان شديد التمسك بالنفوذ المطلق رافضا لكل أنواع التطوير السياسي.

أما النظام الإداري فقد اتسم بالفساد بسبب غياب الوحدة الإدارية وارتفاع الرسوم الجمركية بين المناطق وانتشار الرشوة. كل ذلك حال دون توثيق الروابط الوطنية بين مختلف جهات فرنسا.

أما الأسباب الاجتماعية، فقد قام ملوك فرنسا بتأسيس نظام ملكى مطلق كانت فيه رغبات الملك هى القانون. وقد كان الفرنسيون مُقسمون إلى ثلاث طبقات.

كان عدم المساواة هى السمة الغالبة بين هذة الطبقات الثلاث. كان عدد قليل من الشعب ينتمون إلى الطبقتين الأولى والثانية إلا أنهم كانوا يمتلكون النصيب الأكبر من الثراء والنفوذ والامتيازات.

الطبقة الأولى كانت تتكون من رجال الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وكانت تشمل ١ في المائة من عدد السكان. كانت الكنيسة تملك العديد من الامتيازات منذ العصور الوسطى. كانت فقط محاكم الكنيسة هى التى تمتلك السلطة لمحاكمة القساوسة والأساقفة. لم يكن مفروض على رجال الدين دفع الضرائب.

وكانت الكنيسة تملك عشر الأراضى التى تمتلكها فرنسا، وكانت تحصل على الكثير من المال من خلال الإيجار والضرائب والرسوم، وكانت الطبقة العليا من رجال الدين هى التى تحصل على معظم هذا الثراء. كان من نتيجة ذلك أن أصبح هؤلاء الناس كسولين ومهملين لأعبائهم الروحية.

وعلى العكس كانت الطبقة الدنيا من رجال الدين مثل قساوسة الرعايا والذين كانوا يقومون بمعظم العمل ويحصلون على القليل، فبالإضافة إلى أعمالهم الروحية كانوا يتعرضون لمشاكل رعاياهم وكانوا يقومون بتعليمهم.

أما الطبقة الثانية فهم النبلاء الذين يشكلون أقل من ٢ بالمائة من الشعب. كانوا مازالوا يحصلون على امتيازات خاصة من عصور الإقطاع مثل الحق في حمل السيف وحق الابن الأكبر في وراثة الألقاب والأراضى والحق بحكم قرى المانور.

كان النبلاء قليلا مايدفعون الضرائب، وكانوا بالرغم من ذلك يجمعون الكثير من الضرائب ويفرضون الكثير من الأعباء الإقطاعية على الفلاحين، وكانوا يحصلون على أعلى المناصب في الجيش.

وبالنسبة للطبقة الثالثة فقد كانت تشمل باقى الشعب الفرنسى، وكانوا ينقسمون إلى ثلاث فئات أيضا.

كانت أعلى هذه الفئات هى البورجوازية وكانت تشمل التجار والصناع وأصحاب الأعمال الدقيقة مثل الأطباء والمحامين. كان البورجوازيون يتحصلون على قدر من الثروة وكثير من التعليم.

تحت البورجوازية كانت تقع فئة العمال والفنانين بالمدن، كان الفلاحون يقعون في قاع الطبقة الثالثة، وكانوا يدينون بأعباء اقطاعية. وكانوا يدفعون أجور الأراضى التى يعملون بها وضرائب ثقيلة بالإضافة إلى الزكاة التى يدفعونها إلى الكنيسة وتمثل عشر الدخل.

وبالرغم من عملهم الشاق لم يكن لهم أى صوت في صياغة القوانين التى جعلتهم تحت سلطة نبلاء الأراضى والملك.

وعند الحديث عن الأسباب الاقتصادية، فبهدم الباستيل في ١٤ يوليو ١٧٨٩لم تعد الطبقة البرجوازية تستطيع صبرا أمام الجمود الذي لحق المجتمع وسيطرة النبلاء عليه، يضاف لذلك أن لويس السادس عشر ملك فرنسا آنداك كان ضعيف الشخصية عاجزا عن تفهم تناقضات المجتمع الفرنسي وغارق في جو الحفلات المبذرة لأموال الدولة، يحيط به في بلاطه بفرساي كل متملق متعطش لهباته.

خاض لويس الخامس عشر العديد من الحروب وترك فرنسا على شفا الإفلاس، في حين أن الدعم الذي قدمه لويس السادس عشر إلى المستعمرين

أثناء الثورة الأمريكية أدى إلى زيادة تفاقم الأوضاع المالية غير المستقرة للحكومة. الدين القومي بلغ مايقرب من ٢ مليار.

الأعباء الاجتماعية الناجمة عن الحرب وشملت ديون الحرب الضخمة التي تزداد سوءا من جراء الإخفاقات العسكرية الملكية الحمقاء، والافتقار إلى الخدمات الاجتماعية للمحاربين القدماء.

عدم كفاءه النظام المالي غير القادر على إدارة الديون الوطنية، وتفاقم عبء فادح غير منصف للنظام الضريبي.

و قد مرت الثورة الفرنسية بمراحل منها منذ إعدام لويس السادس عشرأجبر لويس السادس عشر بسبب استمرار الأزمة المالية العنيفة على عقد مجلس طبقات الأمة المكون من ثلاث طبقات هي النبلاء ورجال الدين والعامة وكان هذا المجلس معطلا منذ أمد بعيد وقد مهد اجتماع هذا المجلس لقيام الثورة التي مرت بثلاث مراحل.

١ - انهيار الملكية المطلقة : لقد تميزت هذه المرحلة من الثورة بسرعة تتابع الأحداث بين شهري يونيو ويوليو ١٧٨٩ ومن أهم هذه الأحداث :

- تكوين الجمعية الوطنية : اعتبر نواب الطبقة الثالثة في مجلس طبقات الأمة أنفسهم الممثلين لأغلبية الشعب وأجبروا الملك على الاعتراف بهم تحت اسم الجمعية الوطنية.

٢- سقوط الباستيل : استولى الثوار في باريس على سجن الباستيل يوم ١٤ يوليو ١٧٨٩ باعتباره رمزا من رموز الاستبداد والطغيان وقد نتج عن سقوط الباستيل انتشار الثورة في كامل أنحاء فرنسا وفرار الكثير من النبلاء إلى البلدان المجاورة واتخاذ الجمعية الوطنية العديد من القرارات منها إعلان وثيقة حقوق الإنسان.

٣- إرساء الملكية الدستورية : بعد وضع دستور ١٧٩١ حلت الجمعية الوطنية نفسها وأجريت انتخابات جديدة أدت إلى ظهور جمعية جديدة سميت (الجمعية التشريعية) وقد عرفت هذه الفترة العديد من الإصلاحات أهمها وضع دستور

جديد وفصل السلطات وتنظيم الإدارة إلا أن تعاظم الخطر الخارجي بفعل تحالف إمبراطور النمسا وملك بروسيا ضد الثورة جعل الجمعية التشريعية تنقسم إلى اتجاهين أحدهما مساند للملكية الدستورية والثاني معارض لها وقد نجح هذا الأخير في حمل الملك على إعلان الحرب ضد النمسا فهزمت فرنسا في هذه الحرب واعتبر زعماء الثورة أن الملك هو السبب في هذه الهزيمة ووجهت له تهمة التواطؤ مع جيوش الأعداء خاصة وأنه سبق له أن حاول الفرار من فرنسا ١٧٩١ لطلب المساعدة من ملوك أوروبا، وفي أغسطس ١٧٩٢ تمردت جماهير باريس وفرضت على الجمعية التشريعية عدة قرارات منها اعتقال الملك بعد اكتشاف خيانته، واستبدال الجمعية التشريعية بالمؤتمر الوطني.

٤- الحكم الجمهوري : سيطر الثوريون المعتدلون على المؤتمر الوطني بقيادة دانتون أحد زعماء الثورة البارزين وكانت أهم قرارات المؤتمر الوطني: إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية ووضع دستور جديد وتقديم الملك للمحاكمة وقد حكم عليه بالإعدام الذي نفذ في يناير ١٧٩٣ إلا أن تزايد أعداء الثورة في الخارج والداخل ومرور البلاد بأزمة اقتصادية حادة أدى إلى انتفاضة جماهيرية في يونيو ١٧٩٣ أقصت المعتدلين من المؤتمر الوطني.

ومكنت الثوريين المتصلبين من احتكار السلطة بقيادة روبسبير الذي طبق سياسة الإرهاب ضد أعداء الثورة في الداخل، وشمل الإرهاب كل المشتبه فيهم حتى الذين كانوا من قادة الثورة ورغم نجاح روبسبير في القضاء على الأخطار الخارجية والداخلية ونصرة الثورة فإن سياسة الإرهاب الدموية أدت إلى تآمر المعتدلين ضده وإعدامه عام ١٧٩٤ وعادت البرجوازية الكبيرة إلى الحكم وتدرجت فرنسا نحو الحكم الفردي من جديد بداية من سنة ١٧٩٩ مع نابليون بونابرت.

أما بالنسبة لنتائج الثورة فقد ساهمت الثورة الفرنسية خلال مراحلها المختلفة في ترسيخ مجموعة من المبادئ أصبحت إحدى المرجعيات السياسية والاجتماعية للعالم المعاصر وقد انتشرت هذه المبادئ تدريجيا في أوروبا والعالم.

كما أصبحت الثورة مثلا يحتذى به فانتشرت مبادئ الحرية والمساواة وسيادة

الشعب بين جميع شعوب أوروبا فرسخت مبادئ الانتماء إلى الوطن لدى الشعوب الأوروبية التي كانت تعيش حالة انقسام مثل الشعبين الألماني والإيطالي اللذَيْن اتجها نحو تحقيق الوحدة. كما كانت بداية النهاية للأنظمة الملكية والإمبراطورية في أوروبا والتي انتهت كليا في الحرب العالمية الأولى.

وكانت أرجاء عديدة من البلاد العربية خاضعة للحكم العثماني غير أن ذلك الواقع لم يمنعها من التأثر بمبادئ الثورة الفرنسية وخاصة بعد حملة نابليون بونابرت على مصر (١٧٩٩-١٨٠١) كما ساهمت الرحلات العلمية التي قام بها الطلبة العرب في نقل تلك المبادئ إلى بلدانهم وقد عملوا على تكوين الأحزاب والجمعيات ودعوا إلى إصلاح الأوضاع السياسية والاقتصادية في الدولة العثمانية.

وبحلول عام ١٧٩٦، أصبحت النمسا العدو الرئيسي لفرنسا. وبعد اندلاع الحرب بينهما كسب نابليون الحرب. وفي أقل من عام هزم أربعة جيوش، كان كل منها أكبر من جيشه. وحقق انتصارا نهائيا بعد أن تقدم إلى جبال الألب مهدداً فيينا في أوائل عام ١٧٩٧م.

وفي ١٧ أكتوبر من العام نفسه وقّعت فرنسا معاهدة كامبو فورميو، التي بموجبها توسعت أراضي فرنسا، وعاد نابليون إلى باريس فاستقبل استقبال الأبطال.

■■■

٢

نابليون بونابرت إمبراطورا

فيما يتعلق بنابليون كحاكم دولة، فإنه كان قد انقلب على حكومة الديركتوار عام ١٧٩٩ بعد عودته المفاجئة من مصر، لسوء الأوضاع التي كانت تعيشها بلاده آنذاك، ليؤسس للحكومة القنصلية، وتعيينه قنصلا أول مدى الحياة مع حقه في تسمية من سيخلفه.

و أصبح نابليون" القنصل الأول، القنصل نلك الكلمة التي نقلت إلى العربية كما هي، وكانت تعني أحد الحكام الرئيسيين في روما القديمة، وتعود لعام ٣٦٧ قبل الميلاد، حيث كان القنصل يمارس مهاما عسكرية وتمثيلية.

كما أنها تسمية تطلق على كل عضو من الأعضاء الثلاثة الذين كانوا يشكلون رئاسة الدولة الجماعية المنشأة بدستور ديسمبر ١٧٩٩ في فرنسا، ولقد أسس هذا الدستور جمهورية قائمة على السيادة الوطنية وتضم ثلاثة قناصل، وأربعة مجالس معينة على أساس لوائح تمثيلية، مجلس الدولة، المجلس التشريعي، مجلس الشيوخ، وما يعرف بـ التريبونا... ولقد دام هذا النظام ثلاث سنوات كانت فيها الهيمنة للقنصل الأول "نابليون بونابرت".

يعرف القنصل حاليا بأنه مبعوث يعين من قبل دولة لدى سلطات دولة أخرى على المستوى المحلي، وقد يكون من الدولة الموفِدة، أو من بين أشخاص يحملون جنسية الدولة الموفد إليها بموافقة صريحة من هذه الدولة والتي يجوز لها في أي وقت سحب هذه الموافقة، وقد يكون من بين أشخاص يحملون جنسية دولة ثالثة مع احتفاظ الدولة الموفد إليها بنفس الحق في الموافقة أو سحبها طبقا

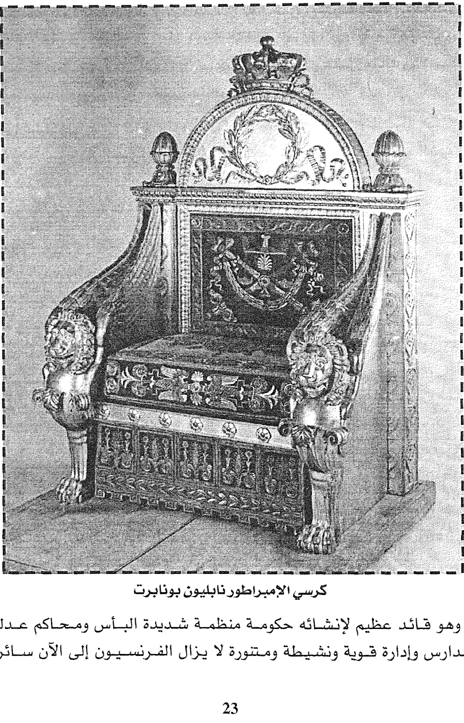
للمادة ٢٢ من اتفاقية فيينا للعلاقات القنصلية لعام ١٩٦٣,

ثم قام بونابرت بعد ذلك بتحويل نظام الحكم من القنصلية إلى الإمبراطورية، ثم تنحيه عن العرش بعد دخول قوات الأعداء باريس عام ١٨١٤ ونفيه لجزيرة ألبا، ثم عودته لفرنسا مرة أخرى عام ١٨١٥ ليتولى الحكم إلى أن هزم في معركة واترلو ونفيه لجزيرة سانت هيلينا حتى مماته.



بونابرت إمبراطورا

ينسب لنابليون الفضل في صدور القانون المدني الفرنسي والذي اقتبسته باقي الدول الأوروبية.



كرسي الإمبراطور نابليون بونابرت

وهو قائد عظيم لإنشائه حكومة منظمة شديدة البأس ومحاكم عدلية ومدارس وإدارة قوية ونشيطة ومتنورة لا يزال الفرنسيون إلى الآن سائرين

عليها، وهو عظيم لأنه بعث إيطاليا من موت الخمول وأنارها بمشكاة الرقي والعمران، إلى جانب قهره لجميع الملوك المعاكسين له وكسر جميع الجيوش على اختلاف تدريبها وبسالتها. ومع ذلك فإن له مساوئ عديدة منها قمعه لثورة العبيد في هاييتي وقراره في عام ١٨٠١ القاضي بعودة العبودية في فرنسا بعد أن كانت الجمهورية قد ألغتها، بالإضافة لتسببه في مقتل مئات الآلاف في أوروبا بسبب الحروب التي خاضها هناك.

كان لنابليون أعداء كُثُرٌ يكرهونه ولكن يكنون له عظيم الاحترام في ذات الوقت، فعندما سئل الجنرال ويلنجتون قائد الإنجليز في معركة واترلو الشهيرة عن أعظم جنرال في وقته، قال إن أعظمهم في الماضي والحاضر والمستقبل وكل وقت هو نابليون بونابرت.

ويرتبط اسم بونابرت بمصطلح " الإمبراطورية الفرنسية الأولى " التي تشمل الفترة التي سيطرت فيها فرنسا على قارة أوروبا تحت حكم نابليون ١٨٠٤ - ١٨١٤. غيَّر نابليون نظام القنصلية بإعلانه في العام ١٨٠٤ للإمبراطورية، وتوَّج نفسه إمبراطورًا على الفرنسيين. واستمرَّت الإمبراطورية في فرنسا حتى انكسار نابليون العسكري في لايبزغ ونفيه إلى جزيرة إلبا؛ فكانت عودةُ المَلَكية إلى فرنسا في العام ١٨١٤ واستمرارها حتى العام ١٨٤٨ (تاريخ إعلان الجمهورية الفرنسية الثانية).

■ ■ ■

٣

نابليون.. أوصافه وشخصيته

كان نابليون بشكل عام قصيراً بشكل مفرط إذ لا يزيد طوله عن خمسة أقدام وست بوصات، أما روح القيادة فتتجلى في عينيه، فالكاردينال كابرارا الذي أتى للتفاوض بشأن الاتفاق البابوي (الكونكوردات) وضع على عينيه عدستين خضراوتين كبيرتين ليخفّف بهما وهج عيني نابليون وحملقته. والجنرال فاندام يعترف بخوفه من أثر عيني نابليون الشبيه بأثر التنويم المغناطيسي.

يقول: هذا الشيطان الآدمي يمارس معي سحراً يجعلني غير قادر على التعبير عمّا في نفسي، وهويستطيع أن يجعلني أمرق من سَمِّ الخياط (من ثقب الإبرة) لألقي نفسي في النار وكانت بشرة الإمبراطور شاحبة، إلاّ أنها - على أية حال - كانت تتألق بسبب حركات عضلات وجهه التي تعكس - إن أراد - أي خلجة من مشاعره أو فكرة من أفكاره. وكان رأس نابليون كبيراً بالنسبة لجسمه، لكنه كان ذا تكوين حسن، وكانت كتفاه عريضتين، وصدره بارزاً يَنُم عن بنية قوية.

وكان لباسه بسيطا تاركاً أبهة الملبس لمارشالاته، ولم يكن في قبعته المعقدة التكوين والمنتشرة كالكعكة المطوية أية زينات باستثناء الشريط المثلث الألوان. وعادة ما كان يلبس معطفاً رمادياً فوق الزي الرسمي لكولونيل من حراسه.

وكان يحمل صندوق نشوق يضعه في حزامه (النطاق الذي يلفّه حول وسطه) ويستعمل ما به من نشوق (سعوط) بين الحين والآخر، وكان يفضّل ارتداء البنطلون القصير (الشورت) والجوارب الحريرية الطويلة على البنطلون الطويل.

ولم يتحلّ أبداً بالجواهر، لكن حذاءه كان محفوفاً بالحرير وإبزيم من ذهب. لقد

كان في ملبسه ينتمي إلى ما كان سائداً أثناء حكم ما قبل الثورة، تماماً كما جنحت فلسفته السياسية الاخيرة إلى المنحى نفسه (منحى ما كان سائداً قبل الثورة).

لقد كان نابليون منظماً دقيقاً إلى درجة الوسوسة وكان يحب كثيراً الاستحمام بالماء الدافئ وأحياناً كانت تستغرق فترة استحمامه ساعتين، وربما كان يجدُ في هذا راحة له من التوتر العصبي وآلام العضلات.



أما عن شخصيته، فقد بدأ كبرياؤه أو اعتداده بنفسه من اكتفائه بذاته أو بتعبير آخر باعتماده على نفسه، كان من الطبيعي أن يرتبط هذا بكل أعضائه، ففي شبابه تضخّم هذا الشعور متخذاً شكلاً دفاعيا أثناء الصدامات التي جرت بينه وبين أفرادٍ أو أسرات في كورسيكا، وبعد ذلك تجلّى ضد عجرفة طلبة "برين" الذين كانوا يتكبّرون عليه بحكم انتماءاتهم الطبقية أو العرقية. ولم يكن اعتداده بنفسه على أية حال خالياً من الأنانية، لكن هذا لم يمنع إخلاصه وتكريمه لأمه ولجوزفين وأبنائها.

كما لم يمنع حبه لابنه من ماري لويز ذلك الوليد الذي أطلق عليه اسم ملك روما وحبّه الشديد لإخوته وأخواته الذين كانوا أيضاً ذوي نفوس توّاقة.

لكن كلما اتّسعت دائرة نجاحاته في السلطة والمسؤوليات، ازداد اعتزازه بنفسه واستغرقته ذاته، وبدأ يميل لنسبة كل انتصارات جيوشه لنفسه، لكنه مع هذا كان يمتدح ديزيه ولان، وقد أحبهما حقا وحزن من أجلهما. وأخيراً فقد اعتبر نفسه هو فرنسا ذاتها وتضخّمت ذاته مع كل اتساع لحدودها.

وأحياناً كان كبرياؤه ووعيه بقدرته يتدنّيان إلى مستوى من التفاهة أو الخواء، أو استعراض ما أنجزه. لقد قال يوماً لسكرتيره بورين: حسناً يا بورين، أنت أيضاً ستكون خالداً فلما سأله بورين:

لماذا يا جنرال؟

قال نابليون ألست سكرتيري؟ أخبرني عن اسم سكرتير الاسكندر أليس هو همّ، هذا ليس أمراً سيئاً يا بورين.

وكتب نابليون إلى ليوجين (حامل لقب نائب الملك في إيطاليا) في ٤١ أبريل سنة ١٨٠٦: إن شعبي الإيطالي يجب أن يعرفني جيداً بشكل كاف ويجب ألا ينسى أن في إصبعي الصغير من الفهم أكثر مما في عقولهم جميعاً وكان الحرف الأول من اسمه (N) يتألق في آلاف الأماكن وكان أحياناً يقترن بالحرف الأوّل من اسم زوجته جوزفين (J) لقد شعر الإمبراطور أن الاستعراض مسألة ضرورية كدعامة من دعامات الحُكم.

لقد أعلن لروديريه في سنة ١٨٠٤ عندما كان جوزيف (يوسف) يحتال ليكون وريثاً (ولياً لعهد نابليون): إن السلطة هي خليلتي أو رفيقتي. لقد بذلت جهوداً فائقة في هذه الفتوحات، جهوداً تجعلني لا أسمح لأيٍّ مهما كان أن يأخذها مني أو يُبعدها عني أو حتى يرنو إليها أو يشتهيها.. منذ أسبوعين لم أكن مصمماً على معاملته بظلم. أما الآن فإنني غير متسامح. سوف أبتسم له بشفتي (ابتساماً ظاهريا) - لكنه نام مع رفيقتي أو خليلتي (يقصد السلطة) (هنا أظهر نابليون نفسه غير عادل).

(لقد كان عاشقاً غيوراً لكنه كان رجلاً متسامحاً) ومن أقواله إنني أحب السلطة كما يحب الموسيقيُّ كمانه لذا فإن طموحهُ قد أدى به إلى وثبات متتالية من منطقة إلى أخرى. لقد كان يحلم بمنافسة شارلمان في توحيد أوروبا الغربية بما في ذلك الولايات البابوية - بالقوة.

ومن ثم تتبع خطى قسطنطين فيخرج من فرنسا إلى ميلان ومنها إلى القسطنطينية (اسطنبول) ليستولي عليها، ويشيد أقواس النصر التقليدية لإحياء ذكرى انتصاراته، ويستمر في أحلامه فيجد أوروبا صغيرة جدًا، وأنها مجرّد تل من تراب، فيشرع في منافسة الإسكندر الأكبر فيغزو الهند، قد يكون هذا عملا شاقا له وللمليون جندي التابعين له، لكن العظمة ستكون عوَضاً كافياً له ولهم عن هذا التعب، وإن أدركهم الموت فلا بأس فهذا ليس ثمناً باهظاً فالموت ليس مأساة، وإنما المأساة أن تعيش مهزوماً تافهاً، فتلك حياة تعني أنك تموت كل يوم إنني لا أعيش إلاّ للأجيال القادمة.

لقد أصبح المجد هو حبّه المهيمن، لذا فقد قبلته فرنسا كلها - تقريباً - كمرشد (باعتباره نجماً هادياً) طوال عقد من الزمن، وكأنها مسوقة بقوى التنويم المغناطيسي.

لقد تابع تحقيق أهدافه بإرادة لا تلين إلاّ لتقفز من جديد - حتى استنفد طاقاته في بلوغ الذروة وأصبح بعدها جديراً بالشفقة. لقد توحّد طموحه الذي لا يهمد مع إرادته وتوجهاته ليتفاعل مع جوهر أيامه.

ففي برين قال: حتى عندما لم يكن أمامي شيء محدد لأقوم به، فإنني كنت أشعر دائماً أنني لا يجب أن أضيع الوقت وإلى جيروم في سنة ١٨٠٥ وجه حديثه قائلا: إنني لا أدين إلاّ لقوة الإرادة والشخصية والقدرة على التنفيذ والجسارة.

فالجرأة كانت جزءاً من استراتيجيته، وكان يستغل عامل الوقت فكان يواجه أعداءه بسرعة إجراءاته، وأفعاله الحاسمة في وقت لا يتوقّعونه وفي مكان لا يتصوَّرون حدوث المواجهة فيه.

لقد كان يقول: إن هدفي هو الوصول للهدف مباشرة دون أن أسمح لأي اعتبار أن يوقفني، لكنه استغرق عقداً من الزمن ليتعلم الحكمة القديمة التي مؤداها أنه في السياسة يعتبر الخط المستقيم هو أطول مسافة بين نقطتين.

وفي بعض الأحيان كان الهوى يُفسد أحكامه ومسلكه ويُشكل حاجزاً بينه وبين الرؤية الصحيحة.

وكان نفاد الصبر (قصير البال كما أنه قصير البدن)، وكلما اتّسع سلطانه زاد نفاد صبره (قلّ طول باله).

لقد كانت ضراوة أهل كورسيكا وحرارتهم تسري فيه مسرى الدم، ورغم أنه عادة ما كان يتحكم في نفسه إذا ما اعتراه الغضب إلاّ أن أولئك المحيطين به بدءاً من جوزفين إلى حارسه الشخصي القوي روستام كانوا يتحوّطون في كل كلمة وكل حركة مخافة إثارة سخطه.

وكان نافد الصبر إذا ما ظهر له تناقض أو توان أو عدم كفاءة أو غباء. وعندما ينفد صبره لأمكن أن يوبّخ علناً أحد السفراء، وأن يسب أحد الأساقفة وأن يركل فيلسوفاً في بطنه، وإذا لم يتوفر له ما هو أفضل ركل الأخشاب في المدفأة.

ومع هذا فقد كان غضبه يخمد بمجرد تفريغ شحنته، وغالباً ما كان هذا الغضب غطاء أو حركة من حركات السياسة، وفي معظم الحالات كان يقوم بعملية استرضاء لمن صبَّ عليهم غضبه بعد يوم أو حتى بعد دقيقة.

وقلّما كان فظّاً إلى حد مؤلم، فهو في غالب أحواله رقيق مداعب فكهٌ (حاضر النكتة) لكن روح الفكاهة عنده أضعفتها المعارك وما تعرّض له من مواقف صعبة، ولم يُتح له وقت كثير لمسرّات أوقات الفراغ أو الانهماك في القيل والقال، أو ظُرف الصالونات.

لقد كان رجلاً في عجلة دوماً تحيط به ثُلّة من الأعداء، ويمسك بزمام إمبراطورية، ومن الصعب على رجل في عجلة من أمره أن يكون متمديناً.

لقد استنفد كثيراً جدا من طاقته في فتح نصف أوروبا، وتبقى منها - أي من هذه الطاقة - شطر كثير للانهماك في الأمور الجنسية على نحو منافٍ للعقل، وكان من رأيه أن كثيراً من أشكال الرغبة الجنسية يتم تعلّمها من خلال المعايشة البيئية أكثر من كونها مسألة مورثة فنجده يقول: كل شيء بين الناس اصطلاحي أو متفق عليه حتى فيما يتعلق بالمشاعر التي قد يظن المرء أن الطبيعة وحدها هي التي فرضتها. وقد أمكنه أن يكوِّن له باقة من المحظيات علي النسق البوربوني بمعنى الكلمة لكنه تعامل أيضاً مع ست خليلات أخريات على فترات بين المعارك، وكانت كل امرأة تُسعده لليلة تعتبر نفسها قد دخلت التاريخ، وعادة ما كان يُفشي أسرار لقاءاته الجنسية بفظاظة ويتحدث عن آخر شريكاته في الفراش ليس بامتنان وإنما بقسوة.

وقد تسبَّب عدم إخلاصه في إزعاج جوزفين لساعات طوال قضتها في كآبة وحزن، لكنه شرح لها الأمر (إن جاز لنا أن نصدّق مدام دي ريموزا) قائلاً: إن هذه التسالي وهذا الترويح عن النفس أمر طبيعي وضروري ومعتاد ولابد أن تتفهمه الزوجة، وكانت تبكي، وكان يُطيّب خاطرها، وكانت تسامحه وفيما عدا ذلك فقد كان زوجاً صالحاً بقدر ما تسمح به مهامه وما تحتمه من تنقلات كثيرة.

وعندما أتته ماري لويز قبل بمبدأ الاكتفاء بزوجة واحدة (على حد علمنا) ولو حتى يكون الزنا قد يتسبب في فقدانه النمسا، وتضاعف إخلاصه لها (لماري لويز) عندما أدرك ما تعانيه من آلام مبرحة وهي تضع له طفلاً.

لقد كان دائما يُظهر حبه الشديد للأطفال وسجلت المدوّنة القانونية

النابليونية لهم ما ينم عن عناية خاصة. والآن فقد أصبح ابنه الذي سماه ملك روما معبوده ومحبوبه ومَعْقِدَ آماله، فراح يعتني به لتوريثه حُكم فرنسا واهبه القوانين لأوروبا الموحدة ليحكمها بحِكمة.

وبذلك تضخمت ذاته المتضخمة أصلاً بالانغماس في حب الزوجة والحب الأبوي (حبه لابنه).

لقد كان نابيلون منشغلاً بالأمور السياسية انغماساً هائلاً لا يجعل له وقتاً لأصدقاء. بالإضافة إلى أن الصداقة تعني أخذاً وعطاءً على قدم المساواة. وقد وجد نابليون أن من الصعوبة أن يُذعن لمساواته مع آخرين في أي شكل من أشكال المساواة.

لقد كان هناك مخلصون أوفياء له ضحّى بعضهم بحياته فداء لمجده ومجدهم ومع هذا لم يكن أحدهم يفكر في أن يدعوه صديقاً. لقد أحبّه يوجين لكن حبّه له كان كحب الابن لأبيه أكثر منه كحب الصديق لصديقه، ويحكي لنا بورين (وهو لم يكن جديراً بالتصديق تماماً) أنه سمع مراراً من نابليون فى سنة ١٨٠٠ قوله:

الصداقة ليست إلاّ اسماً بلا مضمون. أنا لا أحبُّ أحداً. إنني حتى لا أحب إخوتي، ربما أحب جوزيف (يوسف) قليلاً بحكم التعوّد ولأنه أخي الكبير. وأنا أيضاً أحب دوروك ... أعلم جيداً أنه لا أصدقاء حقيقيين لي.

فطالما أنني مستمر على ما أنا عليه، فإنه يمكنني أن أحتفظ بعدد كبير من الأصدقاء الظاهريين (غير الحقيقيين) كما أشتهي. دع رقة الشعور للنساء، فتلك مهمتهن. لكن الرجال يجب أن يكونوا رابطي الجأش ذوي أهداف محددة، وإلا تخلّوا عن مهامهم في الحرب والحكم.

تلك هي الحلقة النابليونية الرواقية لكن ليس من السهل أن نوفِّق بين هذا وإخلاص رجال مثل ديزيه ودوروك ولان ولاكاس وآخرين كثيرين دام إخلاصهم له طوال حياتهم. بل إن بورين نفسه يصدّق على أن نابليون كان رفيقاً رقيق المشاعر خارج نطاق المعارك.

ويوافق مينيفال الذي كان قريباً من نابليون طوال ثلاثة عشر عاما على ذلك فيقول:

لقد توقّعت أن أجده فظا متقلب المزاج، لكنني - على العكس من ذلك - وجدته صبوراً متسامحاً من السهل بعث المسرّة في نفسه، وهو بلا شك منضبط كما أنه مرح وكثيراً ما يتخذ مرحه طابع الجلبة وروح السخرية، وأحياناً يتخذ طابع الوداعة الجذابة.

فلم أعد خائفاً منه، ومما جعلني أستمر في حالة الاطمئنان إليه ما رأيته من أساليب مؤثرة وداعية للمسرّة كان يتّبعها في تعامله مع جوزفين وحرصه على الإخلاص لضباطه ورقته مع ذوي قرابته ومع مستشاريه ووزرائه وألفته مع جنوده.

ومن الواضح أنه كان يستطيع أن يكون شديد البأس إذا ما رأى أن السياسة تتطلب هذا، كما كان يغدو لطيفاً رقيقاً إن سمحت السياسة بذلك، فالسياسة عنده تأتي في المقام الأول. لقد أمر بسجن رجال كثيرين.

ومع هذا فقد سجل التاريخ له كثيراً من مظاهر التسامح أوردها فريديريك ماسون في مجلّده. واتخذ إجراءات لتحسين أحوال سجون بروكسل لكن أحوال السجون الفرنسية في سنة ١٨١٤ كانت سيئة لا تتناسب مع الكفاءة العامة التي اتسم بها حكمه. لقد رأى آلاف القتلى في ساحة المعركة ومع هذا لم يتردد في خوض معارك أخرى.

ومع هذا فقد سمعنا أنه غالباً ما كان يتوقف لإتاحة فترة راحة لجندي جريح ورآه فيري كونستان (قستنطين) يبكي أثناء تناول إفطاره بعد عودته من عند سرير المارشال لان الذي أصيب بجروح مميتة في إسلنج في سنة ١٨٠٩.

ولا جدال في سخائه واستعداده للعفو. لقد عفا كثيراً عن بيرنادوت وبورين وعندما طلب منه كارنو وشينييه - بعد أن ظلاّ يعارضانه سنوات - أن ينقذهما من الفقر أرسل لهما - على الفور - ما يُعينهما.

وفي سانت هيلانة التمس الأعذار لمن تخلّوا عنه في سنة ١٨١٣ أو سنة ١٨١٥، ولم يكن هناك إلاّ البريطانيون الذين ظل ممتعضاً منهم حتى النهاية بسبب عداوتهم المتواصلة له، فلم يكن يرى في بت سوى أنه مرتزق قاس.

وكان غير منصف على نحو أبعد في رأيه في سير هدسون لوكان من المحال عليه أن يرى ميزة في ولنتجتون وكان عادلاً بدرجة كبيرة في تقويمه لنفسه: إنني اعتبر نفسي رجلاً طيب القلب.

لقد قيل لنا إن الرجل مهما كان شأنه لا يمكن أن يعتبر بطلاً في نظر خادمه الخصوصي لكن فيري كونستان الذي ظل طوال أربعة عشر عاماً يعمل مع نابليون بهذه الصفة يسجل لنا في مذكراته التي شغلت عدة مجلدات إعجاباً يفوق الحد.

ولم يكن الذين نشأوا في رحاب الحكم القديم (ملكية ما قبل الثورة) وتشربوا عاداته الأنيقة ليتحملوا طريقة نابليون الفظة في الحركة واللباس. لقد أثار سخرية مثل هؤلاء بمركبته التي يريد أن يؤكد بها ذاته على نحو أخرق، وبطريقته الخشنة في الحديث في بعض المناسبات.

ولم يكن يعرف كيف يُرضي هؤلاء الناس ويبدو أنه لم يكن مهتمًا بذلك فقد كان أكثر حرصاً على الجوهر منه على الشكليات.. إنني لا أحب الغموض والإبهام وهذه العبارة السطحية التي تشير إلى الإيتكيت أو آداب المجتمع.. إن هذا إلاّ وسيلة الأغبياء ليرفعوا أنفسهم لمستوى رجال الفكر.. وعبارة الكياسة أو الذوق الحسن هي الأخرى من التعبيرات التقليدية التي لا تعني لي شيئاً.. أما ما يُقال له زيّ أو مُودة سواء كان حسناً أم سيئاً فلا يؤثر فيّ. إنني لا أهتم إلاّ بقوة الفكر وعلى أية حال فإنه كان يبدي إعجابه - على نحو سرّي بهدوء الرجال المهذبين ودماثتهم.

وكان يتطلع لقبول الارستقراطيين له، أولئك الأرستقراطيون الذين كانوا يسخرون منه في صالونات فابورج سان جرمين. ومن ناحية فإنه بطريقته الخاصة كان يستطيع أن يكون جذاباً فاتناً عندما يريد.

وربما يرجع رأيه السخيف في النساء إلى تسرعه في عدم الاهتمام بمشاعرهن، لقد أبدى ملاحظة لمدام شاربنتييه قائلاً: يالبشاعة منظرك في هذا الرداء الأحمر!

وجعل من مدام دي ستيل عدوّة له عندما ذكر لها أنه يُقدر النساء وفقاً لدرجة خصوبتهن (قدرتهن على الإنجاب).

وقد وبّخته بعض النسوة لفظاظته بلطف أنثوي، فعندما قال لمدام دي شيفريز صدقيني ما أشد حُمرة شعرك! أجابته قائلة: ربما كان الأمر كذلك يا سيدي، لكن هذه هي المرة الأولى على الإطلاق يقول لي رجل هذا القول.

وعندما قال لذات الجمال المشهور: مدام إنني لا أحب أن تتدخل النساء في السياسة. أجابته إجابة مفحمة قائلة: أنت على حق أيها الجنرال، لكن في بلد تُقطع فيه رؤوسهن، من الطبيعي أن يُردن معرفة السبب.

ومع هذا فإن مينيفال الذي - غالباً - ما كان يراه كل يوم لاحظ جاذبية نابليون التي لا تُقاوم.

وكان نابليون يريد في بعض الأحيان أن يكون حديثه على سبيل المزاح، وغالباً ما يكون ذلك مفيداً وموجها.

وكان يدعو العلماء والفنانين والممثلين والكتاب لمائدته ويدهشهم بدماثته وسعة معلوماته في مجالات تخصصهم وبراعة ملاحظاته، وقد ترك لنا إيزابي رسام المنمنمات ومونج العالم الرياضي وفونتين المعماري وتالما الممثل مذكرات عن هذه اللقاءات، وجميعهم يشهدون بأن مناقشات نابليون معهم كانت ممتازة وودودة ومرحة.

وكان كثيراً ما يُفضّل الحديث على الكتابة، فقد كانت أفكارُه تسبقُ كلامه لذا فعندما كان يريد كتابة أفكاره فإنه كان يكتبها بسرعة شديدة حتى إن أحداً - بمن في ذلك هو نفسه - لا يستطيع فك مغاليقها.

لذا فقد كان يُملي، وقد تم نشر١٤ ألف خطاب من خطاباته ولا شك أن آلافاً أخرى لم تنشر، وهذا يجعلنا نفهم مدى المعاناة التي كان يعانيها سكرتيروه.

لقد نجا بورين الذي عُيّن سكرتيراً له في سنة ١٧٧٩ وكان حسن الحظ إذ تم فصله من عمله في سنة ١٨٢٠ وبذا تمكن من العيش حتى سنة ١٨٤٣، لقد كان بورين يتوقع أن يستدعيه نابليون فى السابعة صباحا ليظل يعمل معه طوال

النهار كما كان يستدعيه ليلاً. وكان بورين يُتقن عدة لغات تحدثًا وكتابةً كما كان يعرف القانون الدولي، وكان له طريقته في الاختزال مما مكّنه عادة من الكتابة أسرع مما يُملي نابليون.

أما مينيفال الذي خلف بورين في سنة ١٨٢٠ فقد كان يعاني من العمل مع نابليون أكثر من معاناة بورين فهو يقول: إنني لم أكن أعرف أي نوع من أنواع الاختزال وكان نابليون يحبه وغالباً ما كان يمزح معه لكنه كان يرهقه كل يوم غالباً وبعدها يطلب منه أن ينصرف ليأخذ حماماً.

وقد ذكر الإمبراطور وهو في سانت هيلانه: إنني مسؤول تقريباً عن موت مينيفال. لقد كنت ملزماً بإعفائه لفترة من واجبات وظيفته وجعله بالقرب من ماري لويز للاستشفاء وكان منصبه الجديد هذا لا ينطوي على مهام عمل حقيقية.

وفي سنة ١٨٠٦ خوّله نابليون في اختيار مساعد له أي مساعد لمينيفال، فرشح فرانسوا فان الذي عمل مع نابليون للنهاية وفي كل المعارك. ومع هذا فقد كان مينيفال قد تعب تماما فهرب من إمبراطوره المحب له في سنة ، ١٨٣١

لقد كان حُب مينيفال له من نوع الحب الذي يزدهر في ظل الاعتراف بعدم المساواة بين المحبين، وهو حب غير مذموم.

وقد أصبح نابليون قادراً على استخدام عقله على نحو ما يفعل أفضل العلماء وأكثرهم مقدرة في المعهد العلمي الفرنسي، ومعهد دراسة مصر.

ورغم أنه لم يستنبط نظاماً محدداً من الفكر يتحتم سجن الكون داخله بحيث لا تفلت منه شاردة ولا واردة، إلاّ أن عقله الواقعي قد أظهر القصورَ في أعمال المفكرين الذين يسيئون استخدام الأفكار ويبنون قلاعاً في الهواء لا أساس لها من البيولوجيا (علوم الأحياء) أو التاريخ. فبعد أن جرَّب (أي نابليون) " لابلاس" وغيره من العلماء في المناصب الإدارية، خلص إلى أنك لا تستطيع أن تنجز أي عمل مع فيلسوف.

وعلى أية حال فإنه شجع العلوم وأوصى بدراسة التاريخ فمن أقواله: لابد أن يدرس ابني كثيرا من علم التاريخ وأن يستغرق في تأمله، فالتاريخ هو الفلسفة

الوحيدة الحقيقية.

ورغم أنَّ نابليون نشأ ليكون رجلاً عسكريا إلاَّ أنه كان ذا حِس صائب إزاء الحقائق الاقتصادية باعتبارها أساس تحديد مصائر الأسر وباعتبارها ركيزة للحضارة، وبها يكون الحُكم على قوّة الدولة أو ضعفها. وبشكل عام فإنه رغم ميله الشديد للتنظيم كان مناصراً للحرية الاقتصادية،وفتح أبواب المنافسة، وحقوق الملكية الخاصّة. فلم يهتم كثيراً بالخطط الاشتراكية التي قال بها " شارل فورييه " وغيره والمتعلقة بالإنتاج الجماعي وتوزيع الناتج توزيعاً متساوياً.

فقد كان يشعر شعوراً أكيداً أن الأقلية الأكثر مقدرة - في أي مجتمع - سرعان ما تحكم الأكثرية وتستوعب - أي هذه الأقلية النَّشِطة - القدر الأكبر من الثروة، وأكثر من هذا فإن المُثل الشيوعية لا تستطيع على المدى الطويل بأساليبها المتباينة في تقديم الحوافز في حفز الناس على الكدح.

ففي تحليل جانبي ورد أن الجوع هو الذي يجعل العالم يتحرك وأكثر من هذا فإن الملكية الجماعية تمثّل إغراء مستمراً باللامبالاة.

فبينما الملكية الفردية بما فيها من مصالح شخصية للمالك في ثروته -- تدفع لليقظة الدائمة والانتباه المستمر مما يجعل خططه مثمرة محققة لأهدافها،فإن الملكية الجماعية تؤدي للخمول وعدم الإنتاجية، لأن المشروع الفردي مسألة موهبة ومهارة بينما المشروع الجماعي مسألة روح عامة، وتوفر الروح العامة العالية لا يكون إلاّ نادراً.

ومن هنا فقد فتح نابليون كل الأبواب وأتاح كل الفرص لكل الناس بصرف النظر عن ثرواتهم وأنسابهم.

وقد نعمت فرنسا حتى في سنوات حكمه الأخيرة بالرخاء الذي حقَّق السلام الاجتماعي بين كل الطبقات ولم تعد هناك بطالة ولا اضطرابات سياسية. ولم يعد أحد مهتماً بالإطاحة بحكومة وظّفت أو أتاحت فُرصة عمل لكل محتاج.

لقد كان نابليون يؤمن بمبدأ أساسي هو أن دولة تقوم ماليتها على نظام زراعي جيد لا تسقط أبداً لقد أدرك أنه بإشرافه على كل شيء وعدم إغفاله

أي شيء أن التعريفات الجمركية الوقائية والتمويل المالي الموثوق به وصيانة الطرق والقنوات بشكل جيد.

كل ذلك لابد أن يشجع الفلاحين على العمل الجاد المتواصل وعلى شراء الأراضي واستصلاح المزيد منها،وتزويد جيوشه بالشباب الأقوياء. لقد كان عدد كبير جدا من الفلاحين الفرنسيين يعملون بنظام المزارعة (أي العمل في مزارع الآخرين لقاء المشاركة في المحصول) أو في أراض مستأجرة لكن نصف مليون منهم أصبحوا بحلول عام ١٨٤١ يمتلكون الأفدنة التي يزرعونها.

وقد وصفت سيدةٌ إنجليزية قامت برحلة إلى فرنسا في هذا العام الفلاحين الفرنسيين بأنهم يتمتعون بدرجة من الرخاء لم يصل إليها الفلاحون في أي مكان في أوروبا. وقد نظر هؤلاء الزرّاع إلى نابليون باعتباره الضمان الحي لحُجج ملكياتهم وظلوا موالين له حتى وهنت أراضيهم نتيجة غياب أبنائهم المجندين في جيوشه.

واهتم نابليون أيضاً بالصناعة اهتماماً أساسيا. فجعل من مهامه زيارة المصانع وإظهار اهتمامه بعمليات الإنتاج والمنتجات، وبالعمال والحرفيين والمديرين. وتطلّع إلى وضع العِلم في خدمة الصناعة.

لقد أقام المعارض الصناعية - ففي سنة ١٨٠١ أقام معرضاً في "اللوفر"، وآخر في سنة ١٨٠٦ في خيمة هائلة في ميدان الجنود المتقاعدين ومشوّهي الحرب ونظم مدرسة الفنون والحِرَف، وكافأ المخترعين والعلماء.

وأجريت التجارب في سنة ١٨٢٠ لاستخدام طاقة البخار وبالفعل فقد تم تجريب آلة غير مُتقنة تعمل بالبخار لتسيير بارجة نقل بضائع في ترعة قرب باريس، لكن أمر استخدام الطاقة البخارية كان في حاجة إلى مزيد من الجهود.

وفي سنة ١٨٣٠ قدَّم " روبير فلتون "خطة لاستخدام الطاقة البخارية في الملاحة، فأحالها نابليون إلى المعهد الوطني الفرنسي الذي رفضها بعد شهرين من التجارب لكونها غير عملية.

لقد كانت الصناعة الفرنسية تتقدم على نحو أبطأ من الصناعة البريطانية،

فقد كانت أسواق تصريف منتجاتها أقل ورؤوس أموالها أقل، واستخدام الآلات فيها أقل. وعلى أية حال ففي سنة ١٨١٠ عرض جوزيف - ماري جكوار آلة جديدة للنسج واشترت الحكومة الفرنسية اختراعه هذا ونشرته فأصبحت صناعة النسيج الفرنسية تنافس نظيرتها البريطانية.

وفي هذه الأثناء، كان الكيميائيون الفرنسيون يواصلون جهودهم لمواجهة منع المنتجات البريطانية من السكر والقطن والأصباغ (النيلة أو الأصباغ الزرقاء) فصنعوا السكّر من البنجر والأصباغ الزرقاء من نباتات الوَسمة، وطوّروا الكتان فجعلوا منسوجاته أفضل من المنسوجات القطنية.

وساعد نابليون الصناعة الفرنسية بالتعريفات الجمركية الوقائية والحصار القاري المضاد وعاونها لتجاوز الصعاب المالية بالقروض بشروط مُيسَّرة وفتح أسواقاً جديدة للمنتجات الفرنسية في إمبراطوريته الواسعة، وكان يستوعب العمال في أشغال عامة على نطاق واسع إن شهدت البلاد ركوداً في عمليات التشغيل أو التوظيف.

وكان بعضها شاهداً على عظمة نابليون وجيوشه مثل عمود "فيندوم" و"المادلين" (الكلمة تعني حرفياً فواكه الصيف) وقوس النصر المرصّع بالنجوم وقوس نصر ميدان الفروسية، وشغَّل الشباب في بعض الأعمال الأخرى مثل إقامة تحصينات عسكرية أو أعمال تهدف لتسهيل التحركات العسكرية وغيرها كالأشغال التي جرت في ميناء "شيربورج" وحصنه وقناته.

وبعض هذه الإنشاءات ذات النفع كانت مصمَّمة بحيث يكون لها أبعاد فنية جمالية، كمبنى البورصة وبنك فرنسا ومبنى مكتب البريد العام ومسرح "الأوديون" (الكلمة تعني حرفيًا مسرح إغريقي للموسيقا والغناء)، بل وحتى سوق القمح أو سوق النبيذ وبعض هذه الأشغال العامة كانت لتسهيل العمل الزراعي، كتجفيف المستنقعات بالإضافة لأعمال أخرى تُيسِّرالنقل والتجارة.

وتم افتتاح شوارع جديدة في باريس مثل طرق "ريفولي" و "كاستينجليون" و"البو" (السلام)، وميلين من الأرصفة على طول نهر السين ومقر وزارة الخارجية

الفرنسية المطل على هذا النهر ذاته، والأكثر أهمية إنشاء ٥ آلاف ميل من الطرق الجديدة في فرنسا، وما لا حصر له من الجسور بما في ذلك "جسر أوسترليتز " في باريس و "جسر لينا " في باريس، أضف إلى هذا تطهير النهر ومد شبكة رائعة من الترع والقنوات. لقد تم حفر ترع كبرى لتربط باريس بليون وليون بستراسبورج وبوردو.

وسقط نابليون قبل أن يستطيع إكمال مشروعين آخرين: قنوات تربط الراين بالدانوب والرون، وقنوات أخرى تربط البندقية (فينيسيا) بجنوة.

ولم يكن مسموحاً للعمال الذين يعملون في حفر القنوات وإقامة أقواس النصر وتشغيل المصانع بالاشتراك في أي إضراب أو تكوين اتحادات للمطالبة بتحسين ظروف العمل أو رفع الأجور. وعلى أية حال فإن حكومة نابليون عملت على أن تكون الأجور متمشية مع الأسعار وأن يخضع الخبّازون والجزارون (اللحّامون) والمنتجون لتنظيم الدولة وأن تتوفّر ضروريات الحياة خاصة في باريس.

وحتى الأعوام الأخيرة من حكم نابليون كانت الأجور تزداد بمعدّل أسرع من ازدياد الأسعار وشاركت البروليتاريا (الطبقة العاملة) على نحو معتدل في الرخاء العام وفي مجد انتصارات نابليون، فأصبحوا أكثر وطنية من البورجوازية. فأعطوا أذناً غير مصغية للبورجوازيين الليبراليين مثل " مدام دي ستيل " وبنيامين قستنطين " في تبشيرهم بالحرية.

كما شهدت العلوم عصراً من أزهى عصورها في عصر نابليون لقد كان هو نفسه أوّل حاكم في التاريخ الحديث تلقى تعليماً علمياً، وربما لم يتلق الإسكندر تلميذ أرسطو مثل هذه الخلفية العلمية العميقة التي تلقاها نابليون.

لقد كان الفرنسسكان الذين علّموه في المدارس العسكرية في "برين" يعلمون أن العِلْم أكثر فائدة من اللاهوت لكسب المعارك، فدرَّسوا للكورسيكي الشاب كل ما كانوا يعلمونه في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والجغرافيا.

وعندما وصل للسلطة أعاد التقليد الذي كان على أيام لويس الرابع عشر، بتقديم جوائز مالية وعَيْنية لمن حققوا إنجازات ثقافية وقد قدّم معظم هذه

الجوائز للعلماء مستوحياً بذلك خلفيته العلمية، ومرة أخرى حذا حذو من سبقه فوسّع مجال عطاياه ليشمل غير الفرنسيين، ففي سنة ١٨٠١ دعا المعهد العلمي الفرنسي باسمه العالم " أليساندرو فولتا " للحضور إلى باريس ليعرض نظرياته عن التيار الكهربائي.

وحضر فولتا بالفعل وحضر نابليون ثلاث محاضرات من محاضراته وقدّم لهذا الفيزيائي الإيطالي ميدالية ذهبية وفي سنة ١٨٠٨ أعطى جائزة الاكتشافات في مجالي الكيمياء الكهربيّة لـ " همفري ديفي " الذي حضر إلى باريس لتسلّمها رغم أن فرنسا وانجلترا كانتا في حالة حرب.

وكان نابليون يدعو بشكل دوري علماء المعهد العلمى الفرنسي ليجتمعوا به ليقدموا له تقريراً عن الأعمال التي قاموا بها أو الجاري العمل فيها في مختلف مجالات تخصصهم.

وفي أحد هذه الاجتماعات، في فبراير سنة ١٨٠٨ تحدث سكرتير المعهد "كوفييه" ببلاغة كلاسكيّة رصينة كبلاغة " بفوّن " وكان يحق لنابليون أن يشعرأن العصر الذهبي للنثر الفرنسي قد عاد من جديد.

لقد تفوق الفرنسيون في العلوم البحتة مما جعل فرنسا أكثر الأمم عقلانية وتشكُّكاً، أما الإنجليز فشجعواالعلوم التطبيقية وطوّروا الصناعة والتجارة والثروة.

أما في الطب فيتضح مدى تقدير نابليون لعمل الأطباء المخلصين الأكفاء من أنه أوصى بمئة ألف فرنك للجرّاح الدومينيكاني "لرّي" الذي صحب الجيش الفرنسي إلى مصر وروسيا وواترلو والذي كان يسارع لتقديم المساعدة السريعة للجرحى، وأنجز مئتي عملية بتر في يوم واحد في "بورودينو" وترك لنا أربعة مجلدات عن العمليات الجراحية أثناء الحروب.

■ ■ ■

2

نابليون.. مصر وأحلام الإمبراطورية



١

شرقُ نابليون الفرنسي البدايةُ من مصرْ

قدمت الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨ م، بغرض جعل مصر قاعدة استراتيجية تكون نواة للإمبراطورية الفرنسية في الشرق، وبعد فشل أهدافهم وانهزامهم أمام الجيوش الإنجليزية وبعد تحطم أسطولهم في معركة «أبو قير البحرية»، رحلوا عن مصر عام ١٨٠١م بعد قضاء حوالي ثلاث سنوات.

وبعد فترة قليلة من مجيء الحملة سرعان ما رحل نابليون بونابرت عن مصر تاركاً الجنرال كليبر على رأس الحملة. وبعد مقتل كليبر على يد سليمان الحلبي تسلم الجنرال جاك فرانسوا مينو (أو عبدالله جاك مينو) بعد أن أظهر أنه أسلم ليتزوج من امرأة مسلمة كانت تسمى زبيدة ابنة أحد أعيان رشيد.

وبعد هزيمة الفرنسيين وتحطيم أسطولهم وقع الفرنسيون معاهدة لتسليم مصر والعودة لفرنسا على متن السفن البريطانية، لتنتهي بذلك فترة من أهم الفترات التي شهدتها مصر.

لقد تعرضت مصر على مر تاريخها لحملتين صليبيتين في عهد الدولة الأيوبية، وكانت الحملتان تقودهما فرنسا، أما الأولى فقد عرفت بالحملة الصليبية الخامسة، وكانت بقيادة جان دي برس. وأما الأخرى فقد عرفت بالحملة الصليبية السابعة، وكانت بقيادة الملك لويس التاسع ومنيت الحملتان بهزيمة مدوية عامي ٦١٨ هـ - ١٢٢١م و ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠م وخرجتا من مصر.

إلا أن احتلال مصر كانت رغبة قوية لدى فرنسا، وبقيت أملا لساستها

وقادتها ينتظرون الفرصة السانحة لتحقيقها متى سنحت لهم، وفي سبيل ذلك يبعثون رجالهم إلى مصر على هيئة تجار أو سياح أو طلاب ودارسين، ويسجلون دقائق حياتها في تقارير يرسلونها إلى قادتهم.



ولما بدأ الضعف يتسرب إلى الدولة العثمانية أخذت فرنسا تتطلع إلى المشرق العربي مرة أخرى، وكانت تقارير رجالهم تحرضهم بأن اللحظة المناسبة قد حان أوانها ولابد من انتهازها.

وكشفت تقارير سانت بريست سفير فرنسا في الآستانة منذ سنة ١٧٦٨م والبارون دي توت والمسيو (مور) قنصل فرنسا في الإسكندرية ضعف الدولة العثمانية، وأنها في سبيلها إلى الانحلال، ودعت تلك التقارير إلى ضرورة الإسراع باحتلال مصر، غير أن الحكومة الفرنسية ترددت ولم تأخذ بنصائحهم، احتفاظا بسياستها القائم ظاهرها على الود والصداقة للدولة العثمانية.

قبل قيام الحملة الفرنسية على مصر، قدم شارل مجالون القنصل الفرنسي في مصر تقريره إلى حكومته في ٩ فبراير ١٧٩٨م يحرضها على ضرورة احتلال مصر، ويبين أهمية استيلاء بلاده على منتجات مصر وتجارتها، ويعدد لها المزايا التي ينتظر أن تجنيها فرنسا من وراء ذلك.

وبعد أيام قليلة من تقديم تقرير مجالون تلقت حكومة فرنسا تقريرا آخر من (تاليران) وزير الخارجية، ويحتل هذا التقرير مكانة كبيرة في تاريخ الحملة الفرنسية على مصر، حيث عرض فيه للعلاقات التي قامت من قديم الزمن بين فرنسا ومصر وبسط الآراء التي تنادي بمزايا الاستيلاء على مصر، وقدم الحجج التي تبين أن الفرصة قد أصبحت سانحة لإرسال حملة على مصر وفتحها.

كما تناول وسائل تنفيذ مشروع الغزو من حيث إعداد الرجال وتجهيز السفن اللازمة لحملهم وخطة الغزو العسكرية، ودعا إلى مراعاة تقاليد أهل مصر وعاداتهم وشعائرهم الدينية، وإلى استمالة المصريين وكسب مودتهم بتبجيل علمائهم وشيوخهم واحترام أهل الرأي منهم لأن هؤلاء العلماء أصحاب مكانة كبيرة عند المصريين.

وكان من أثر التقريرين أن نال موضوع غزو مصر اهتمام حكومة الإدارة التي قامت بعد الثورة الفرنسية، وخرج من مرحلة النظر والتفكير إلى حيز العمل والتنفيذ، وأصدرت قرارها التاريخي بوضع جيش الشرق تحت قيادة نابليون بونابرت في ١٢أبريل ١٧٩٨م.

وتضمن القرار مقدمة وست مواد، اشتملت المقدمة على الأسباب التي دعت حكومة الإدارة إلى إرسال حملتها على مصر، وفي مقدمتها عقاب المماليك

الذين أساءوا معاملة الفرنسيين واعتدوا على أموالهم وأرواحهم، والبحث عن طريق تجاري آخر بعد استيلاء الإنجليز على طريق رأس الرجاء الصالح وتضييقهم على السفن الفرنسية في الإبحار فيه.

وشمل القرار تكليف نابليون بطرد الإنجليز من ممتلكاتهم في الشرق، وفي الجهات التي يستطيع الوصول إليها، وبالقضاء على مراكزهم التجارية في البحر الأحمر والعمل على شق قناة برزخ السويس.

جرت الاستعدادات لتجهيز الحملة على خير وجه، وكان قائد الحملة الجنرال نابليون يشرف على التجهيز بكل عزم ونشاط ويتخير بنفسه القادة والضباط والعلماء والمهندسين والجغرافيين، وعني بتشكيل لجنة من العلماء عرفت باسم لجنة العلوم والفنون وجمع كل حروف الطباعة العربية الموجودة في باريس لكي يزود الحملة بمطبعة خاصة بها.

وأبحرت الحملة من ميناء طولون في ١٩ مايو ١٧٩٨ م وتألفت من نحو ٣٥ ألف جندي، تحملهم ٣٠٠ سفينة ويحرسها أسطول حربي فرنسي مؤلف من ٥٥ سفينة، وفي طريقها إلى الإسكندرية استولت الحملة على جزيرة مالطة من فرسان القديس يوحنا آخر فلول الصليبيين.

وحينما نزل نابليون الإسكندرية في شهر (المحرم ١٢١٣ هـ = يوليه ١٧٩٨م) كان من أول ما فعله إصدار منشور للمصريين.. هذا نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه. من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته، يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية، يظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي؛ فحضر الآن ساعة عقوبتهم، وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأزابكة والجراكسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها، فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم.

يا أيها المصريون قد قيل لكم: إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين: إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيه والقرآن العظيم. وقولوا أيضًا لهم: إن جميع الناس متساوون عند الله، وإن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب.. فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة؟! فإن كانت الأرض المصرية التزامًا للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم، ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم.. ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدًا لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها.

وسابقًا كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك.

أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم: إن الفرنساوية هم أيضًا مسلمون مخلصون؛ وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي الباب الذي كان دائمًا يحث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين.

ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني، وأعداء أعدائه أدام الله ملكه. ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم.

طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم. طوبى أيضًا للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب.

لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقًا إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر.

المادة الأولى: جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء.

المادة الثانية: كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار.

المادة الثالثة: كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي أيضًا تنصب صنجاق السلطان العثماني محبنا دام بقاؤه.

المادة الرابعة: المشايخ في كل بلد يختمون حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التي تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شيء منها.

المادة الخامسة: الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم. وعلى كل أحد من أهالي البلدان أن يبقى في مسكنه مطمئنًا. وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة. والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت (عالي) أدام الله إجلال السلطان العثماني، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي، لعن الله المماليك، وأصلح حال الأمة المصرية.

تحريرًا بمعسكر إسكندرية في ١٣ شهر سيدور سنة ١٢١٣، من إقامة الجمهور الفرنساوي، يعني في آخر شهر محرم سنة هجرية".. (اهـ) بحروفه.

عندما قامت الثورة الفرنسية رفعت شعار "الحرية، الإخاء، المساواة" غير أن هذه الكلمات الثلاث أصبحت مبررًا للعملية الاستعمارية للعديد من الدول. ومنها مصر. وكانت الأسطورة الفرنسية تزعم أن الجيش الفرنسي جاء ليعلم الشعب المصري مبادئ الثورة والتنوير، وليحرره من سيطرة المماليك، لذلك كان الفرنسيون يسمون البلاد التي يستعمرونها "البلاد المحررة".

يقول "ماري جوزيف مورايي" أحد الضباط المشاركين في حملة نابليون على مصر في مذكراته: "كان أملنا أن نعيد إليهم الحضارة، وحكم العلوم والآداب، أن نعيد إليهم النماء والخصوبة والسعادة".

ويذهب أحد مؤرخي فرنسا المعاصرين للحملة إلى "أن أحد أسباب قيام الحملة هو أن التقارير التي قدمت للحكومة الفرنسية كانت تؤكد أن الشعب المصري سوف يستقبل الفرنسيين بفرح بالغ".

وعندما جاء نابليون إلى مصر قدم نفسه للمصريين على أنه المحرر من الطغيان والعبودية، وقبل دخوله للقاهرة بأيام وجه نداءً صريحًا للشعب للثورة على المماليك. وعندما سيطر على القاهرة كان أول أعماله أن يعلق بيانًا ليقرأ على الشعب جاء فيه: "إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين... من الآن فصاعدًا لا ييأس أحد من الأهالي في مصر من الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء سيدبرون الأمور، وبذلك ينصلح حال الأمة كلها... طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم... والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله لانقضاء دولة المماليك".

كان نابليون يرى أن على المرء أن يبدو صديقًا للناس، وأن يبذل الوعود الكثيرة ولا يفي بوعد منها، وأن يصطنع الدجل ما دام هو السبيل الوحيد للنجاح، لذلك كانت نصيحته للجنرال كليبر أن يروض الدين ولا يقاومه حتى ينام التعصب قبل اقتلاع جذوره؛ ولذا لبس نابليون "العمامة"، واحتفل مع المسلمين بمناسباتهم الدينية، وأشاع أنه دخل الإسلام، وأن القرآن تنبأ بالثورة الفرنسية، وأن "تحرير" فرنسا لمصر قدر مكتوب ولا اعتراض على الأقدار.

وفي مذكرات "فيفان دينون" بعنوان: "رحلة إلى مصر السفلى ومصر العليا" التي نشرت (١٢١٧هـ = ١٨٠٢م) قال الرجل: "كنا نتباهى بأننا أكثر عدلاً من المماليك، وكنا مع ذلك نقترف كل يوم مضطرين (!!) عددًا من المظالم، كانت صعوبة تمييز أعدائنا بناء على الشكل أو اللون تجعلنا نقتل كل يوم فلاحين أبرياء.. أما مصير السكان الذين جئنا لإسعادهم فلم يكن أحسن حالاً مما سلف!!".

وعن ذكرياته في مصر، يقول نابليون:

❖ في مصر لو حكمت لن أضيع قطرة واحدة من النيل في البحر. وسأقيم أكبر مزارع ومصانع أطلق بها إمبراطورية هائلة. ولقمت بتوحيد الإسلام

والمسلمين تحت راية الإمبراطورية ويسود العالم السلام الفرنسي.

❖ في مصر قضيت أجمل السنوات، ففي أوروبا الغيوم لا تجعلك تفكر في المشاريع التي تغير التاريخ، أما في مصر فإن الذي يحكم بإمكانه أن يغير التاريخ.

❖ لو لم أكن حاكما علي مصر لما أصبحت إمبراطورا على فرنسا.

❖ الرسول محمد ﷺ بني إمبراطورية من لا شيء.. من شعب جاهل بني أمة واسعة.. من الصحاري القفر بني أعظم إمبراطورية في التاريخ.

❖ الإسلام كالمسيحية تفسدهما السياسة ويلعب القائمون عليهما بالنار إذا تخطوا حدود أماكن العبادة لأنهم يتركون مملكة الله ويدخلون مملكة الشيطان.

❖ حلمي تجسد في الشرق بينما كاد يتحول إلى كابوس في الغرب. والحقيقة أن أوربا كانت قد شهدت ثورتين ثورة صناعية في إنجلترا وثورة اجتماعية في فرنسا ١٤ يوليو ١٧٨٩ تحول فيها الإنتاج اليدوي إلي الإنتاج الآلي وزيادة حجم الإنتاج فكان ضروريا البحث عن مستعمرات لجلب المادة الخام وتصريف المنتجات هجمت طبقة البرجوازية علي حصن الباستيل وأطلقوا صراح من فيه وتم القبض على الملك لويس ١٦ وإعدامه ونادوا بمبادئ العدل والإخاء والمساواة وعزموا على نشرها خارج فرنسا.

ودخلت الثورة فى تجارب مختلفة من أشكال السلطة مثل الجمعية التشريعية ثم المؤتمر الوطنى ثم حكومة الإدارة التى جاءت فى عهدها الحملة الفرنسية.

ومن الأسباب الرئيسية لحملة نابليون على مصر :

تعويض المستعمرات :

بدأ هذا التنافس على المستعمرات بين إنجلترا وفرنسا منذ القرن ١٧ واستمر طوال القرن ١٨نتيجة للقضاء على الإقطاع وظهور الدول القومية وحركة الكشوف الجغرافية وظهور الرأسمالية التجارية واتساع سوق التجارة.

وقيام الثورة الصناعية والحاجة الملحة إلى مستعمرات للحصول على المواد

الخام وتصريف المنتجات. هذا دفع فرنسا لتكوين مناطق نفوذها فى الشرق، وتأسيس إمبراطورية فرنسية تكون مصر قاعدة لها خاصة بعد أن خسرت كل مستعمراتها فى حرب السنوات السبع ١٧٥٦ : ١٧٦٣.

قيام الثورة الفرنسية ١٧٨٩ :

كان إعدام الملك وإعلان الجمهورية ١٧٩٣م وإعلان فرنسا عزمها على نقل مبادئ ثورتها ومد يد العون للشعوب الأوربية التى تناضل ضد حكامها الرجعيين مما هدد عروش ملوك أوربا، فكونوا تحالف أوربا لضرب الثورة الفرنسية ولكن تمكن بونابرت من هزيمتهم جميعًا ما عدا إنجلترا بسبب موقعها الحصين وقوة أسطولها.

ومن هنا أراد أن يخرجها من موقعها الحصين وضربها فى ميدان آخر باحتلال مصر وقطع الصلة بين إنجلترا والهند بعد فشل حكومة الإدارة فى ضربها فى عقر دارها.

السيطرة على طرق التجارة :

ترجع فكرة : احتلال فرنسا لمصر فى العصر الحديث فى القرن ١٧ أيام حكم لويس ١٤ أراد مصر لضرب التجارة الهولندية وتجدد فى عهد لويس ١٥ عن طريق إقناع السلطان أن يتنازل له عن مصر.

وتجدد أيام لويس ١٦ وذلك لتسهيل الاتصال بالشرق دون المرور برأس رجاء الصالح. وتجددت أيضًا عندما أرسل القنصل الفرنسى إلى حكومته يحثها لإنقاذ التجارة الفرنسية وحمايتها من المماليك.

ومن الأهداف الرئيسية للحملة الفرنسية على مصر :

❖ تقويض الإمبراطورية البريطانية فى الشرق وإنشاء إمبراطورية فرنسية.

❖ تسهيل مرور التجارة الفرنسية إلى الشرق عبر مصر بدلا من الدوران حول إفريقيا.

حالة المجتمع المصرى

أما عن حالة المجتمع المصرى قبيل الحملة الفرنسية أواخر القرن ١٨ فهى

من الأهمية بمكان لأن في معرفة أوضاع المجتمع المصرى قبل مجىء الحملة فوائد أهمها :

فهم تطورات الأحداث

❖ معرفة أسباب هزيمة المماليك من الفرنسيين.

❖ معرفة أسباب قيام المصريين بثورات.

❖ معرفة الفرق بين المجتمعين (الفرنسى - المصرى)

❖ معرفة الفرق بين القوتين (الفرنسية الأوربية - التركية الشرقية)

المجتمع المصري قبيل الحملة الفرنسية

الحالة الاقتصادية :

١ - التجارة

كانت مصر تعاني كسادا بالنسبة لتجارتها الخارجية بسبب :

- تحول التجارة الى رأس الرجاء الصالح ١٤٩٨.

- اقتصار علاقة مصر وصلاتها على دول حوض البحر المتوسط.

كما كانت تعاني كسادا في تجارتها الداخلية بسبب :

- اضطراب الأمن وانتشار الفتن.

- فداحة الضرائب.

- عدم ثبات قيمة العملة والموازين.

- القراصنة فى البحر الأحمر

- غارات البدو والنزاعات بين الفرق.

- سيطرة الأجانب على التجارة بفضل الامتيازات وكانت فرنسا أول من حصلت على امتيازات ١٥٣٥.

٢ - الزراعة

شهدت الفترة التي سبقت مجيء نابليون بحملته تدهورا في الزراعة بسبب:

- تراخى الفلاح فى عمله.
- نظام ملكية الأرض (انتفاع)
- إهمال الولاة شؤون الرى.
- نظام الضرائب (نظام الالتزام) وهو أن يتعهد أحد الملتزمين بدفع الضريبة مرة واحدة في مزاد علني ويجمعها من الشعب أضعاف مضاعفة وكان يمنح قطعة أرض كبيرة تعرف بأرض الوسية وكان من المماليك أو الشعب بل ومن النساء.

٣ - الصناعة

وقد تدهورت هى الأخرى بسبب :

- كانت لا تزال يدوية فى الوقت الذى أصبحت فيه أوربا آلية
- كان لا يزال نظام طوائف الحرف فكل طائفة يرأسها شيخ الطائفة الذى يمثل همزة الوصل بين الصناع والحكومة، من حيث جمع الضرائب والإشراف على الإنتاج.

وقد ساعد على تدهور الصناعة :

- تدهور الزراعة
- اضطراب الأمن
- الضرائب الباهظة.

٤ - الحالة الاجتماعية

انقسم المجتمع المصرى قبل مجيء نابليون ثلاث فئات :

- أقلية حاكمة
- شريحة وسطى

ـ أغلبية محكومة

– طبقة أرستقراطية من الأتراك والبكوات المماليك وكانت متمتعة بالسلطة والثروة والنفوذ.

– طبقة متوسطة: وتتكون من المشايخ والعلماء بما لديهم من قدرة على التأثير على عامة الشعب، والتجار استمدوا مكانتهم بما لديهم من ثروة.

– طبقة فقيرة : الفلاحون وصغار الحرفيين، وكانت تعانى من الفقر والحرمان.

وقد شهدت تلك الفترة :

❖ انتشار الجهل والخرافات والسحر والشعوذة.

❖ أغلق باب الاجتهاد ولم يعد إلا بصيص من الأزهر الشريف.

❖ وفرض الأتراك على مصر سياسة العزلة مما ساعد على الجمود الفكرى فقد أدى استخدام الأتراك لعاطفة الولاء الدينى وفكرة أن الخروج على السلطان يعد خروجا على الدين، وكان الهدف منها هو إضعاف الوعى القومى، واستسلام المصريين لظلم الحكام

إلا من بعض الحركات التى كان يقوم بها التجار أو العامة يتقدمهم العلماء والمشايخ.

٥ – الحالة السياسية

❖ أصبحت مصر ولاية عثمانية منذ عام ١٥١٧م. و تم تقسيم الحكم فى مصر إلى ثلاث هيئات لا ينفرد أحدها بالسلطة وتظل مصر عثمانية.

١ – الوالى و هو نائب السلطان فى الولاية وهو منفذ أوامر السلطان. ويقوم إرسال الجزية وأحكامه لا ترد و مدته من ١– ٣ سنوات. و قد جعلته هذه المدة القصيرة يهمل شؤون الولاية ويهتم بجمع ألموال.

٢ – الديوان : هو مجلس شورى للوالى. و مهمته مراقبة الوالى ومن حقه

الاعتراضات على قراراته وعزله

٣- بكوات المماليك: وقد استعان بهم الأتراك فى إدارة شؤون البلاد بسبب خبرتهم بشؤون البلاد، وإحداث توازن بين الوالى والحامية، لكنهم تطلعوا للانفراد بالسلطة.

وكان نظام الحكم العثماني يحمل بين طياته عوامل هدمه. .

ومن خلال العرض السابق يتضح أن الفرق كان واضحًا بين المجتمعين الفرنسى الأوربى الغربى والمصرى الشرقى العثمانى.

■■■

٢

الإمبراطور يشرف على إعداد الحملة الفرنسية بنفسه

جرت الاستعدادات لتجهيز الحملة علي خير وجه، وكان قائد الحملة الجنرال نابليون يشرف على التجهيز بكل عزم ونشاط ويتخير بنفسه القادة والضباط والعلماء والمهندسين والجغرافين، وعني بتشكيل لجنة من العلماء عرفت باسم لجنة العلوم والفنون وجمع كل حروف الطباعة العربية الموجودة في باريس لكي يزود الحملة بمطبعة خاصة بها كما ذكرنا.

وأبحرت الحملة من ميناء طولون في (٣ من ذي الحجة ١٢١٢ هـ = ١٩ من مايو ١٧٩٨م) وتألفت من نحو ٣٥ ألف جندي، تحملهم ٣٠٠ سفينة ويحرسها أسطول حربي فرنسي مؤلف من ٥٥ سفينة، وفي طريقها إلى الإسكندرية استولت الحملة على جزيرة مالطة من فرسان القديس يوحنا آخر فلول الصليبيين.

وعلى الرغم من السرية التامة التي أحاطت بتحركات الحملة الفرنسية وبوجهتها فإن أخبارها تسربت إلى بريطانيا العدو اللدود لفرنسا، وبدأ الأسطول البريطاني يراقب الملاحة في البحر المتوسط.

واستطاع نيلسون قائد الأسطول الإنجليزى الوصول إلى ميناء الإسكندرية قبل وصول الحملة الفرنسية بثلاثة أيام، وأرسل بعثة صغيرة للتفاهم مع السيد "محمد كريم" حاكم المدينة وإخباره أنهم حضروا للتفتيش عن الفرنسيين الذين خرجوا بحملة كبيرة وقد يهاجمون الإسكندرية التي لن تتمكن من دفعها ومقاومتها.

لكن السيد محمد كريم ظن أن الأمر خدعة من جانب الإنجليز لاحتلال المدينة تحت دعوى مساعدة المصريين لصد الفرنسيين، وأغلظ القول للبعثة؛

فعرضت أن يقف الأسطول البريطاني في عرض البحر لملاقاة الحملة الفرنسية وأنه ربما يحتاج للتموين بالماء والزاد في مقابل دفع الثمن، لكن السلطات رفضت هذا الطلب.



تاليران مهندس الحملة الفرنسية على مصر

وتَوقُّع بريطانيا أن تكون وجهة الحملة الفرنسية إلى مصر العثمانية دليلٌ على عزمها على اقتسام مناطق النفوذ في العالم العربي وتسابقهما في اختيار أهم المناطق تأثيرا فيه، لتكون مركز ثقل السيادة والانطلاق منه إلى بقية المنطقة العربية، ولم يكن هناك دولة أفضل من مصر لتحقيق هذا الفرض الاستعماري.

وقد حاول نابليون قبل وصوله مصر استمالة الدولة العثمانية والمصريين وذلك من خلال المنشور الذى وزعه قبل وصوله للشواطئ ٢٧ يونيه سنة ١٧٩٨ واحتوى المنشور على جانبين: جانب الترغيب وجانب التهديد. و تضمن جانب الترغيب :

- أنه جاء لمجاملة الدولة العثمانية
- محاربة المماليك الغرباء الظالمين

- أنه ينوى إنشاء حكومة أهلية يكون الحكم فيها للمصريين.

- استخدامه ورقة الدين وادعاؤه حبه للإسلام واحترامه للقرآن.

وفى الوقت نفسه استخدم نابليون سياسة التهديد حيث هدد القرَى والمناطق التى تتعرض لقواته بالحرق.

وصلت الحملة الفرنسية إلى الإسكندرية ونجحت في احتلال المدينة في (١٨ من المحرم ١٢١٢هـ= ٢ من يوليو ١٧٩٨م) بعد مقاومة من جانب أهلها وحاكمها السيد محمد كريم دامت ساعات، وراح نابليون يذيع منشورا على أهالي مصر تحدث فيه عن سبب قدومه لغزو بلادهم وهو تخليص مصر من طغيان البكوات المماليك الذين يتسلطون في البلاد المصرية.

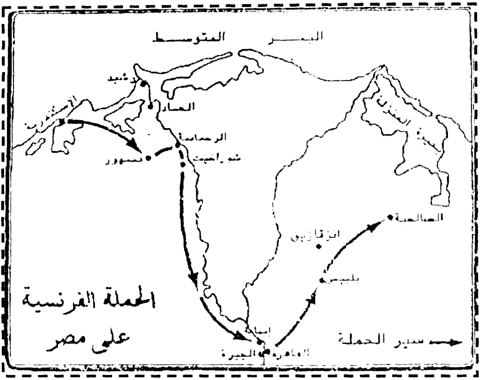
وأكد في منشوره على احترامه للإسلام والمسلمين، وبدأ المنشور بالشهادتين وحرص على إظهار إسلامه وإسلام جنده كذبا وزورا، وشرع يسوق الأدلة والبراهين على صحة دعواه، وأن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون، فقال: "إنهم قد نزلوا روما وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة المسلمين،" وأنهم قد قصدوا مالطة وطردوا منها فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يزعمون أن الله يطلب منهم مقاتلة المسلمين.

وأدرك نابليون قيمة الروابط التاريخية الدينية التي تجمع بين المصريين والعثمانيين تحت لواء الخلافة الإسلامية؛ فحرص ألا يبدو في صورة المعتدي على حقوق السلطان العثماني؛ فعمل على إقناع المصريين بأن الفرنسيين هم أصدقاء السلطان العثماني.

غير أن هذه السياسة المخادعة التي أراد نابليون أن يخدع بها المصريين ويكرس احتلاله للبلاد لم تَنْطلِ عليهم أو ينخدعوا بها؛ فقاوموا الاحتلال وضربوا أروع أمثلة الفداء.

وفي مساء يوم (١٩ من المحرم ١٢١٢ هـ= ٣ من يوليو ١٧٩٨ م) زحفت الحملة على القاهرة، وسلكت طريقين أحدهما بري وسلكته الحملة الرئيسية؛ حيث تسير من الإسكندرية إلى دمنهور فالرحمانية، فشبراخيت، فأم دينار على

مسافة ١٥ ميلا من الجيزة. وأما الطريق الآخر فبحري وتسلكه مراكب الأسطول الخفيفة في فرع رشيد لتقابل الحملة البرية قرب القاهرة.



ولم يكن طريق الحملة سهلا إلى القاهرة فقد لقي جندها ألوانا من المشقة والجهد، وقابلت مقاومة من قبل أهالي البلاد؛ فوقعت في (٢٩ من المحرم ١٢١٣هـ = ١٣ من يوليو ١٧٩٨م) أول موقعة بحرية بين مراكب المماليك والفرنسيين عند "شبراخيت"، وكان جموع الأهالي من الفلاحين يهاجمون الأسطول الفرنسي من الشاطئين غير أن الأسلحة الحديثة التي كان يمتلكها الأسطول الفرنسي حسمت المعركة لصالحه، واضطر مراد بك قائد المماليك إلى التقهقر صوب القاهرة.

ثم التقى مراد بك بالفرنسيين عند منطقة إمبابة في (٧ من صفر ١٢١٣ هـ= ٢١ من يوليو ١٧٩٨م) في معركة أطلق عليها الفرنسيون معركة الأهرام. وكانت القوات المصرية كبيرة غير أنها لم تكن معدة إعدادا جيدا؛ فلقيت هزيمة كبيرة

وفر مراد بك ومن بقي معه من المماليك إلى الصعيد، وكذلك فعل إبراهيم بك شيخ البلد، وأصبحت القاهرة بدون حامية، وسرت في الناس موجة من الرعب والهلع خوفًا من الفرنسيين.

دخل نابليون مدينة القاهرة تحوطه قواته من كل جانب، وفي عزمه توطيد احتلاله للبلاد بإظهار الود للمصريين وبإقامة علاقة صداقة مع الدولة العثمانية، وباحترام عقائد أهالي البلاد والمحافظة على تقاليدهم وعاداتهم؛ حتى يتمكن من إنشاء القاعدة العسكرية، وتحويل مصر إلى مستعمرة قوية يمكنه منها توجيه ضربات قوية إلى الإمبراطورية البريطانية.

وفي اليوم الثاني لدخوله القاهرة وهو الموافق (١١ من صفر ١٢١٣هـ = ٢٥ من يوليو ١٧٩٨م) أنشأ نابليون ديوان القاهرة من تسعة من كبار المشايخ والعلماء لحكم مدينة القاهرة، وتعيين رؤساء الموظفين، غير أن هذا الديوان لم يتمتع بالسلطة النهائية في أي أمر من الأمور، وإنما كانت سلطة استشارية ومقيدة بتعهد الأعضاء بعدم القيام بأي عمل يكون موجها ضد مصلحة الجيش الفرنسي، ولم يكن الغرض من إنشاء هذا الديوان سوى تكريس الاحتلال الفرنسي والعمل تحت رقابة وأعين السلطات الفرنسية.

وقد اندلعت ضد نابليون ثورة شعبية سميت بـ "ثورة القاهرة الأولى".. اندلعت في٢١ في أكتوبر سنة ١٧٩٨ م ومن أسبابها:

- فرض الضرائب الباهظة على المصريين (وخاصة التجار).
- اقتحام البيوت والدكاكين بحثا عن الأموال.
- هدم المبانى بحجة تحصين القاهرة ودخولهم الأزهر بالخيول.
- هدم أبواب الحارات بحجة توسيع الشوارع ليسهل مطاردة عناصر المقاومة
- نظرة المصريين للفرنسيين على أنهم غزاة مستعمرون

وكان مقر الثورة حي الأزهر والحسينية ومن أهم مظاهرها :

- قيادة الأزهر للثورة.

- تنظم عملية تنظيم المتطوعين.
- هدم المصريون مصاطب الجوانب.
- إقامة المتاريس فى الشوارع.
- إخراج المصريين ما أخفوه من سلاح عن الفرنسيين
- اتباع أساليب المقاومة العنيفة.

أما النتائج المترتبة على الثورة فكانت :

- أيقن نابليون فشل الحملة
- أعاد العمل بالديوان الوطنى.
- تمادى فى القوة وفرض الضرائب
- امتدت الثورة إلى القرى المجاورة
- قتل ديبوى حاكم القاهرة و ٢٠٠ فرنسى واستشهد ٢٠٠٠ مصرى.
- توقيع غرامات واعتقال الكثير من الأعيان والمشايخ بحجة الاشتراك فى الثورة.
- زيادة كراهية المصريين للفرنسيين.

وقد استخدم نابليون القمع والشدة وضرب القاهرة بمدافعه، وتصدعت بعض جوانب الجامع الأزهر، ودخل جنوده الأزهر بخيولهم، فأهاج شعور المصريين الدينى.

لقد كانت حملة نابليون على مصر حدثا خطيرا استهدف الأمة الإسلامية في الوقت الذي كانت فيه غافلة عما يجري في أوربا من تطور في فنون القتال وتحديث أنواع الأسلحة ونهضة شاملة.

وكان نابليون يمنِّي نفسه باحتلال إستانبول عاصمة الدولة العثمانية وتصفية كيانها باعتبارها دولة إسلامية كبرى وقفت أمام أطماع القارة الأوروبية، وذلك بعد أن يقيم إمبراطورية في الشرق، وقد عبر نابليون عن هذا الحلم بقوله: "إذا

بلغت الآستانة خلعت سلطانها، واعتممت عمامته، وقوضت أركان الدولة العثمانية، وأسست بدلا منها إمبراطورية تخلد اسمي على توالي الأيام".

نتائج الحملة الفرنسية

١ ـ النتائج العلمية

❖ اصطحبت الحملة الفرنسية الكثير من العلماء في مختلف المجالات للبحث في البيئة المصرية والشعب المصري والعادات والتقاليد والآثار والمصريات، كما أحضروا معهم مطبعتين واحدة فرنسية والأخرى عربية وكذلك المترجمين، وكانت المحصلة هي كتاب وصف مصر الذي ذكروا فيه باستفاضة كل مايتعلق بمصر من تاريخ وجغرافيا وتضاريس، مزوداً بالرسوم البيانية الموضحة في عدة مجلدات كبيرة.

❖ فك رموز اللغة المصرية القديمة التي كانت غامضة بالنسبة للعالم على يد العالم الفرنسي شامبليون، بعد اكتشاف حجر رشيد.

٢ ـ النتائج السياسية

❖ لفتت الحملة الفرنسية على مصر أنظار العالم الغربي لمصر وموقعها الإستراتيجي وخاصة إنجلترا، مما كان لهذه النتيجة محاولة غزو مصر في حملة فريزر ١٩ سبتمبر ١٨٠٧م الفاشلة على رشيد بعد أن تصدى لها المصريون، بعد ذلك بسنوات قلائل.

❖ إثارة الوعي القومي لدى المصريين ولفت انتباههم إلى وحدة أهداف المحتل على اختلاف مشاربهم ألا وهو امتصاص خيرات البلاد.

٣ ـ النتائج الاجتماعية

❖ تعرف المصريون على الحضارة الغربية بمزاياها ومساوئها.

❖ عرف المصريون بعض الأنظمة الإدارية عن الفرنسيين ومن بينها سجلات المواليد والوفيات وكذلك نظام المحاكمات الفرنسي، وبرز ذلك في قضية سليمان الحلبي.

٤ ـ انتهاء الحملة الفرنسية

في معركة أبي قير البحرية وبعد حصار الشواطئ المصرية، تم تحطيم الأسطول الفرنسي وغرق بمجمله، فقام الجنرال مينو بعد ذلك بتوقيع اتفاقية التسليم مع الجيش الإنجليزي وخروجهم بكامل عدتهم من مصر على متن السفن الإنجليزية.

ولعل من أبرز من تتبع الحملة الفرنسية على مصر هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتي والذي يعد كتابه هو المرجع الأساسي لتلك الفترة من تاريخ مصر، فقد ذكر كل الحوادث بالتفصيل.

والجبرتي هو عبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتي (ولد في القاهرة عام ١٧٥٦ - وتوفي في القاهرة عام ١٨٢٥) وهو مؤرخ مصري كبير عاصر الحملة الفرنسية على مصر ووصف تلك الفترة بالتفصيل في كتابه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" والمعروف اختصاراً بتاريخ الجبرتي الذي يعد مرجعاً أساسيا لتلك الفترة الهامة من الحملة الفرنسية على مصر ثم استيلاء محمد علي عَلَى الحكم. قدم أبو جده من قرية جبرت تقع الان في جمهورية الصومال إلى القاهرة للدراسة في الأزهر، واستقر بها.

اتسم عبد الرحمن الجبرتي بالوعي القومي والموضوعية في تتبعه لتلك الفترة الهامة من تاريخ مصر والوطن العربي.

وقد ظل الجبرتي مشتغلاً بجمع أخباره وتقييدها حتى فاجأته وفاجأت المصريين جميعهم الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م.

كان الجبرتي في وقتها في الرابعة والأربعين من عمره، ولذلك فهو لم ينقطع خلال فترة بقاء الفرنسيين في مصر عن تسجيل أعمالهم، ورصد تحركاتهم، والتعليق على أقوالهم وأفعالهم، وكان أكثر العلماء الأزهريين دقة في تدوين ملاحظاته على نظام الحياة في مجتمع الجنود الفرنسيين وطرائقهم في تنظيم حياتهم.

وقد انقسمت ملاحظات الجبرتي إلى قسمين:

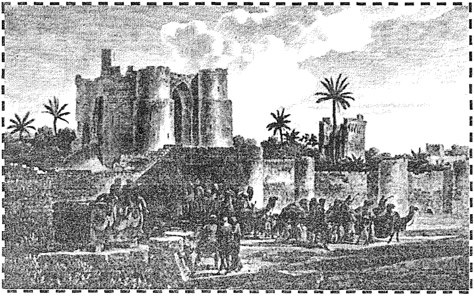
الملاحظات السياسية :

وتتعلق بنظم الحكم الذي اتبعه الفرنسيس ومنشوراتهم وتقاريرهم وتحليل أقوالهم ورصد أهدافهم من الحملة ووجودهم في مصر.

وفي هذا القسم لم يكن الجبرتي على إلمام كامل بالحياة الفرنسية وبالعالم الخارجي، فلم يستطع تحليل الأحداث تحليلاً عميقاً مثل ما فعل في القسم الثاني من ملاحظاته وهي الملاحظات الاجتماعية خلال تلك الفترة.

الملاحظات الاجتماعية

ففي هذا القسم يتحدث الجبرتي عن مشاهداته الشخصية وتجاربه العملية الحياتية، وقد تفاوتت مواقفه من الحياة الاجتماعية والثقافية للفرنسيين فأحياناً كنتَ تراه معجباً ببعض مظاهر السلوك ولا سيما ما يتعلق بالمعرفة وحب العلم وإجراء التجارب واستخدام الأجهزة والأدوات. وأحياناً كنتَ تراه ساخطاً خاصة فيما يتعلق بتصرفات النساء منهم وخروجهن للعمل سافرات على غير المعهود في المجتمعات الإسلامية في ذلك الوقت.



القاهرة في زمن الحملة الفرنسية

وقد كان الجبرتي يتردد على بعض المنشآت الفرنسية في مصر، وكان يلتقي ببعض رجالهم، ولعل أبرز احتكاكه بالفرنسيين مما أهله لما صار عليه من العلم بأحوالهم، أنه كان عضواً في الديوان الوطني الذي أنشأه الجنرال مينو.

وقد تعرّض الجبرتي إلى النقد في موقفه من الفرنسيين من المصريين ومن الفرنسيين كذلك، فقد اتهمه المصريون بالتعاون مع الفرنسيين والولاء لهم في سياق تأريخه، كما اتهمه الفرنسيون بالتعصب ضد مظاهر الحضارة الحديثة التي كانوا يدعون تقديمها للعالم الإسلامي والمجتمع المصري.

نال كتاب الجبرتي ثناءً كبيراً في أوساط الشعب ومن الحكام الأتراك. فقد حمله الوزير العثماني إلى الآستانة بتركيا وعرضه على السلطان العثماني سليم الثالث الذي أمر كبير أطبائه مصطفى بهجت بنقله إلى اللغة التركية فتمّ ذلك في عام ١٨٠٧م.

وقد توقف الكثير من الباحثين والمفكرين العالميين والعرب عند حملة نابليون على مصر، وصدرت لهم عشرات إن لم نبالغ لو قلنا مئات وبكل اللغات لما لها من موقع على خريطة أحداث التاريخ.

■ ■ ■

٣

مصر.. نابليون..
الحلم الذي تبخر

يرى مؤلف كتاب الحداثة والإمبريالية أحمد زكريا الشلق أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة عين شمس أن الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر كانت جزءا من الأحلام الإمبراطورية لنابليون الذي كان مأخوذا بسحر الشرق متأثرا بكتابات المستشرقين ومستخدما لهم أيضا. بحسب ما نقلت رويترز.

وتجسد لوحة غلاف كتاب (الحداثة والإمبريالية) الخيال الأوروبي عن الشرق وفيها يدخل نابليون بونابرت القاهرة فوق فرسه بكبرياء في حين يسجد بعض البسطاء أمامه كما يبدي شيخ من نافذة بيته حفاوته بالغازي الذي لا يبالي بأحد.

ويضيف أن الجنرال الشاب كان يتوق إلى الشرق بعد إعجابه بكتابات عالم المصريات والإسلاميات الفرنسي كلود سافاري الذي عاش في مصر وتعلم العربية وترجم القرآن وكتب خلاصة دراساته في كتابي (حياة محمد) و(رسائل عن مصر) حيث أمر نابليون بتوزيع الكتاب الأخير الذي صدر عام ١٧٨٦ على جنوده ليشحذ هممهم ويغريهم بالعالم الذي سوف يغزونه.

ويشير إلى أن نابليون اعتبر كتاب الفرنسي قسطنطين فولني (رحلة في مصر وسوريا) الذي صدر عام ١٧٨٧ بمثابة "توراة مغامراته الإسلامية في مصر ومن ثم خص به قادة جنوده" حيث راودته أحلام الإسكندر الأكبر في سعيه للسيطرة على مصر "قلب العالم القديم" ولم يهدف إلى تحديثها بدليل إعادته المطبعة

لبلاده بعد الفشل الذريع والسريع للحملة (١٧٩٨-١٨٠١).

ويحمل كتاب زكريا الشلق عنوانا فرعيا هو (الغزو الفرنسي وإشكالية نهضة مصر) ويقع في ١٨٨ صفحة كبيرة القطع وأصدرته (دار الشروق) بالقاهرة ضمن سلسلة خاصة بالدراسات التاريخية عنوانها (الجانب الآخر.. إعادة قراءة التاريخ المصري).

وكان المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد قد قال في كتابه (الاستشراق) قبل نحو ٣٠ عاما أن الشرق اختراع أوروبي وأن الاستشراق "كيان له وجوده النظري والعملي وقد أنشأه من أنشأه واستثمرت فيه استثمارات مادية كبيرة على مر أجيال عديدة وقد أدى استمرار الاستثمار إلى أن أصبح الاستشراق باعتباره مذهبا معرفيا عن الشرق شبكة مقبولة تسمح منافذها بتسريب صورة الشرق إلى وعي الغربيين... الإمبريالية السياسية تحكم مجالا كاملا من الدراسات والابداع والمؤسسات البحثية."

ورغم نفي سعيد أن يكون الاستشراق مؤامرة فإنه شدد على كونه ظاهرة ثقافية وسياسية وأنه في بعض جوانبه كان متواطئا مع المصالح الاستعمارية ومن الصعب "فصل مصالح المستشرق من طرف واحد عن السياق الإمبريالي العام الذي بدأ مرحلته العالمية الحديثة بغزو نابليون لمصر" مشيرا إلى ما وصفه بالرصانة المتعمدة لكتاب (وصف مصر) الذي أمر نابليون بوضعه حيث تشهد مجلداته "بالجهود المنهجية لفيلق كامل من العلماء الفرنسيين الذين يساندهم جيش حديث يقوم بالغزو الاستعماري."

ثم أشار سعيد (١٩٣٥-٢٠٠٣) في كتابه (تغطية الإسلام) ١٩٨١ الى التعاون بين الاستعمار والمستشرقين لدرجة يندر معها وجود أحد خبراء الاسلام لم يكن مستشارا لحكومة بلاده مستشهدا بالمستشرق الهولندي سنوك هوخرونيه الذي "استغل الثقة التي أولاه المسلمون إياها في تخطيط وتنفيذ الحرب الهولندية الوحشية ضد أبناء شعب أتشيه المقيمين في سومطرة."

ويقول زكريا الشلق في كتابه إن حملة نابليون العسكرية على مصر كانت "فريدة وشاذة عن المألوف بحق" إذ كانت تضم نحو ١٧٥ عالما في الرياضيات وعلم

الحيوان والكيمياء والفلك والجغرافيا وهندسة المناجم والهندسة المعمارية والرسم والنحت وموسيقيين وفنيي طباعة ومتخصصين في المتفجرات وأطباء وأدباء إذ كانوا يشكلون "كتيبة لغزو" معرفي ولم يكونوا أقل أهمية من الجيش نفسه.

وينقل عن الفرنسي شارل رو مؤلف كتاب (بونابرت حاكم مصر) وصفه حملة نابليون بقوله "لم يحدث من قبل إطلاقا لجيش ذاهب لغزو أحد البلاد أن أخذ معه دائرة معارف حية مثل هذه."

ويشير إلى أن نابليون أمر قبل التحرك بشراء مكتبة تضم ٥٥٠ مؤلفا أساسيا إضافة إلى مكتبتين للتاريخ الطبيعي والفيزياء ومعمل للكيمياء وتم توزيع العلماء على عدة سفن "حتى لا يسلم العلم لمصير سفينة واحدة".

ويقول إن المصريين لم يفرقوا في عدائهم بين الجنود الغزاة والعلماء المصاحبين لهم وبدأ التعاون بين العلم والمدفع من خلال التنقيب عن الآثار المصرية القديمة (الفرعونية) واستخراج تلك الكنوز وشحنها إلى فرنسا.

ويعد كتاب (وصف مصر) الذي وضعه علماء الحملة موسوعة كبرى عن مصر.. تاريخا وجغرافيا وموارد طبيعية ونباتية وآثارا ومناخا وعادات وأساليب حياة وصناعات وحرفا.

لكن هناك وجها آخر لهذا الإنجاز إذ ينقل المؤلف عن الكاتب الفرنسي أندريه ريمون قوله "ان الاهتمام الفرنسي بمصر أثمر هذا العمل العلمي ولكن هذه الثمرة المتأخرة لا تملك تبرير مغامرة الفتح العسكري."

وعلى خلاف اللوحة التي يحملها غلاف الكتاب وهي ترضي الخيال الأوروبي "المريض" عن الشرق فإن المؤلف يشدد على أن المصريين قاوموا الفرنسيين فورا واعتبروهم "أعداء محتلين" وتكررت مواجهات ومعارك للمقاومة في أنحاء البلاد بما لم يسمح للغزاة بالاطمئنان أو الاستقرار.

ويضيف أن كل وسائل المقاومة استخدمت في مناهضة الغزاة حتى أصدر نابليون "أوامره باستخدام أعنف الوسائل لسحق الثورة كقصف الجامع الأزهر واحتلاله بالجنود وقتل الثوار وإحراق المنازل."

ويشير إلى أن جيش نابليون دمر الكتب والمخطوطات في خزائن الجامع الأزهر بل حاول هدمه وهو سلوك يناقض "ادعاء (نابليون) اعتناق الإسلام والإيمان بنبيه" كما ينقل عن الروائي الفرنسي ستندال (١٧٨٣-١٨٤٢) وصفه إسلام نابليون بأنه "كان نفاقا سياسيا مشروعا."

وفي مقدمة طويلة يعيد زكريا الشلق قراءة المشهد المصري قبل قدوم الفرنسيين قائلا إن تلك الفترة كانت تشهد تحديثا على أكثر من مستوى "وتتمتع بثقافة حية" وأن المؤرخ الأشهر عبد الرحمن الجبرتي "لم يكن عبقريا في عصر مظلم كما يعتقد البعض."

ويستشهد المؤلف على ذلك بدراسات لمؤرخين ومستشرقين منهم الأمريكي بيتر جران مؤلف كتاب (الجذور الإسلامية للرأسمالية في مصر ١٧٦٠-١٨٤٠) والبريطانيين كينيث كونو مؤلف كتاب (فلاحو الباشا.. الأرض والمجتمع والاقتصاد في الوجه البحري ١٧٤٠-١٨٥٨) ودانيال كريسيليوس مؤلف كتاب (جذور مصر الحديثة ١٧٦٠-١٧٧٥) والفرنسي أندريه ريمون مؤلف كتابي (المصريون والفرنسيون في القاهرة ١٧٩٨-١٨٠١) و(الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر).

ويأتي الكتاب بعد جدل حاد شهدته الساحة المصرية قبل سنوات في ذكرى مرور ٢٠٠ عام على الحملة التي اعتبرها البعض غزوا صريحا في حين رآها آخرون بداية لتحديث مصر قائلين إن الفرنسيين جاءوا بالمدفع والمطبعة وغادروا مصر بالمدفع وتركوا المطبعة.

لكن زكريا الشلق مؤلف الكتاب يشدد على أن المطبعة كانت "أداة مهمة" للدعاية بين المصريين لحملة نابليون الذي طبع المنشور الأول وهو لايزال في عرض البحر "ليبدأ حرب الدعاية قبل أن يبدأ القتال بالفعل" وبعد فشل الحملة حمل الفرنسيون المطبعة والآثار والأجهزة العلمية إلى بلادهم.

ويضيف أن الغزاة لم يدربوا مصريا على استخدام المطبعة "بل إن العاملين بها من الشوام مثل إلياس فتح الله ويوسف مسابكي لم يبقوا بمصر بعد رحيل

الفرنسيين" وأن فرنسا لم تهدف إلى تحديث مصر والمصريين وإنما جاء الغزو "لمصلحة المشروع الاستعماري الفرنسي."

من ناحية أخرى، وفي سياق تقييم الحملة النابليونية، و قضاياها المثارة، والتي لا ينقطع الحديث عنها حتى يومنا هذا، وما إذا كانت استعمارية أم تنويرية صدر مؤخرا كتاب بعنوان "مائتا عام على الحملة الفرنسية: رؤية مصرية" للدكتور ناصر أحمد إبراهيم.

ويأتي الكتاب للإجابة عن سؤال هل كانت الحملة الفرنسية التي احتلت مصر من العام ١٧٩٨م إلى العام ١٨٠١م استعمارا أم تنويرا؟ وذلك من خلال بحوث ودراسات كتبها أكثر من ٢٠ باحثا ومؤرخا، تحت إشراف المؤرخ المصري الدكتور رؤوف عباس.

أبواب الكتاب تناولت عدة موضوعات، منها : المقاومة ونقد المشروع وإشكاليات الترجمة والحملة الفرنسية في المصادر وفي المناهج واتجاهات التفسير المتعلقة بها وكيف تجلت الكتابات عنها في المنظور العربي المعاصر، وهل كانت الحملة صدمة فعلا؟ ثم يختتم الكتاب أبوابه بقراءة نقدية للموضوع ككل في رؤية مصرية لتطور التاريخ الحديث في مصر، ذلك التاريخ الذي يجعل الحملة الفرنسية فصلا من فصوله الرئيسية.

الكتاب في مجمله هو محصلة مؤتمر الجمعية المصرية التاريخية، الذي خصصته لهذا الموضوع في عام ١٩٩٨، من منطلق إعادة تقييم الحدث ووضع الحملة وما ترتب عليها من آثار سياسية وثقافية على مصر والشرق العربي في حجمها الحقيقي حسب وصف الدكتور رؤوف عباس.

ويتوقف الكتاب أيضا أمام موجات المقاومة الضارية التي لقيتها الحملة في الأراضي المصرية فلم تتركز المقاومة في القاهرة والإسكندرية فحسب بل شملت ريف الدلتا والصعيد، كما أن الوجود الفرنسي في مصر لم يكن مستقرا بل واجه جنود الحملة مختلف الأمراض التي حصدت أرواح بعضهم.

ويؤكد مؤلف الكتاب د. ناصر إبراهيم أنه بالرغم من كثرة الكتابات التي

تناولت الحملة الفرنسية، فإن الإنتاج الضخم الذي قدم عن الاحتلال الفرنسي لمصر قدم في الأساس وجهة نظر المحتل الذي بلور قضايا أيديولوجية من النوع التبريري الذي يغلف الحقائق بالأفكار التي تخدم مصالح المستعمر بصرف النظر عن تناقضاتها مع الواقع التاريخي.

وهناك كتاب مهم بعنوان : " نابليون بونابرت فاتحاً لمصر "، ومؤلف هذا الكتاب هو الكاتب والصحافي الفرنسي المعروف روبير سوليه. وكان قد ولد في مصر وترعرع قبل أن يهاجر إلى فرنسا ويصبح أحد الكتاب والصحافيين المهمين في جريدة «لوموند» الشهيرة، جريدة المثقفين الفرنسيين.

وهو كاتب روائي وباحث فكري ومراسل صحفي في ذات الوقت. وكثيرا ما تستوحي رواياته أجواء مصر، بلده الأصلي الذي لا يزال يحنّ إليه. نذكر من بين هذه الروايات التي لقيت نجاحا في المكتبة الفرنسية: رواية «الطربوش»، و«منارة الإسكندرية»، و"المملوكة"، الخ.

كما تم نشر عدة كتب فكرية عن مصر، نذكر من بينها: "مصر، ولع فرنسي"، ثم "القاموس المحب لمصر"، هذا بالإضافة إلى كتب أخرى ومقالات عديدة يصعب عدها أو إحصاؤها.وفي هذا الكتاب الجديد الذي صدر مؤخرا في العاصمة الفرنسية يتحدث روبير سوليه عن حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨: أي قبل حوالي قرنين ونصف. ويقول بأن نظرة المثقفين العرب لهذا الحدث الضخم تختلف عن نظرة المثقفين الفرنسيين والغربيين بشكل عام.

فالمثقفون العرب يرون فيها نوعا من العدوان الاستعماري على الشرق الإسلامي في عقر داره. وأما المثقفون الفرنسيون فيرون فيها نوعا من المحاولة لإدخال مصر في الحداثة وإخراجها من نومها العميق أو تخلفها الشرقي.

ولكن ينبغي الاعتراف بأن العديد من المثقفين العرب يرون فيها أيضا حدثا إيجابيا لأنها أدت إلى إدخال العرب وليس فقط مصر في الحداثة العلمية والتكنولوجية وربما السياسية. ولم يغير قسم منهم نظرتهم نحوها إلا مؤخرا وتحت ضغط الأحداث الجارية (كالحملة على العراق، أو نكبة فلسطين، أو سوى ذلك).

يضاف إلى ذلك أن التيار الأصولي والقومي العربي الذي لا يرى فيها إلا ظاهرة سلبية. أما الليبراليون العرب فيعترفون بإيجابياتها على الرغم من سلبيات الفتح العسكري وما يرافقه عادة من مواجهات دامية.

وبالتالي فموقف المثقفين المصريين أو العرب منها ليس واحدا ولا موحدا.ثم يردف المؤلف قائلا:في الواقع أن حملة نابليون بونابرت على مصر تعرضت لتفسيرات أو تأويلات عديدة ومختلفة على مدار القرنين الماضيين. وقد أشعلت أو ألهبت خيال الفرنسيين والأوروبيين عموما. ورأوا فيها نوعا من فتح الشرق وكشف أسراره ورموزه.

كما رأى فيها مثقفو الغرب فتحا ثلاثي الأبعاد، فقد كانت أولا فتحا عسكريا يهدف إلى حرمان الإنجليز من السيطرة على بلد غني مليء بالثروات ويقع على طريق الهند.

وهذا هو الهدف الأول للفتح، وأما الثاني فكان فتحا سياسيا لأنه هدف إلى إدخال أفكار الثورة الفرنسية إلى مصر وتعريف المصريين بحضارة عصر التنوير. وأما الثالث فكان فتحا علميا، وذلك لأن نابليون بونابرت أخذ معه فريقا علميا ضخما مؤلفا من مائة وستين عالماً في شتى الاختصاصات.

وهؤلاء هم الذين أسسوا المعهد العلمي لمصر وشرعوا بدراسة التاريخ المصري وكذلك الآثار والمجتمع بشكل علمي. ويمكن القول بأن النهضة العلمية لمصر ابتدأت منذ ذلك الوقت. وهذا الفريق العلمي الكبير هو الذي رافق الحملة العسكرية التي كانت تضم ما لا يقل عن خمسين ألف جندي وبحّار.

يتألف الكتاب من أكثر من خمسين فصلا، نذكر من بينها: نداء الشرق، بلد معرض للفتح، مذكرات تاليران، جنود وعلماء، ثلاثمائة سفينة حربية تذهب لفتح مصر، مدينة الإسكندرية في ذلك الزمان، مؤرخ القاهرة، على الرمل المشتعل، معركة الأهرامات، بلد مفتوح، عصب الحرب، أبوقير: البحر يشتعل، تأسيس معهد مصر من قبل نابليون، ضد الباب العالي، أي الأتراك، فتح صعيد مصر، وداعا بونابرت، الخ.

ومن أهم فصول الكتاب نذكر الفصلين الأخيرين اللذين يتحدثان عن الدور الذي لعبه محمد علي بعد مغادرة الفرنسيين لمصر بسنوات قليلة (١٨٠٥)، وعن المحصلة الختامية لهذه الحملة العسكرية والاستعمارية الشهيرة. هناك جوانب إيجابية وجوانب سلبية لهذه الحملة.

فالمثقفون الفرنسيون وبعض العرب أيضا يرون أنها أيقظت مصر من سباتها الحضاري الطويل وفتحت عينيها على الحداثة الأوروبية. لقد أخرجتها من فترة العصور الوسطى الظلامية وأدخلتها في عصور الأنوار الحديثة.

ولكن العديد من المؤرخين والمثقفين المصريين يعارضون هذه النظرة ويرفضونها.

فهم يقولون إن مصر لم تكن في حالة انحطاط حضاري كامل كما يزعم مؤيدو بونابرت. ولم يكن الفكر فيها يقتصر على التعليم الأزهري، وإنما كان هناك تعليم دنيوي وعلمي وهو الذي أنجب شخصيات هامة كالمؤرخ الجبرتي أو الشيخ حسن العطار.

ولكن لا ينبغي أن يبالغ هؤلاء في هذا الاتجاه. فالتحدث عن نهضة فكرية في مصر قبل حملة نابليون شيء مضحك ولا يصمد أمام الامتحان التاريخي. ولكن الأصوليين الكارهين للحضارة الغربية يريدون المكابرة وإنكار الحقيقة الساطعة كالشمس، ليس إلا.

ثم يردف المؤلف قائلا:صحيح أن الفرنسيين لم يبقوا في مصر إلا وقتا قصيرا، أقل من ثلاث سنوات. ولكنها كانت كافية لإحداث صدمة فكرية قادرة على إيقاظ مصر وفتح عينيها. فقد أحدثوا قطيعة في النظام السياسي السائد في مصر.

ولولا هذه القطيعة لما كان ممكنا أن يجيء محمد علي الذي كان المحدّث الحقيقي لمصر. و المعروف عنه إعجابه الكبير بالحضارة الفرنسية. وبالتالي فهو امتداد حضاري للحملة بشكل من الأشكال.

ولولا نتائج هذه الحملة لما قبل أعيان القاهرة بتنصيبه حاكما عليهم عام ١٨٠٥، وهذا ما يقوله الدكتور رؤوف عباس نائب عميد كلية الآداب في القاهرة.

فحكم الفرنسيين الذي دام ثلاث سنوات تقريبا أفهم المصريين أنه لم يعد بإمكانهم أن يثقوا بالمماليك ولا بالعثمانيين.

وبالتالي فإن عليهم البحث عن عقد جديد للحكم وهذا العقد تم من خلال محمد علي.

وميزة فرنسا هي أنها ساهمت بكل فعالية في تحديث مصر في الوقت الذي انخرطت فيه باكتشاف الحضارة الفرعونية القديمة التي كانت مهملة ولا أحد يهتم بها. وحملة نابليون كانت كالقنبلة الموقوتة التي انفجرت نتائجها الإيجابية لاحقا: كفك أسرار اللغة الهيروغليفية وشق قناة السويس.

يضاف إلى ذلك أن علماء فرنسا الذين رافقوا نابليون خلفوا وراءهم كنزا علميا وتاريخيا لا يقدر بثمن: ألا وهو الموسوعة الشهيرة باسم: وصف مصر.

ولا يمكن لأي مؤرخ معاصر أن يفهم شخصية مصر وأوضاعها في أوائل القرن التاسع عشر إن لم يعد إلى هذه الموسوعة الضخمة التي لم تتم ترجمتها كليا إلى العربية حتى الآن.

وهناك مذكرات ضابط شارك فى الحملة الفرنسية كان يحرق ويقتل ثم يجد لنفســه الوقت ليكتب عن شؤون قلبـه ,وقـد عنى بوصف النيل والأهرامـات والحيـوانات والطيـور وظاهرة السـراب، كذلك أفـرد العـديد من الصفـحـات للحديث عن العدو ,يغطى هذا النص الحملة الفرنسية بأكملها منذ إبحارها من تولون عام ١٧٩٨ وحتى عودتها إلى فرنسا عام ١٨٠١، كذلك يعطى صورة دقيقة للعمليات العسكرية التى دارت سواء فى مصر أو فلسطين.

مذكرات الضابط 'هويه' في ٦ أجزاء وهي مكتوبة عام ١٨١٧ تقريبا دفاعا عن نابليون بعد انهيار إمبراطوريته، وهذا الضابط كان من أشد مؤيدي الحملة على مصر، لذلك كان من بين من عزلوا سياسيا بعد سقوط بونابرت.

وهنا تبدو أهمية المذكرات لجزء من الصراع الداخلي في فرنسا، لكنها لا تتمتع بنفس الأهمية في مصر، والمجلد الذي يتناول تاريخ مصر قبل الحملة يضم أخبارا أسطورية وإن كان يتضمن بالطبع عشق مصر الفرعونية، أما

المماليك فهم في نظر هويه سبب انهيار البلد، إنها وجهة نظر معروفة ومتكررة وأساسها الأيديولوجي معروف للوصول إلى أن مجيء الفرنسيين كان لحماية مصر وانقاذها والدفاع عن مصالح العثمانيين!!

بقي أن نقول إن خادم نابليون بونابرت في مصر لسنوات عديدة، بابا تام وكان يدعى أيضاً رستم. قد حظي باهتمام إمبراطور فرنسا على الرغم من منظره المخيف والمرعب حيث كان قصير القامة، بدين إلى حد كبير، وذا عضلات بارزة، وعلى الرغم من ذلك كان يتمتع بملامح شرقية إلى حد كبير.

التقى بابا تام بـ نابليون بونابرت قبل أن يغادر هذا الأخير القاهرة سرّاً بعد فشله في عكا وقضاء واليها أحمد الجزار على جيشه، وبعد أن أصاب الطاعون جنوده والقضاء على معظمهم في تلك الفترة.

وتحكي كتب التاريخ أن إمبراطور فرنسا نظر إلى رستم طويلاً وفحصه بعينيه وقال له بعد أن شدّ أذنه بلطف:

هل تجيد ركوب الخيل أيها المخيف؟ أجابه رستم آنذاك: نعم سيدي وقد قاتلت العرب في معارك عدة.

سأله نابليون: ما اسمك؟

أجابه: رستم، أبجاهيا..

تعجّب نابليون وقال: إنه اسم تركي، فما هو اسمك الحقيقي؟ - قال: رستم.

ورستم هذا ولد في جورجيا ثم تمّ خطفه من قريته الصغيرة وعاش بعيداً عنها وعن عائلته التي لم يعد يعرف عنها أي شيء فيما بعد.

تعرض رستم للبيع مرات عديدة في بلدان عربية كثيرة حتى استقر به المطاف في مصر ولقائه بنابليون بونابرت الذي أمر طبيبه الخاص بفحصه والتأكد من أنه لا يعاني من أي مرض الأمر الذي دفع نابليون إلى اتخاذ قرار بتبني هذا الرجل ليصبح في ما بعد خادمه الخاص وليمتطي صهوة جواد عربي ويسير في خيلاء بجوار عربة نابليون بونابرت وبالذات بجوار النافذة التي يطل منها وجه

إمبراطور فرنسا وهو جالس داخل العربة.

وكان باباتام مزود بسيف مرصع بالماس ومسدسين محليين بالذهب وكل هذا من أجل حماية سيده الذي أوصى رستم بأن يكون أميناً وصادقاً وكان أبجاهيا كذلك مما زاد ثقة بونابرت به وأخذ يأمره بأن ينام في مدخل غرفته.

وفي أحيان كثيرة كان إمبراطور فرنسا يطلب من خادمه أن ينام بجانب غرفته ويلازمه أينما ذهب مرتدياً زيا مملوكياً مصنوعاً من القطيفة والكشمير المطرز بالذهب الذي صممه له الرسام الشهير المعروف باسم إيزابي.

لقد أعطى اهتمام نابليون لـ رستم شهرة كبيرة لهذا الأخير في الأوساط الفرنسية الراقية حتى إن صورته وهو يمتطي الفرس طبع منها آلاف النسخ. وكتبت عنه جريدة كانت تدعى (مونيتور) وتصدر في باريس في تلك الفترة وقد أطلقت عليه هذه الصحيفة اسم رستم ذي الوجه الخرافي.

تزوج بابا تام من ابنة خادم نابليون بونابرت وتكلف حفل زفافه نحو ١٣٤١ فرنكاً فرنسياً وهو مبلغ دفعه نابليون هدية لخادمه الأمين الذي خدمه نحو عقد ونصف.

توفي أبجاهيا عن ٦٤ عاماً ودُفن في فرنسا وكتب على قبره: "هنا يرقد رستم زازا والمسمى أبجاهيا وبابا تام، المملوك القديم للإمبراطور بونابرت من مواليد تفليس بجورجيا"...

■ ■ ■

3

عكا... قاهرة نابليون



١

الإمبراطور المهزوم يحاول التعويض !!

بعد أن شعر نابليون بفشله في حملته على مصر عام ١٧٩٨، حيث دمر أسطوله البحري في أبي قير بمصر، حاول تعويض خسارته باحتلال فلسطين كي يشكل قوس قزح بالوصول إلى استنبول ومنها إلى إيطاليا وفرنسا.

وهكذا كان يمني النفس بأن يعود بطلا قوميا وعالميا ويفعل ما عجز عن فعله الإسكندر المقدوني، ولكن هيهات أن تتحقق أحلامه بعد أن واجه مقاومة من شعب فلسطين ومن والي عكا ومما لا يتوقعه من بلد صغير كهذا البلد.

حضر جيش نابليون إلى العريش ومر على غزة ومنها إلى يافا التي قاومته ولكنه تغلب عليها أخيرا ونجح في أسر ثلاثة آلاف جندي والذين ارتكب بحقهم مجزرة رهيبة، ثم تقدم جيشه في السهل الساحلي ووصل سهل سارونة ويظهر أنه أرسل الرسل إلى جبل القدس وجبل نابلس كي يسلموا ولكنهم صمموا على المقاومة خاصة بعد أن نبههم الجزار للمخاطر التي جاء بها الغزاة وطلب من مشايخ نابلس أن يسامحوه داعيا لالتفافهم حوله بعد أن هاجم عاصمتهم صانور، كما أن شيوخ جبل القدس أعربوا عن رفضهم وتعاهدوا على التصدي.

أرسل أحمد الجزار قصيدة وأبيات من الشعر وفيها يثير نخوة شيوخ الجبل وقرى الكراسي وكل باسمه وخصاله لينسيهم هجومه على قلعتهم في صانور وليحرك

فيهم نخوة المعتصم وقد نجحت جهوده لأن قادة الشعب وشيوخه كانوا بسطاء ولا مطمع لهم وبهم من السجايا العربية والأخلاق الإسلامية الفاضلة ما يؤهلهم للدفاع عن البلاد دون النظر لمكاسب أو انتهاز الفرص أو الوقوف عند الأحقاد.

تذكر بعض المصادر التاريخية أن نابليون بونابرت زار بيت المقدس سنة ألف وسبعمائة وثمان وتسعين أي قبل وقت قصير من مغامرته الفاشلة في فلسطين، والتي هدف من خلالها إلى تأمين حملته في مصر، وذلك بمبادرة ذاتية منه، إذ يؤكد مؤرخو الحملة الفرنسية، أن فلسطين لم تكن من بين أهدافها، وأن وجود الفرنسيين في مصر كان كفيلا بتحقيق أحد أهم أهداف الحملة، وهو مواجهة النفوذ البريطاني، المتزايد، والتشويش على طرق التجارة البريطانية.

نشأت فكرة مهاجمة فلسطين كنوع من الحل لمصير الحملة الفرنسية البائسة، فقد اقترحت الحكومة الفرنسية ثلاثة حلول على نابليون، إما البقاء في مصر والدفاع عنها في مواجهة التحالف العثماني، الإنكليزي، الذي انضمت إليه روسيا، وإما التوجه لمهاجمة الهند، وإما الزحف إلى القسطنطينية.

وهي حلول لم تكن تلائم القوة الفرنسية الضعيفة والتي لا تستطيع تحقيق أي من هذه الأهداف وأيسرها البقاء في مصر.

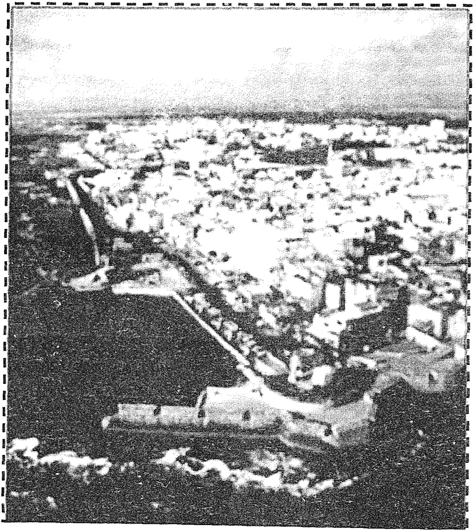
وصلت هذه الحلول إلى بونابرت أثناء حصاره عكا. ما يعني أنه بادر ذاتيا بالهجوم، في فبراير من عام ألف وسبعمئة وتسعة وتسعين بواسطة ثلاثة عشر ألف جندي، فاحتل العريش، ثم خان يونس فغزة. وتوجه لاحتلال الرملة.

في بيت المقدس، بدأت الاستعدادات لمواجهة الفرنسيين. إذ أن سقوط الرملة يعتبر عادة إيذانا بالهجوم على القدس. ولكن نابليون، وبدل التوجه إلى بيت المقدس والتورط في الجبال المحيطة بها، اختار الهجوم على يافا، لتبدأ نهاية حملته عمليا.

صحيح أن الحملة الفرنسية تحطمت أمام أسوار عكا. لكن نهايتها ارتسمت بمجزرة يافا.

في مارس من العام نفسه احتل نابليون يافا بعد قتال استمر ثلاثة أيام، وبعد

القتل والنهب والهتك، وجد جنوده ثلاثة آلاف أسير في أبراج المدينة، فأمر بقتل ألفين وخمسمئة منهم في مجزرة وحشية، سوف تنقلب آثارها عليه، فتفسخ جثث الأسرى مع جثث ألفين استشهدوا أثناء الدفاع عن المدينة، أدى إلى انتشار الطاعون الذي أصاب الفرنسيين. وشكل عاملا إضافيا لهزيمتهم إلى جانب صمود عكا.



مدينة عكا قاهرة نابليون

بعد مجزرة يافا، تزايدت الاستعدادات في القدس لتنظيم الدفاع عنها. ولكن بدل أن يرسل نابليون جنوده إلى المدينة، أرسل كتابا طويلا، يشبه الكتب التي وجهها إلى المدن الأخرى. وفيها كثير من التملق، وكثير من التهديد أيضا.

فقد اختتم كتابه إلى أهل القدس مطالبا بتسليم المدينة. وتلقى ردا دبلوماسيا ذكيا. كان المقادسة على ما يبدو واثقين من صلابة عكا، كما أنهم أرادوا كسب مزيد من الوقت، فكتبوا إلى نابليون، أنهم لا يرغبون في الحرب لأن بلدهم مقدسة، وبها أماكن مقدسة إسلامية ومسيحية ولا يريدون للحرب أن تدمر هذه الأماكن.

وغير ذلك فهم تابعون لولاية عكا. ومن يستطيع السيطرة عليها، يكون بإمكانه إصدار الأوامر إلى القدس.

راهن نابليون على سقوط بيت المقدس بعد سقوط عكا، ولذلك وجه قواته إلى حيفا فاحتلها ثم احتل الناصرة، وبدأ يضرب الحصار على عكا برا لأن الأسطول الإنكليزي المتحالف مع العثمانيين منع حصارها البحري.

وأبدى واليها عبد الله الجزار صلابة في الدفاع عنها مع جنود الحامية وأهل عكا، ما أدى إلى فشل نابليون في احتلالها وبالتالي فشل حملته كليا إذ اضطر إلى مغادرة فلسطين، وترك لأحد نوابه : كليبر، تدبير أمر انسحاب الجنود إلى مصر.

تقع مدينة عكا على ساحل البحر الأبيض المتوسط في نهاية الرأس الشمالي لخليج عكا، وقد كان لهذا الموقع أهمية جعل مدينة عكا تتعرض لأحداث عظيمة حيث ظهر الكثير من القادة التاريخيين على مسرحها مثل: تحتمس، سرجون، بختنصر، قمبيز، الإسكندر، انطيوخوس، وبومبي ثم معاوية وصلاح الدين الأيوبي، ربكاردوس، ابن طولون- نابليون- إبراهيم باشا واليهود وغيرهم.

حملت مدينة عكا عدة أسماء عبر عصورها التاريخية، ففي العصر الكنعاني أطلق عليها مؤسسوها اسم عكو وهي كلمة تعني الرمل الحار وسماها المصريون عكا أو عك، وفي رسائل تل العمارنة وردت باسم عكا، ونقلها العبريون بالاسم نفسه، ذكرها يوسيفوس فلافيوس باسم عكي، ووردت في النصوص اللاتينية

باسم عكي، وفي النصوص اليونانية باسم عكي.

أخذت المدينة اسم ACKON عكون إبان حكم الفرنجة لها، كما سميت d'acre -Saint - Jean وقبل ذلك في العهدين الكلاسيكي والبيزنطي حملت اسم بتوليمايس، وظلت تحمله من القرن الثالث حتى القرن السابع الميلادي. وعندما جاء العرب سموها عكا معيدين لها اسمها الكنعاني القديم بتحريف بسيط.

وبعد أن أتى اليهود إلى فلسطين أعادوا اسمها الكنعاني من دون تحريف وسماهو مرة أخرى "عكو" وهو متداول إلى يومنا هذا.

وقد مر على مدينة عكا الغزاة من العصور القديمة حتى العهد العثماني.

- سنة ١٦ هـ، فتحها شرحبيل ابن حسنة.

- سنة ٢٠ هـ، أنشأ فيها معاوية بن أبي سفيان داراً لصناعة السفن الحربية " ترسانة بحرية"

- سنة ٢٨ هـ، انطلقت السفن الحربية العربية من عكا إلى جزيرة قبرص.

- حكمها الشيخ ظاهر العمر الزيداني فترة من الزمن هو وأبناؤه خلال القرن الثامن عشر، وهو من بنى أسوار عكا.

- حكمها أحمد باشا الجزار فترة من الزمن في نهاية القرن الثامن عشر.

= سنة ١٧٩٩م أوقفت عكا زحف نابليون بونابرت وجيشه الفرنسي الذي وصل إليها بعد أن احتل مصر وساحل فلسطين، فقد حاصرها مدة طويلة، وفشل في اقتحام أسوارها ودخولها، حيث رمى قبعته من فوق سور عكا داخلها، لأنه لم يستطع دخولها، وماتت أحلامه في الاستيلاء على الشرق وعاد بجيوشه.

ولا يكتمل الحديث عن الحملة الفرنسية على فلسطين دون الإشارة إلى علاقة نابليون بالصهاينة وسيلة إلى إيجاد موطن قدم لهم في فلسطين إبان حملته تلك.

فقبل تحرك الحملة من فرنسا إلى مصر، تلقى بول باراباس، عضو حكومة الإدارة في باريس من صديقه توماس كوريت، الرأسمالي اليهودي الأيرلندي،

رسالة ينصحه فيها بالاستفادة من اليهود الذين وصفهم بأنهم : يقدمون لكم عنصرا يمكن الاعتماد عليه في الشرق.

وضع الاقتراح أمام نابليون الذي التقى شخصيات يهودية، ما لبث أن أصدرت بعد اللقاء بيانا تدعو فيه إلى إقامة مجلس ينتخبه اليهود في خمسة عشر بلدا، ليقرر ما يجب عمله. وإبلاغ ذلك إلى الحكومة الفرنسية.

كما دعت إلى إقامة وطن يهودي بالاتفاق مع فرنسا، في إقليم الوجه البحري من مصر، مع حفظ منطقة واسعة المدى ليمتد خطها من مدينة عكا إلى البحر الميت ومنه إلى البحر الأحمر.

وفي أبريل من عام ألف وسبعمائة وتسعة وتسعين وأثناء حصار عكا، نشرت الجريدة الرسمية الفرنسية بيانا من نابليون يدعو فيه اليهود إلى مؤازرة فرنسا، وانتهاز فرصة وجوده في فلسطين لتحقيق آمالهم في التموضع ما بين عكا والإسكندرية.

كان نابليون يريد دعم الرأسمالية اليهودية، وعندما فشلت حملته، كانت بريطانيا التقطت المسألة وبدأت العمل من أجلها.

ويروي كاتب عاصر حصار القوات الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت لمدينة عكا الواقعة تحت سلطة أحمد باشا الجزار قائلا: إن الجزار استعد لتلك المعركة منذ بلغته أخبار استيلاء الفرنسيين على مدينة الإسكندرية عام ١٧٩٨ مضيفا أن وفاته حالت دون توليه عرش مصر في بداية القرن التاسع عشر.

ويقول الأمير أحمد حيدر الشهابي في مخطوطة تنشر لأول مرة في كتاب عنوانه (قصة أحمد باشا الجزار بين مصر والشام وحوادثه مع نابليون بونابرت) إن الجزار حين سمع بنزول الفرنسيين إلى السواحل المصرية أول يوليو ١٧٩٨ تحسب "جدا لذلك وشرع يهتم في تحصين عكا ويتحضر للحصار.. فأمر بتحصين المدن التي تحت حكمه وأمر بخروج النصارى من جميع بلاده."

والكتاب الذي يقع في ٣١٧ صفحة كبيرة القطع صدر في القاهرة عن مكتبة الناشر الراحل الحاج محمد مدبولي في سلسلة (صفحات من تاريخ مصر) من إعداد وتحقيق عبد العزيز جمال الدين.

ويقول جمال الدين في المقدمة إن المؤلف الشهابي (١٧٦١-١٨٣٥) تبعثرت مكتبته بعد وفاته وأنه اعتمد في كتابه على مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة مضيفا أن المؤلف نقل أجزاء من كتاب (عجايب الآثار في التراجم والأخبار) للمؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي خاصة ما يتعلق بسيرة الجزار في مصر والأحداث المتعلقة بالحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١).

ويضيف أن هذه المخطوطة التي ألفها أمير من أسرة إقطاعية في لبنان " من أقدم المؤلفات" المهمة عن سيرة أحد أعلام الفترة العثمانية في المنطقة العربية حيث تندر مثل هذه السير.

وسرد جمال الدين في المقدمة ملخصا لتأسيس الدولة العثمانية واعتماد السلاطين على تجنيد أبناء رعاياها المسيحيين من شرقي أوروبا بعد انتزاع الأطفال "والنزول بهم إلى مستوى الرق" وتأهليهم عسكريا حتى احتلوا بمرور الوقت مناصب عليا أصبحت كأنها حكر يشغلها "إما مسيحي أو عبد يقتَنَى" ومن هؤلاء الجزار أو أحمد البوشناقي الذي حكم ساحل فلسطين والشام أكثر من ٣٠ عاما ولولا وفاته لتولى حكم مصر قبل محمد علي الذي حكم مصر من عام ١٨٠٥.

وقال إن البوشناقي (الجزار) ولد في البوسنة لأسرة مسيحية عام ١٨٣٤ وهرب إلى القسطنطينية في مطلع شبابه وأرجع ثلاثة مؤرخين هروبه إلى اعتدائه على زوجة أخيه أو اغتصابه لخطيبة أخيه أو بسبب جريمة قتل.

وباعه تاجر رقيق للباب العالي حيث اعتنق الإسلام بإرادته "لعدم استطاعته الحصول على أي مركز ذي نفوذ بطريقة أخرى" ثم جاء إلى القاهرة مع قافلة عائدة من الحج وانضم لخدمة أحد المسؤولين في محافظة البحيرة بشمالي مصر وبعد أن قتل البدو هذا المسؤول انتقم البوشناقي بغارات متوالية على البدو حيث أعد كمينا ذبح فيه أكثر من ٧٠ بدويا بينهم عدة شيوخ فاكتسب لقب "الجزار".

وأضاف أنه عمل عند علي بك الكبير الذي حكم مصر بين عامي ١٧٦٨

و١٧٧٣ بادئا خدماته لسيده بأن قدم له رؤوس أربعة يكرههم من شيوخ البدو فاستخدمه للتخلص من معارضيه ومنافسيه ومنحه لقب بك ثم اختلف معه وغادر إلى الشام وارتكب "سلوكا مشينا " بالانقلاب على صديقه الأمير يوسف الشهابي زعيم الدروز حاكم ساحل لبنان ومدن منها حمص وحلب.

ثم جمع أموالا وهرب بها عام ١٧٧٣ وعاد إلى السلطان العثماني الذي فوضه على ولاية صيدا ومنحه لقب "باشا".

وقال إن لقب الجزار الذي حمله من مصر ظل علامة عليه إذ سيطر على القوى المحلية والعشائرية بقسوة وجند المرتزقة والمغاربة من تونس والجزائر والألبان والبوسنيين وسعى لتحقيق الحلم بحكم فلسطين وجنوب سوريا ولبنان بل طمع في حكم مصر وكان السلطان يراقب توسعاته ونفوذه وطموحاته فحاول أكثر من مرة تنحيته أو نقله إلى ولاية بعيدة مثل البوسنة لكنه كان يرفض فأغراه بالتوجه الى مصر عام ١٧٨٤ لمحاربة المملوكَيْن مراد وإبراهيم وكتابة تقرير عن أوضاع البلاد "لكنه تجنب الفخ".

وأضاف أنه نجح في تحقيق الاستقلال بأجزاء من بلاد الشام بدون إعلان هذا الاستقلال عن السلطنة كما أعد للسلطان تقريرا عن "كيفية غزو مصر" طالب فيه بأهمية ضبط إيرادات مصر ومصروفاتها وأن يكون قائد الحملة قد سبقت له الأقامة في مصر "والمواصفات التي قدمها الجزار لقائد الحملة على مصر وحاكمها المنتظر لا تنطبق إلا على شخصه" كما أكسبه صموده أمام جيوش نابليون شهرة بعد فشل الأخير في حصار عكا.

وقال جمال الدين إنه منذ هزيمة نابليون وعودته من الشام عام ١٧٩٩ كانت الشام ولبنان وفلسطين تحت سيطرة الجزار بلا منازع أو منافس حيث حكم العصبيات المحلية وحول "أمراء الدروز إلى أدوات للظلم الاقتصادي" لحسابه.

كما يسجل أن الفونس جيز القنصل الفرنسي في طرابلس كتب في الخامس من مارس آذار ١٨٠٤ عن وصول السعاة من الآستانة إلى طرابلس للحصول على خيول وكانوا يحملون إلى الجزار "فرمان تعيينه واليا على مصر " لكنه توفي

يوم ٢٣ أبريل نيسان ١٨٠٤.

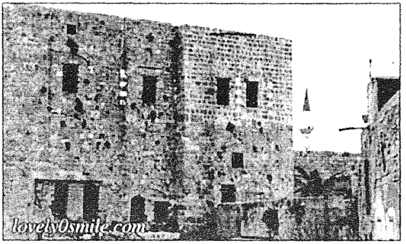
وتحمل لغة الكتاب أسلوب عصره فالمؤلف الشهابي يبدأ بوصف مظالم الجزار "وما سفك من دماء العوالم... أتى الى مدينة القسطنطينية... واغتنى بصناعة الحلاقة" لكنه بعد أن تولى حكم بلاد الشام "انقلبت طباعه وتغيرت أحواله.. حتى صار كالوحش الضاري والسبع الكاسر" إذ أمر عسكر المغاربة بإخراج المسجونين وترحيلهم خارج عكا وقتلهم جميعا ففعلوا.

ويعلق قائلا "كان يوما مهولا لا يسمع فيه غير أصوات العويل والبكا والندب من الأمهات والعيال والأولاد والبنات والإخوة الذين ترملوا وتيتموا وكذلك عويل المقتولين وصياحهم ولا ترى فيه غير جثث القتلى كالغنم مطروحين خارج البلد صايرين طعاما لطير السما وفريسة لوحوش الأرض.

وعند المساء أمر المنادي في شوارع عكا كل من له ميت يخرج الى دفنه على الصمت وأن كل امرأة أبدت عويلا أو بكاء تقتل حالا فضلا عن الرجال."

ويورد المؤلف فرمانا عثمانيا يفيد التحالف مع قائد الأسطول الانجليزي ضد الجيش الفرنسي.. "إلى جميع المدن من السلطان سليم خان يخبر بالاتحاد بين الإنكليز والإسلام على الفرنساوية اللیام... لا يخفاكم أن بهذه السنة قد هجم الكفرة والطغاة البغاة الفرنساوية على أخذ الإسكندرية ومصر القاهرة وما يليها. والآن وقد اختلسوا يافا وغزة والرملة وتوابعهم وعلى عزمهم الغائب الفاسد الخايب الغير صايب تدمير أمة المسلمين."

ويسجل الفرمان أن الصداقة تقتضي تعاون "سعادة أخينا المحترم سلطان الإنكليز المفخم المتحد معنا بالارتباط بالسوية على تدمير الأمة الفرنساوية" كما يسجل فرمان آخر موجه إلى سائر البلدان أن الفرنسيين كفار وملحدون وماكرون.. "هذه الفرقة الملعونة قد فارقت جميع الأديان والملل... فكيف لا يكون فرضا على كل واحد من المسلمين إبداء المروّة."



أسوار عكا المنيعة

ويقول المؤلف إن حصار عكا على يد "سر عسكر الفرنساوية المسمى بونابرته" استمر ٧٠ يوما الى أن وقع الطاعون وجاءتهم أخبار عن إمدادات إنجليزية بحرية وبرية لجيش الجزار ففكوا الحصار عائدين إلى مصر.

ويضم الكتاب صورا لنقود مصرية ضربت عام ١٧٥٨ تحمل اسم السلطان العثماني مصطفى بن أحمد وخليفتيه عبد الحميد الأول وسليم الثالث ووالي مصر علي بك الكبير وصورا من رسوم شخصية لهم ولنابليون بعد احتلاله الإسكندرية ثم وهو يدخل القاهرة على حصانه وصورة بعمامة كتب أسفلها "الشيخ بونابرته" ولمعركة الأهرام التي هزم فيها المقاومون جيشه وصورة لسليمان الحلبي قاتل الجنرال الفرنسي كليبر وأخرى له وهو يعدم "على الخازوق".

كما صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية كتاب جديد للمؤرخ عادل مناع بعنوان: لواء القدس في أواسط العهد العثماني.

ويتحدّث هذا الكتاب عن أحوال الإدارة العثمانية والمجتمع المحلي في القدس منذ أواسط القرن الثامن عشر حتى حملة محمد علي باشا في سنة ١٨٣١، ويقدّم قراءة تاريخية جديدة للأحداث التي نشبت في تلك الحقبة مثل حملة

نابليـون بونابرت على مـصـر وفلسطين في سنة ١٧٩٩، وحـملة إبراهيـم باشـا المصري على الشام.

وتلقي هـذه الدراسـة الأضـواء على بنيـة المجـتمع في القـدس، وعلى عـلاقات النخب المحلية بالإدارة العثمانيـة في إسطنبول، ويستنتج المؤلف أنّ حملة بونابرت تركت آثاراً كبيـرة في تاريخ مصـر حتى بعد انسحـاب الفرنسيين، بينما لم تترك أثراً يُذكَر في فلسطين والقدس. ويعـالِج هذا الكتـاب التـاريخ المحلي لفلسطين، ويميط اللثـام عن الأسـبـاب الفـعليـة التـي أدّت إلى زوال دور عـائلة الوفـائي الحسيني وصعود نجم آل غضية الذين عُرِفوا بآل الحسيني، ومنهم في ما بعد، موسى كاظم الحسيني والحاج أمين الحسيني وعبد القـادر الحسيني وفيصل الحسيني وغيرهم.

ويرصـد الكاتب دور أفنديات القـدس ومشـايخ أريافـهـا الذين اكتـفـوا بدور الوسيط بين ممثلي السلطنة العثمانية وبين المجتمع المحلي فـاحتكروا الوظائف وتوارثوها وجعلوها أسـاسـاً لمكانتهم الاجتماعيـة والسياسية، على عكس باشاوات آل العظم وآل شـهـاب وبكوات الزيادنة في بـلاد الشـام الذين كـانوا عـائلات سياسية لها شأن في حكم المنطقة بالتعاون مع الدولة العثمانية مباشرة.

ومعلوم لمن يتصفح كتب التاريخ، أن نجم الجنرال الفرنسي نابليون بونابرت لمع على إثـر الانتصـارات الكبيـرة التي أحـرزها على الإمـبـراطورية النمسـاوية في معـارك لودي واركولي وديفولي، وأجبـرها بموجبها على توقيع معـاهدة كـامبو فورميو (أكتوبر١٧٩٧م) مع فرنسا، وعاد إلى باريس تحيط به هالات المجد، بعد أن أصبح محبوب الأمة الفرنسية بأجمعها.

وقد شعرت حكومة الإدارة الفرنسيـة آنذاك بخطورة هذا الجنرال الذي حـاز إعجاب الشعب، فسعت إلى إبعاده عن فرنسـا، وأرسلته في حملة عسكرية إلى مصر لضرب خطط الإنجليز في الشرق.

خرج نابليون في هذه الحملة بأسطول يقارب عدد سفنه الحربية خمسمائة سـفـينة، وقـام أولاً بـاحـتـلال جـزيرة مـالطة، وفـي ٢ يوليـو ١٧٩٨م وصل إلى

الإسكندرية واحتلها.

ثم توجه مسرعاً نحو القاهرة، وانتصر على المماليك في معركة الرحمانية ومعركة إمبابة.

لكن الأسطول الفرنسي تلقى ضربة موجعة من قبل الأميرال الإنجليزي نلسون في معركة أبي قير.

في بداية شهر فبراير ١٧٩٩م، توجه نابليون من القاهرة إلى غزة واحتلها، ثم تقدم إلى فلسطين حيث احتل يافا في ١٣مارس وقام بمذبحة رهيبة فيها بعد استسلام المدينة، حيث قتل ما يقارب عشرة آلاف شخص بين جندي ومدني، لأنه أراد بث الرعب، وإحداث هزة نفسية، وإشاعة الهلع لكي لا تقوم المدن الأخرى بمقاومته. ثم واصل طريقه إلى مدينة "عكا" وحاصرها.

وصل نابليون إلى مدينة عكا في ١٨ مارس ١٧٩٩م. وكان لا بد من احتلال هذه المدينة لكي يستطيع الاستمرار في حملته شمالاً إلى الشام، حيث كانت مدينة عكا تحتل موقعاً استراتيجيّاً مهمّاً.

كان السلطان العثماني سليم الثالث (١٧٨٩ ١٨٠٧م) قد أوكل مهمة الدفاع عن المدينة إلى القائد العثماني المحنك أحمد باشا الجزار بعد أن رقاه إلى مرتبة وزير... كان هذا القائد قد تجاوز السبعين من عمره آنذاك، وهو من أصل بوسني، وقضى ما يقارب خمسين سنة في ساحات المعارك والقتال في خدمة الدولة العثمانية.

كان نابليون الذي كسب معاركه في مصر وفلسطين حتى الآن في يسر ودون صعوبة متأكداً أن هذه المدينة لن تصمد أمامه أكثر من يومين اثنين، لذا بادر إلى إرسال رسالة ملؤها الكبرياء والعجرفة إلى القائد العثماني الهرم قال فيها:

"إنني الآن أمام قلاع عكا، ولن يكسبني قتل شخص هرم مثلك شيئاً... لذا فأنا لا أرغب في الدخول معكم في معركة... كن صديقاً وسلم هذه المدينة دون إراقة الدماء".

ولم يتأخر جواب القائد العثماني. ولكنه لم يكن الجواب الذي توقعه نابليون.

قال القائد العثماني أحمد باشا الجزار في رسالته الجوابية:

"نحمد الله تعالى لكوننا قادرين على حمل السلاح، وقادرين على الدفاع... إنني أنوي أن أقضي الأيام القليلة الباقية من عمري في الجهاد ضد الكفار".

عندما تسلم نابليون هذا الجواب الذي قطع أمله في الدخول إلى المدينة ظافراً دون قتال التفت إلى ضباطه وقال لهم بضيق ونفاد صبر:

"لقد أصبح من الواضح الآن أن هذا الشيخ الهرم سيكون سبباً في ضياع بضعة أيام منا... ولكن لا بأس... لا تقلقوا... سنكون بعد يومين في وسط هذه المدينة... سنلقنهم درساً لن ينسوه".

في اليوم الثاني... ١٩مارس ١٧٩٩م بدأت المعركة، وبدأت المدافع الفرنسية تصب حممها على قلاع المدينة وأسوارها.

■ ■ ■

٢

الإمبراطور يجر أذيال الهزيمة!!

لم تتحقق توقعات نابليون في النصر السريع، فقد أبدت الحامية العثمانية لمدينة عكا شجاعة فائقة في القتال على الرغم من تفوق الجيش الفرنسي من ناحية العدد والعتاد الحربي ولا سيما في عدد المدافع التي كانت تصب حممها على المدينة الصغيرة المحاصرة.

مرت الأيام والأسابيع والمعركة الضروس قائمة، والمدينة صامدة صمود الأبطال، ويقوم أفراد الحامية في الليل بسد الثغرات التي تحدثها المدافع في النهار في جدران الأسوار... وتبخرت أحلام نابليون الذي كان قد اغتر بانتصاراته المتلاحقة على النمسا وفي مصر وفلسطين.

عقد نابليون مشاورات عدة مع ضباطه ثم قرر إرسال رسالة إلى القائد العثماني يقترح عليه إجراء المفاوضات بين الطرفين.

قبل القائد العثماني الطلب وذكر أنه بانتظار وفد المفاوضة، وجاء الوفد الفرنسي وعلى رأسه ضابط كبير.

كان هذا الضابط يحمل رسالة شفوية من قائده الجنرال نابليون، وملخصها أنه لا فائدة من المقاومة، وأنه من الأفضل الاتفاق على شروط جيدة للصلح لإنهاء المزيد من سفك الدماء، لذا فإن القائد الفرنسي سيقبل بخروج القائد العثماني وخروج حاميته كذلك مع جميع أسلحتهم دون أن يتعرض لهم أحد، ويسمح لهم بالتوجه إلى المكان الذي يريدونه... كل ذلك في مقابل إنهاء المقاومة.

استمع أحمد باشا الجزار لرئيس الوفد الفرنسي حتى أكمل كلامه. وبعد صمت قصير قال له:

"لم تقم الدولة العلية العثمانية بتعييني وزيراً وقائداً لكي أقوم بتسليم هذه المدينة إليكم... إنني أحمد باشا الجزار لن أسلم لكم شبراً من هذه المدينة حتى أبلغ مرتبة الشهادة".

كان هذا جواباً حاسماً لا يحتمل المزيد من النقاش، ولا أي مناورة من مناورات المفاوضات، لذا رجع الوفد الفرنسي دون الوصول إلى اتفاق.

ما إن نقل الوفد جواب القائد العثماني إلى نابليون حتى جُنَّ جنونه، وبدأ يفكر في وضع خطة جديدة... خطة تؤمِّن كسر مقاومة الحامية العثمانية، فأمر بأن يتم وضع عشرات بل المئات من المشاعل ليلاً على مقربة من أسوار المدينة لكي يستمر قصف الأسوار ليلاً ونهاراً دون توقف، لكي لا يعطي فرصة راحة للمدافعين، ولكي يدك هذه الأسوار دكا ويفتح فيها الثغرات والفجوات.

وتم البدء بتنفيذ الخطة الجديدة... وبدأت المدافع تهدر ليلاً ونهاراً بقصف مستمر لا ينقطع. ونجح القصف الشديد والمستمر في هدم بعض أجزاء من سور المدينة، وهنا أمر نابليون جنده بالهجوم ودخول المدينة من هذه الأماكن.

دق نفير الهجوم في الجانب الفرنسي، واندفع الجنود الفرنسيون يريدون اقتحام الأسوار من هذه الفجوات والأقسام المتهدمة، ولكنهم قوبلوا بحراب وسيوف ورصاص الحامية العثمانية التي كانت تنتظر مثل هذا الهجوم، والتحموا مع الغزاة وجهاً لوجه، وعلى رأسهم قائدهم أحمد باشا الجزار.

وأسفر الهجوم عن تراجع المهاجمين بعد أن تكبدوا خسائر فادحة.

وتكرر الهجوم في الأيام التي تلت يوم الهجوم الأول، ولكن النتيجة لم تتغير، ففي كل هجوم كان الفرنسيون يتكبدون خسائر كبيرة في الأرواح.

ومرت الأيام والأسابيع على هذا المنوال... وبدأ اليأس يستولي على الجانب الفرنسي، لأن خسائره كانت تزداد على الدوام حتى كادت تأكل نصف الجنود.

وأخيراً وبعد ٦٤ يوماً من الحصار الشديد والقتال الدامي قرر نابليون في ٢١مايو عام ١٧٩٩م فك الحصار، وانسحب وهو يلملم جراح جيشه، ويجر أذيال الفشل، ويعلن بانسحابه أنه هُزم من قبل قائد عثماني هرم في السبعين من عمره... كانت هذه هي المعركة البرية الوحيدة التي خسرها نابليون حتى ذلك اليوم.

■ ■ ■

4

نابليون وانتصارٌ يعقبه سقوطٌ!!



١
نابليون ومعركة الأباطرة الثلاثة

في شهر يوليو عام ١٨٠٥ شكلت بريطانيا والنمسا وروسيا وبروسيا تحالفاً ضد فرنسا، فكان جواب نابليون المباشر غزو ألمانيا والنمسا. وفي ٢٢ أكتوبر احتل فيينا. وفي ٢٨ نوفمبر ١٨٠٥ واجه نابليون القوات النمساوية والروسية في أوسترليتز

تولستوي يصف في كتاب "الحرب والسلام" الثالث، بطريقة لا تنسى، معركة الأباطرة الثلاثة، معركة "أوسترليتز".. والتي شكلت النصر الأكبر لنابليون بونابارت. وسيتذكر قراء تولستوي كيف وقع الروس في الهزيمة رغم الروح الوطنية البطولية التي كان يتحلى بها الأمير أندريه فولكونسكي، الذي أثار تعليق نابليون الشهير حين قال: "موت رائع"، حتى إن ذلك النصر اكتسب آنذاك مظهراً أهم من هزيمة الأساطيل الفرنسية في معركة الطرف الأغر.

وبفضل هزيمة الجيوش النمساوية والروسية المتآلفة، سمحت معركة «أوسترليتز» لنابليون بالعودة إلى رسم خارطة أوروبا مفسحا المجال، في ذلك الظرف،أمام استحضار فكرة اتحاد «الراين» أو الرابطة الألمانية. وبالإضافة إلى إجبار الإمبراطور النمساوي فرانسيسكو الثاني على التنازل عن لقب إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة، حرر نابليون شهادة وفاة مؤسسة كانت في قلب أوروبا على مدار أكثر من قرن. وكان شارلمان أو شارل العظيم قد توج إمبراطورا من قبل البابا ليون الثالث يوم الميلاد عام ١٨٠٠ وفي أغسطس

عام ١٨٠٤ لم يعد لهذه الإمبراطورية وجود.

الفكرة التي كان نابليون يضمرها حيال أوروبا مثلت سيفاً ذا حدين. من جهة، دك نابليون عروش سلالات ملكية منحطة مثل البوربونيين في نابولي وأوجد ما كان سيشكل أنموذجا للأنظمة القانونية الشرعية القارية، قانون نابليون.

ولقد أكد لاحقا، في المنفى، أنه كان يرغب "بتأسيس نظام أوروبي ومنظومة أوروبية من القوانين ونظاماً قضائيا أوروبيا بغية فتح الطريق أمام ظهور شعب واحد فقط في سائر أوروبا". ومع ذلك وفي الوقت عينه، كانت أوروبا النابليونية، بشكل خاطئ، إمبراطورية شمولية، فلم تتردد ساعة في مراقبة وتوبيخ منتقديها وسجن منافسيها السياسيين. وعندما بسط نابليون قيادته وسيطرته خارج فرنسا، شكلت انتصاراته الضمانة المثلى لحملاته الحربية.



وكان نابليون يجد متعة في تقديم نفسه على أنه محرر أوروبا وكذلك موحدها. لكن في الواقع لم يكن نابليون سوى الطاغية الأكثر قسوة من بين طغاة عصر التنوير.

أما العنصر الذي حسم، في نهاية المطاف، فكرة أوروبا النابليونية، فلقد تمثل في المركب المميت المكون من قناة المانش والشتاء الروسي وهو التجانس المستبعد نفسه الذي كان له تأثير كبير في حالة هتلر.

مع ذلك ورغم أقصى الجهود التي بذلها الدبلوماسيون في كونغرس فيينا،إلا أنه تبين أن من المستحيل إعادة بناء أوروبا القديمة السابقة لنابليون.

وفي عام ١٨٠٥ انتصر نابليون في معركة أوسترليتز التي أطلق عليها فيما بعد بمعركة القياصرة الثلاثة على كل من روسيا والنمسا، وبذلك مهد الطريق لقيام تحالفات أوربية، وبالتالي سياسات أوربية وأفكار توحيد أوربا من خلال وحدة مصائر شعوبها، والتقارب في الثقافات الأوربية القائمة أساساً على الأسس المسيحية الذي مثل القوام (الأساس النظري) للتطورات النظرية والعملية في الحياة السياسية والاجتماعية الأوربية حتى العصور الحديثة (الثورة الصناعية) ولا تزال المسيحية تشع حتى عصرنا الحاضر بتأثيرها الفكري ووجودها في الحياة السياسية بهذه الدرجة أو تلك من الأهمية.

أما النتائج العسكرية والسياسية فخير من تحدث عنها مجلة "شتيرن" الألمانية.. نابليون بونابارت: هل هو طاغية أم مصلح..؟ تساؤل مهم أطلقته المجلة الألمانية الواسعة الانتشار بافتتاحية شاء رئيس تحرير المجلة " توماس أوستر كورن" أن يدبجها بنفسه تحت عنوان : نابليون وأوربا، في محاولة لتجذير فكرة الوحدة الأوربية ومنحها البعد التاريخي لإكسابها مزيدا من الشرعية والأصالة، لذلك ومن المؤكد أنه ليس بمقال أو بحث تاريخي عابر، ولكن ما هي العبرة من ذلك حقا.

والحق أن تسامي الثقافة وعملية التحضر كانت أكبر من ذلك بكثير وأعمق جذراً، ومن المعقول والجائز منح الثورة الفرنسية وإرهاصاتها وإفرازاتها الأهمية التي تستحقها، ولكن من الصعوبة إرجاع هذه التطورات للحقبة النابليونية لوحدها، بل إنها تعود بجذورها حتى إلى ما قبل عصر النهضة، فما مذهب السكولاستيه ومساعي القس توما الأكويني إلا محاولة كبيرة لتجسير العلاقة بين اللاهوت والفلسفة ؛ بسبب عمق جذور الفلسفة في أوربا، فهي موجودة حتى قبل المسيحية.

ففي الوقت الذي كانت الأفكار الفلسفية السياسية رائجة في أوربا منذ ما

لا يقل عن ٤٥٠ عاماً قبل الميلاد، فيما لم تتخذ الإمبراطورية الرومانية المسيحية كمذهب رسمي للدولة إلا بعد ٣٢٥ ولم تتوقف قط عملية التراكم والتبلور في الموضوعات السياسية الرئيسية منذ ذلك الحين.

أما عصر النهضة والليبرالية والتنوير، فقد كان قد فتح الأبواب على مصراعيه وجعل الاحتمالات الكبيرة ممكنة، ومن تلك ما كان يعتبر إلى ما قبل سنوات قليلة خطوط حمراء جهنمية، التقليص الحاسم لدور الكنيسة، الدور الأكبر للمثقفين، تنامي مهم لدور الطبقة الوسطى ومؤسساتها، مقابل تضاؤل كبير لدور الإقطاع، وأخيراً ها هي إفرازات الثورة الفرنسية تفتح النار على الملوك والقياصرة دون مواربة، وتطيح بقيم واعتبارات، تلك التي كانت من المناطق المحرمة، وكان مجرد التفكير فيها من الأحلام المستحيلة.

ونابليون الذي ولد في ١٥ أغسطس ١٧٦٩ على أرض جزيرة كورسيكا التي لم تكن تابعة لفرنسا(لم يكف الكورسيكيون عن المطالبة بالانفصال) إلا في العام السابق لولادة نابليون، وعندما أعلنت الجمهورية ومبادئها الشهيرة الثلاثة: حرية ـ مساواة ـ إخاء في عام ١٧٩٢.

لم يكن الضابط الشاب نابليون يبلغ أكثر من الثالثة والعشرين من العمر من عائلة كورسيكية مغمورة، ولكنه سيتصدر الأحداث ويغدو نجمها اللامع، ولذلك بالطبع مغزاه الكبير، فلولا الثورة ومبادئها ما كان مقدراً لنابليون أن يصبح غير جندي أو ضابط مجهول في جيش الإمبراطورية.

وهنا تكمن الأهمية في سياق فهم أهمية التطورات التي طرأت على الفكر السياسي، بل وعلى طبيعة هيكلة الدولة والمجتمع وانعكاساته على مؤسسات الدولة، ونذيراً بالغ الأهمية للدور المحتمل للقوات المسلحة سياسيا بالدرجة الأولى.

وبعد خمس سنوات فقط، ستضطر الإمبراطوريات العتيقة في أوربا إلى توحيد قواها، وكان من الشائع في ذلك الوقت تصاهر العائلات الملكية الأوربية، مما كان يوحد أواصرها من جهة، ومصائرها من جهة أخرى.

لذلك خلق التكتل الأوربي الأول ١٧٩٢ ـ ١٧٩٧ بين فرنسا والنمسا ضد

بروسيا، وفي غمرة الأحداث التي كانت تتطور وتطرح تبلورات جديدة، تدفع بنابليون إلى رتبة جنرال قائد فرقة في حامية باريس، وبعدها بسنتين فقط يصبح نابليون رمز التحولات الجديدة قائداً لجيوش الوطن وهو بسن ستة وعشرين عاما فقط. !

وبمعركة آركولو الحاسمة تضم فرنسا إيطاليا إليها في كيان سياسي واحد، وكانت الثورة الفرنسية قد أعلنت دون مواربة، أنها تهدف إلى توسيع ثورة المساواة في أوربا، وتطرح بذلك للمرة الأولى بواعث غير سياسة للهيمنة والضم والإلحاق، وإن كانت في جوهرها كذلك، إلا أن رياح التغير كانت قد هبت فعلاً لا محالة.

وبحملة نابليون على مصر فهو لم يقم بما فعله قياصرة وأباطرة سابقون، كقادة الإمبراطوريات الإغريقية والرومانية، في توجههم صوب الشرق الكبير الغني القديم الغامض.

فنابليون أراد أن يمنح حملته مغزى جديدًا في نشر الثقافة والعلوم ومبادئ الثورة. ففي ١٩ مايو١٧٩٨ نزلت قوات الحملة الفرنسية بقيادة نابلين بونابارت على البر المصري، وما لبث أن سحق جيشاً مملوكياً بتاريخ ٢١ يوليه ١٧٩٨ ثم صار له احتلال مصر.

والعدد الوفير من العلماء والخبراء يشير إلى هدف معلن للحملة الفرنسية: عصر التنوير، فالحملة كانت تضم في عدادها إلى جانب الخمسة وثلاثين ألف جندي :٢١ من علماء الرياضيات ـ ٣ فلكيين ـ ١٧ مهندساً ـ ١٣ من علماء العلوم الطبيعية ـ ٤ من المعماريين، ولابد أن هذه الأرقام كانت تعني شيئاً مهما في تلك الظروف.

وإذا كانت هذه الأرقام تعد مهمة لمصر التي كانت غاطسة في مفاسد المماليك، لكن الحملات الفرنسية كانت مدهشة للأوربيين أنفسهم على ما تنطوي عليه من قوة إشعاع جديدة، قد لا تكون لشخصية بونابارت الدور الحاسم الأول.

وفي أوربا ترامى المثقفون وقادة الرأي على أقدامه، وبعضهم فعل ذلك بتهافت، فقد لحن الموسيقار بتهوفن السيمفونية الثالثة أيروكا من أجله، أما بالنسبة للشاعر هولدرلين فقد كان القائد الرائع.

وقال المفكر هيغل عنه أنه يرى فيه "ضمير العالم والقائد الضرورة.!" وأضاف هاينرش هاينة على هذه الأوصاف عندما شاهد نابليون يختال بجواده الأبيض في طرق دسلدورف منبهراً "سوف لن تمحى هذه الصورة من ذاكرتي".

والألمان والأوربيون الذين كانوا يمتعون وينكرون تهافت أدبائهم ومثقفيهم لإرادة المحتل، بل إن الأديب وشاعر الألمان الأكبر يوهان فولفجانج غوتة، كان من المتعاونين مع نابليون الذي عينه محافظاً على ولاية ينا، وكان الألمان يتحرجون من مواقف بعض رموزهم الثقافية والحضارية،

لكن الألمان اليوم في مطلع الألفية الثالثة لا يتورعون من ذكر هذه الحقائق على أنها شواهد حسية على وحدة الوجدان الأوربي، بل والجذر الثقافي أيضا، وأكثر من ذلك هناك من يعتقد أن الاحتلال الفرنسي لألمانيا، الذي كان يعده البعض عاراً وطنيا حتى الأمس القريب، وهذا البعض هو اليوم من الصفوة المثقفة التي تصرح : أن نابليون قد أسدى خدمة تاريخية مهمة لألمانيا!

يقول رئيس التحرير توماس أوستركورن : إن نابليون سن قوانين الإدارة البورجوازية في ألمانيا، وكانت من قبل تحت إدارة وهيمنة الأكريلوس الديني والقياصرة وأمراء الإقطاع، وأزال وبقوة امتيازات النبلاء، وأعاد نابليون تقسيم ألمانيا من جديد، ومن مئات الإمارات، جعل منها نابليون ٣٠ إمارة، ومن بضع أمارات لا أهمية لها صنع مملكة فيستفالن.

وأقام نظم إدارة حديثة، وأمر بزراعة أشجار الحور على الطرقات ليسير جنوده تحت ظلالها، وأسس قيماً واعتبارات جديدة؛ معلناً الإفلاس النهائي لعقيدة الأولترامونتانيه التي تكرس سلطة البابا السياسية على الحكومات المسيحية.

ولكن لماذا يقول الألمان اليوم ما كان يعتبر إلى الأمس القريب نقاطاً مظلمة في التاريخ الألماني.؟

ففي ٦ أغسطس ١٨٠٦ قبل القيصر فرانتز الثاني الإنذار النهائي من نابليون، وبذلك كانت نهاية الإمبراطورية الرومانية المقدسة للشعب الألماني، وبعد سلسلة من الحروب بدت فيها فرنسا سيداً لا يقهر في أوربا، وكانت جذابة في مجال الفكر والتحرر، وكان جيشها يحرز بقيادة عبقرية معاركه بظفر.

ولكن نابليون بدا من جهة أخرى طاغية، بل وطبع صيته وشهرته بهذه الصفة، يحول بإرادته رومانسية الثورة الفرنسية إلى أفعال، ولكن بعضها كانت ينطوي على نتائج كارثية، ولما حلت كارثة الحملة الروسية التي فقد فيها معظم جيشه المنهك والممزق أشلاءً حيال عناد الروس في سهول روسيا الجليدية، واصطدم بالدبلوماسية البريطانية، وكانت كل أوربا قد دانت له باستثناء الدولة العثمانية وروسيا وبريطانيا والبرتغال في أوربا، تجمعت العائلات الأوربية الحاكمة وخاضت الحرب ضده، وألحقت به خسارة جسيمة في معركة الأمم / لايبزج ١٨١٢ مهدت للاندحار الأعظم كما هو معروف في معركة واترلو.

وتحاول وسائل الثقافة الألمانية والأوربية عموماً، ومن خلال عروض سينمائية ومسرحية وأعمال فنية كثيرة، تؤدي في مجموعها إلى إعادة صياغة هادئة دون ضجيج وانفعالات حماسية، لذهن المواطن الأوربي على أصعدة الثقافة المختلفة، وللتأثير في فكره السياسي، وإحاطة الفرد بمشاعر أوربية تعكس إرادة ورغبة الاتحاد الأوربي في خلق أمزجة موحدة للأوربيين، وذلك يعكس أن الخيار الأوربي هو خيار نهائي أمام تحديات القرن والألفية الثالثة.

تريد إغفال جانب القهر الوطني، وحقيقة أن الحروب النابليونية كانت في جوهرها حروب توسع وضم وسعياً لتحقيق النفوذ السياسي والاقتصادي والعسكري.

كان المستشار السابق هيلموت شمت قد قدم محاضرة بالغة الأهمية في مدينة نورنبرغ بعنوان أوربا طرح فيها آراء حساسة بدا فيها غير متفائل حيال مؤشرات عديدة في أوربا، منها تراجع جذوة الإبداع الأوربية، محذراً بشدة من الآسيويين على سائر الصعد، ومنبهاً إلى خطورة الحملة المعادية للعرب والإسلام، وداعياً بشدة إلى خلق كل ما هو ضروري لتمتين أواصر الأوربيين، ودون ريب أن خلق الاندماج الثقافي وتيسير معطياته هو أحد وسائل هذا المشروع.

٢

نابليون في روسيا.. نهاية أحلام الإمبراطور!!

حينما توقف نابليون عند أبواب مدينة موسكو عام ١٨١٢ بان للعيان أول التصدعات الحقيقية التي حدثت في نظامه الإمبراطوري. وبعد أكثر من قرن على ذلك لا يبدو أن هتلر قد تعلم من درس نابليون القاسي فتوقف هو الآخر عند مشارف موسكو في ديسمبر ١٩٤١ ثم انتهى أمر الجيش الألماني بسبب نفس بسالة الروس، ومن قبلهم " الجنرال شتاء " !!

نهاية نابليون وهتلر كانت نهاية مشتركة ومتشابهة لكلا القائدين والدولتين. فكلاهما نجح في غزو أوروبا بسرعة مدهشة بفضل تكتيكات عسكرية جديدة، وجيش حديث منظم، وتستمر لديهما مسيرة الفتوحات والمعارك الناجحة حتى يأخذهما الغرور والصلف، ويقرران غزو روسيا. ومن هنا تكتب لهما بداية النهاية.

فأوروبا قارة صغيرة يمكن لجيش متفوق احتلالها بسرعة كبيرة، وفي المقابل تتجاوز مساحة روسيا قارة إفريقيا وأوروبا واستراليا مجتمعة - ضمن بيئة برية خالية لا تتمتع بمواصلات حديثة.. ومساحة هائلة كهذه تتطلب جيشاً أكثر ضخامة وتنظيماً - وقدرة لوجستية - تفوق قدرة أوربا مجتمعة على تحمله.

وبالإضافة إلى عامل المساحة الهائل (الكفيل بتشتيت أي جيش غاز) هناك "الجنرال شتاء" الذي طالما مزق جيوش الغزاة وحمى روسيا بطريقة طبيعية وغير مكلفة.

فحين قرر القائد الفرنسي نابليون غزو روسيا عام (١٨١٢) كان يملك أقوى وأفضل جيش في أوروبا. وفي البداية اقتحم روسيا بسهولة كبيرة (كما فعل

هتلر بعده بـ ١٢٩عاماً - وقبلهما الملك السويدي تشارلز عام ١٧٠٩) غير أن الروس استغلوا العمق الجغرافي لبلادهم فانسحبوا أمام الجيوش الفرنسية ولم يشتبكوا معها.

وحين دخل نابليون موسكو لم يجد فيها إنساناً واحداً (حيث انتقلت الحكومة والأهالي إلى سيبيريا الباردة) فأحبط وقرر العودة لفرنسا.

غير أن الشتاء كان قد حل أثناء عودته (ونزلت درجة الحرارة إلى ٤٠تحت الصفر) فمات معظم جيشه من الجوع والبرد. ومن أصل ٦٠٠,٠٠٠رجل لم يخوضوا معركة حقيقية قضى زمهرير روسيا على ٥٥٠,٠٠٠منهم، وهي خسارة لم يستطع نابليون تعويضها أبداً وكانت سبباً في نهايته. . وهذه هي قصة نابليون مع الروس و غلطته القاتلة أو خطيئته الكبرى !

في عام ١٨٠٠ كان نابليون بونابرت جنرالاً شابا حير بدهائه الحربي رجالات أوروبا. وُلد نابليون ابنًا لمحام من كورسيكا، نشأ من بين حطام الثورة الفرنسية حاكمًا لفرنسا، وعندما بلغ الخامسة والثلاثين نصب نفسه إمبراطورًا.

عام ١٨٠٤ انطلقت نخبة جيشه الإمبراطوري من باريس، وسرعان ما سيطر على مساحات شاسعة ما كان لأحد من الفرنسيين أن يحكمها غيره. وتمتع نابليون بأعصاب من حديد وهو جندي بعد، وتميز بتكتيك عسكري جريء كان يحلم بإمبراطورية أوروبية لنفسه، فيها حكومة واحدة.. وعملة واحدة.. وقانون مدني واحد يضمن حماية حقوق المواطن العادي.

عندما تحقق حلمه، ألغى العائلات الملكية في أوروبا وسلطاتها المتوارثة. وفي عام ١٨٠٧ كانت روسيا وانجلترا وحدهما تقاومان سيطرته على أوروبا، ثم هُزمت روسيا في معركة "فريد لاند" بعد انتصاره دعا نابليون القيصر الروسي ألكسندر الأول إلى محادثات سلمية في تلسيت.كان متشوقًا لمفاجأة ألكسندر فبنى رمسًا جميلاً فوق نهر "ميمن".

وتأكد لنابليون أنه بحاجة إلى حليف صلب لاستقرار إمبراطوريته الجديدة، شعر بأن ألكسندر قد يكون الصديق الذي يبحث عنه، كان ألكسندر أرستقراطيًا

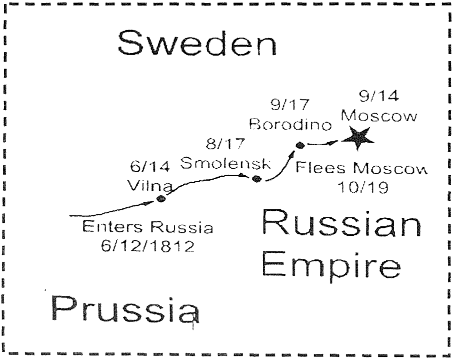
وسيمًا يبلغ الثلاثين من العمر، وكان دبلوماسيًا فذًا، مكنته أفكاره الليبرالية من أن يصبح زعيمًا شعبيًا.



نابليون ارتكب غلطة عمره بغزو روسيا ليلقى الهزيمة التي حملت انكساره

و وضعت نهاية أحلامه وكان ثمنها في النهاية حياته !!

حكم قيصر روسيا الإمبراطورية الواسعة في الشرق، مع تقدم المفاوضات أوضح نابليون كيف يريد مساعدة ألكسندر، إذا ما توحدت فرنسا وروسيا ستصاب إنجلترا العدو الوحيد الباقي لنابليون بالعزلة التامة، فتصبح سيطرة نابليون على أوروبا كاملة.



خريطة تبين الطريق الذي قطعه نابليون بقواته

حتى موسكو قبل اندحارها بسبب حلول الشتاء !!

ما كان لإلكسندر أن يرفض ذلك سرعان ما تم توقيع معاهدة سلام بين أكبر إمبراطورتين في العالم، التحالف بين نابليون وألكسندر ألغى كل التعامل التجاري بين روسيا والإمبراطورية البريطانية كان الهدف من ذلك إفلاس قوتها.

في باريس لاحظت "جوزفين" تغيرًا في تصرفات زوجها، بعد لقائه مع القيصر الروسي أراد نابليون أن يتوجه بالصداقة مع ألكسندر إلى ما هو أبعد من ذلك أراد تعزيز التحالف بالزواج.

وكان كذلك يريد ابنًا إذا ما أراد لسلالته البقاء والاستمرار، ولكن نابليون يعلم بأن "جوزفين" عاجزة عن الإنجاب، وهكذا طلب من ألكسندر الزواج من شقيقته الصغرى "آن".

كان نابليون مستعدًا بالتضحية بزوجته أو بغيرها في سبيل مستقبل فرنسا، قال لجوزفين: لا مكان للقلوب في السياسة بل للعقول وحدها، ثم طلقها يوم الخامس عشر من كانون أول-ديسمبر سنة ١٨٠٩ بعد أربعة عشر عامًا من الزواج.

ولكن والدة ألكسندر ارتأت أن نابليون مجرد طاغية، وأنها لن تسمح لابنتها بالزواج منه، فصعق نابليون بالخبر.

وبعد أربعة أشهر تزوج نابليون من "ماري لويس" ابنة الإمبراطور النمساوي، أثمر زواجه منها الابن الذي أراده أن يكون وليًا للعهد "فرانسوا جوزيف".

استمر التحالف الفرنسي الروسي لثلاثة أعوام أخرى، حتى أصيبت روسيا بالإفلاس، فأُجبر ألكسندر على التجارة مع أعداء فرنسا الإنجليز، شعر نابليون بالخيانة فقد كانت الصداقة بالنسبة له تعني كل شيء.

تردد نابليون في إعلان الحرب على ألكسندر، لم يسبق لأحد أن غزا روسيا، فهل له أن ينتصر حيث هُزم الآخرون؟ لكنه كان بحاجة للتحالف مع روسيا، ولا بد لانتصار حاسم أن يجبر ألكسندر على الدخول في محادثات سلام.

بالحرارة التي تميزه بدأ نابليون يخطط للهجوم، كان يوجه الأوامر بلا توقف لثلاث وزارات مختلفة في وقت واحد، في دماغه كان يحسب التمويل الذي سيحتاجه لاجتياح بلد هائل مثل روسيا.

فكر نابليون بكل الاحتمالات في حرب مهمة ومصيرية كهذه الحرب التي يوشك على ولوج نفقها.

في مايو من عام ١٨١٢ كان نابليون قد جهز نصف مليون جندي، كان واحدًا من أكبر الجيوش التي شهدها العالم، نصفه فقط من الفرنسيين.

حذره مستشاروه أن في اجتياح روسيا مجازفة مخيفة، لكن خطة نابليون كانت جاهزة، فتخلص من جميع الشكوك التي لديه. . ألم يكن هو الجنرال الأشد رعبًا في أوروبا ؟!!!

وفي الطريق إلى روسيا أعلن نابليون : "سوف نرى من منا سيتعب أولاً، هل

سيتعب جيشي على حساب روسيا أم القيصر من إطعام جيشي على حساب دولته، أصبح الأمر مسألة وقت فقط".

عندما اجتاح نابليون روسيا أخذ معه نسخة من كتاب حياة الملك تشارلز بقلم الفيلسوف الفرنسي فولتير، قبل قرن كان تشارلز ملك السويد قد سبق نابليون إلى روسيا حدث ذلك عام ألف وسبعمائة وسبع عشرة خلال حرب الشمال العظمى التي صورت أهم المراحل التي كان سيجتاحها نابليون، تشارلز أيضاً ترك جنوده يتوغلون عميقاً في روسيا مما ممدد طرق الاتصالات والدعم والتعزيزات حتى كادت تنقطع، ومثل نابليون علق تشارلز في براثن الشتاء وفقد الكثيرين من رجاله بسبب الجليد والثلج.

وفي النهاية وبعد معركة دامت ثلاثة أيام وفي يوليو عام ألف وسبعمائة وتسعة اضطر معظم الجيش السويدي للاستسلام، والملك تشارلز مع ألف وخمسمائة فقط من رجاله الذين كانوا أصلاً سبعة عشر ألفا تمكنوا من الفرار، عام ألف وثمانمائة واثني عشر كان نابليون واثقاً من أنه لن يكرر الأخطاء التي كان ارتكبها الملك تشارلز.

لكن هذا كان افتراض متعجرفاً، يذكر قول مأثور "إن من لا يتعلم من أخطاء التاريخ يكررها" وقد أثبت نابليون وهتلر بعده سنة ألف وتسعمائة وواحدة وأربعين صحة هذا القول.

وفي الرابع والعشرين من يونيو أطلق نابليون هجومه على روسيا، كان يتوقع معركة سريعة على الحدود يجبر فيها ألكسندر على المجيء لاستجداء السلام، على أن يعود إلى الوطن قبل نهاية الصيف.

لكن وحدات ألكسندر لم تكن هناك، انقسمت إلى مجموعتين وأخذت تعمل على تفادي مواجهة نابليون.

توجه الجنرال "باركلي ديتولي" قائد الجيش الروسي الأول نحو الشرق ليلتقي بـ"بيبليشن" قائد الجيش الروسي الثاني.

تابع نابليون مسيرته متعجلاً المعركة الحاسمة، ولكن ديتولي رفض القتال واستدرج

الفرنسيين عميقًا إلى داخل روسيا، لم يتوقع نابليون الدخول إلى هذا العمق.

وبعد أربعة أسابيع من المسير أبعد جيشه أكثر من مائتي ميل عن منطقة الحدود، بدأ التمويل يتضاءل، ونسور نابليون تزداد جشعًا.

كتب أحد الجنود في ذلك يقول : " كنا نترك خلفنا بيوتًا خاوية، وحقولاً وغابات أسيرة النهب والسلب، كان نتائج الحرب مخيفة لاسيما بأنها اندلعت بهذه الأعداد الهائلة من الرجال ".

أخذ الجيش الفرنسي يزداد ضعفًا مع كل خطوة يتجه فيها نحو موسكو، أحرق الروس القرى التي تترامى على الطريق، كي لا يجد الفرنسيون مأوى، فأخذت جيادهم تموت بعد تعرضها للمطر والرياح.

بعد سبعة أسابيع من المسير قتل التعب ما يزيد عن مائة ألف جندي فرنسي. وأخيرًا اجتمعت الجيوش الروسية في "سمولينسكي"، وتجهزت لمحاربة نابليون الذي أنهكه التعب.

أصبح عداد جيش نابليون مائة وخمسة وستين ألف رجل بعد أن تُرك الباقون لحراسة طرق التموين.

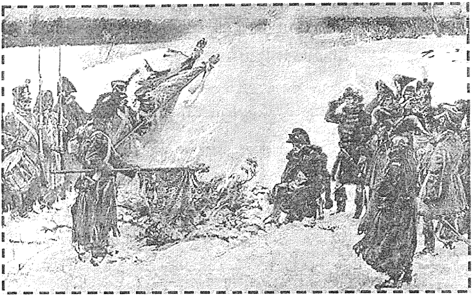
أما الجيش الروسي فبلغ تعداده مائة ألف رجل، رغم ذلك جرت معارك طاحنة بين كر وفر على مدار ثلاثة أيام دون أن يكون لأي منهما اليد العليا، ودون أن يتمكن أيهما من ادعاء النصر.

صُعق الروس وهربوا باتجاه الشرق، ثم عاودوا مرة أخرى اتباع سياسة الأرض المحروقة أثناء انسحابهم فدمروا وأحرقوا القرى ومستودعات الغذاء بكاملها، عند انسحابهم كانوا يخططون لتجويع الفرنسيين خلفهم.

تزايد الشعور بالإحباط لدى نابليون فكلما كان يطارد الروس نحو الشرق يتزايد تعرض جيوشه للخطر، لكن العودة إلى باريس قد توحي بالفشل.

أصبحت موسكو على مسافة أسبوعين فقط، لا بد أنه إذا استولى على العاصمة الروسية سيسعى ألكسندر لقبول السلام.

اعتياد نابليون على المغامرة جعله يتابع المسير، انسحب ألكسندر من موسكو إلى سان بطرسبرج، وكان يواجه الكارثة، فانسحاب قواته الجبان ترك آثارًا مدمرة على المعنويات، على الجيش أن يقف ويدافع عن موسكو، لهذا أصدر أوامره بإقالة "ديتولي" وعين محله الجنرال "كوتوسوف".



نابليون مع فصيل من جنوده في روسيا قبل هطول الجليد

ليشل حركة جيشه ويقضي على جنوده و أطماعه التوسعية !!

"كوتوسوف" كان داهية من المحاربين القدامى يبلغ من العمر سبعة وستين عامًا، أمر على الفور بوقف الانسحاب ودعا القوات الروسية للمواجهة والحرب.

اختار قرية "برودينو" موقعًا للدفاع عن موسكو، كانت تلك هي الفرصة التي ينتظرها نابليون معركة شكلية يمكنه الانتصار فيها، وصول صورة لابنه الصغير عززت من معنوياته، قال لحراسه: (لو كان ابني راشدًا لكان اليوم هنا بلا شك).

شاهد نابليون كل ما يجري في ساحات القتال من مرتفعات برودينو، يوم السابع من سبتمبر عام ١٨١٢.

كان الجنرالات في مواقعهم أكثر من مائة وثلاثين ألفا من أفضل رجاله في

مواجهة مائة وعشرين ألف روسي، كل ما عليه أن يفعله الآن هو الترقب والانتظار.

في تمام السادسة صباحًا انطلقت عيارات نارية من خمسمائة بندقية فرنسية نحو الجيش الروسي، ولكن لدهشة نابليون قام الروس بالرد على مصادر النيران بشدة وعزم، كلما حاول الفرنسيون دفع الروس إلى الخلف كانوا يواجهون ردا شديدًا من قبل الروس.

كتب أحد الجنود في تلك المناسبة يقول: (هدير المدافع وصراخ الرفاق المصابين من حولي هذا كله أثر في كثيرًا).

ومع حلول الظلام بدأت أصوات المعركة تهدأ وتموت، قال أحد الضباط: (الرمايات والقتل المتبادل جعل من ساحة بورودينو نموذجًا لا يُطاق).

قال نابليون: " كانت أشد المعارك التي شاركت فيها، أثبت الفرنسيون فيها أنهم يستحقون النصر، وأثبت الروس أنهم لن يهزموا " .

أُصيب الفرنسيون بالرعب من حجم خسائرهم حيث قُتل أكثر من ثلاثين ألف جندي وخمس وثلاثون ألف جواد، صمدوا في ساحات القتال، ولكن نابليون لم يكن بحاجة إلى النصر.

في وقت متأخر من تلك الليلة سمع نابليون نبأ انسحاب الجيش الروسي مرة أخرى، تاركًا موسكو من دون دفاعات، فرصته الوحيدة هي احتلال المدينة وإجبار ألكسندر على القبول بالسلام.

بعد ثلاثة أشهر من المسير. . كان نابليون على مسافة خمسة وسبعين ميلاً من عرش الإمبراطورية الروسية.وهرب سكان موسكو من شدة الخوف والجزع.

و في يوم الرابع عشر من سبتمبر من العام نفسه صار باستطاعة نابليون أن يشاهد ضواحي موسكو، القبب الذهبية لقصور الأثرياء كانت تلمع أمامه.

لكن لم يحتشد المستقبلون لتحية الإمبراطور، شعر نابليون بالخيبة والغضب.. لم يأته أحد بمفاتيح المدينة، ولم يصل طلب السلام من ألكسندر.

استولى نابليون على الكريملين قصر الإمبراطورية، وبعث بسفير إلى ألكسندر يعرض عليه السلام، ثم جلس هناك بانتظار الجواب.

في الليلة الأولى أيقظ الحرس نابليون يبلغونه بأن النيران تشتعل في أنحاء موسكو. واكتشف الفرنسيون أن الهاربين الروس فتحوا أبواب السجون، وأخلوا سبيل جميع المحكومين. . عقدوا العزم على حرق مدينة موسكو، علق أحد رجال الإطفاء على ذلك بالقول: " كنا نسير على أرض مشتعلة تحت سماء من لهيب، وبين جدران حارقة ". و بعد أيام احترق السواد الأعظم من المدينة.

صُعق نابليون. . أحرق الروس عاصمتهم بأيديهم، ولم يصله بعد أي رد من القيصر، كان نابليون على قناعة بأن التحالف بينه وبين القيصر لا يزال واردًا، ولكنه بدأ يشك بذلك للمرة الأولى.

كان يريد عملاً؛ لهذا بعث مرة أخرى برسالة يائسة إلى بطرسبرج، لكن ألكسندر لم يكن راغبًا في السلام، كان يعلم أن قسوة الشتاء الروسي ستتولى تصفية الفرنسيين بنجاح أكبر مما يمكن للجيش الروسي أن يحققه، الصبر سيؤدي إلى النصر.

أصبح نابليون على شفير الهاوية وهو يجلس في موسكو بانتظار جواب من ألكسندر، كان التمويل في المدينة يتضاءل يومًا بعد يوم، كانت عصابات الروس تهاجم خطوط الاتصالات الفرنسية كل يوم.

أطل فصل الشتاء الروسي القارص برأسه المخيف، أراد نابليون أن يتوجه إلى سان بطرسبرج، ولكن جنرالاته نصحوه بألا يفعل، فالمسافة بعيدة جدًا.

وفي يوم الخامس عشر من أكتوبر سقطت الثلوج على أطلال موسكو، تأكد لنابليون أنه لا يستطيع الاستمرار في انتظار ألكسندر حتى يستسلم، عليه أن يغادر موسكو فورًا.

بعد خمسة أسابيع فقط من الاحتلال أُجبر جيش نابليون على مغادرة موسكو دون معاهدة سلام، وُضعت المؤن والغنائم في العربات، كتب أحد الجنود عن ذلك اليوم قائلاً: (بدا الأمر وكأن أحد الجيوش القديمة يعود محملاً بالأسرى

والغنائم).

توجه نابليون أولاً نحو جنوبي غربي روسيا الأكثر دفئًا، ولكن الروس دفعوه نحو الخلف إلى "برودينو".

بعد أيام كان الجيش يمشي على جثث القتلى ممن سقطوا هناك في المعارك التي وقعت قبيل شهر من ذلك.

بعد أن أحاط به الجليد أخذ الجيش ينسحب عبر ساحات المعارك، لم يجد مأوًى من قسوة المناخ، لم تكفه المؤن المتضائلة.

استمر الثلج بالهطول، كان الجنود الفرنسيون يفتقرون للملابس الدافئة والأحذية، لم يكونوا مستعدين لفصل الشتاء، وما إن بدأت الحرارة تهبط إلى ثلاثين درجة تحت الصفر حتى بدأ الرجال يتجمدون.

حانت ساعة ألكسندر. . قام الجيش الروسي بمهاجمة نابليون سعيًا للانتقام، أقفل الشتاء الروسي طريق عودته إلى الوطن.

وصل البرد إلى عظام جنود نابليون، فأخذوا يتجهون غربًا عبر مناطق لا حدود للثلج فيها، أصبحوا على مسافة ألف وخمسمائة ميل من باريس.

كتب أحد الجنود عن تلك المسيرة قائلاً: (كان الرجال يتمايلون على طول الطريق ثم يسقطون دون حراك، خرجت أقدام بعضهم من الأحذية بلونها الأحمر أولاً لتنتهي بالزرقة والسواد).

تخلى الفرنسيون عن أسلحتهم فوضعوها جانبًا كي لا يأخذها الروس، دُفنت غنائم موسكو الثمينة في الخنادق، مع توجه الجيش نحو الغرب أخذ من تبقى من الجنود الفرنسيين يأكلون جيادهم.

في هذه الأثناء كانت جيوش ألكسندر تطعن في خاصرة الفرنسيين وهم كالمخرز في العين، قرر الروس اعتراض انسحاب نابليون عند نهر بريزينا.

وزع الروس رسمًا لنابليون وهم على ثقة بأنهم سيتمكنون من أسره، دمروا الجسر الوحيد الذي يعبر نهر بريزينا، حين وصل نابليون إلى النهر واجه تيارا

وكأنه استعاد لهيب النيران التي في عروقه رسم نابليون خطة جريئة، بأن يضع جسرًا على النهر وينقذ كل جيشه.

بعث بأشد رجاله جرأة للعمل على تحويل النهر، فوجه أربعمائة من جنود الهندسة لتدمير أقرب مجموعة من المنازل باستخدام الأخشاب بذلوا ما في وسعهم في المياه الجليدية لبناء جسرين كبيرين، بعد أربع وعشرين ساعة كان الرجال المتعبون يعبرون النهر.

تنبه الروس إلى خطئهم، وأخذوا يقصفون الجسرين، فقد النظام وتراكم الرجال فوق بعضهم البعض لعبور النهر، سقط الجسران مرتين ثم أعيد بنائهما، وقع الآلاف في المياه الباردة وغرقوا، سُد نهر بريزينا لعدة أسابيع بالجثث المتجمدة.

لكن تم إنقاذ خمسة وعشرين ألف جندي، وعندما اصطف الباقون على قيد الحياة توقف الروس عن مطاردتهم.

نجا نابليون من بريزينا وخرج من المصيدة الروسية، لكن مشاكله لم تنته بعد، وصلت أنباء من باريس عن محاولة انقلاب لإسقاط الإمبراطور، نصحه الجنرالات بالتوجه فورًا إلى فرنسا، فانطلق في رحلة تسعمائة ميل إلى باريس، كان يعلم بأهمية وصوله إلى هناك قبل أن تُشاع في أوروبا أنباء عن هزيمته النكراء.

قد يستغرق الأمر أربعة أشهر قبل أن يتمكن خمسة وعشرون ألفًا من فتح طريق العودة إلى فرنسا عبر روسيا، تكبدت فرنسا ثمنًا باهظًا لاعتقاد نابليون بأنه يستطيع غزو روسيا، وقد اعترف بذلك فيما بعد فقال: (لقد خُذلت وخَذلت نفسي).

شكلت الحملة الروسية الفاشلة بداية النهاية لنابليون، لقد تحطم حلمه في أن يصبح إمبراطورًا على أوروبا الموحدة، أما القيصر الروسي ألكسندر الذي لم يعد صديقه فقد هاجم فرنسا ودمر إمبراطورية نابليون.

حشدت روسيا وانجلترا قواتهما مرة أخرى مع باقي أوروبا، وأخيرًا هُزم نابليون في معركة "ووترلو" عام ١٨١٥.

تم نفيه إلى جزيرة "سانتا إيلينا" في جنوب الأطلسي بعيدًا عن أوروبا، لم ير عائلته أو بلاده مرة أخرى إلى أن مات وحيدًا عام ١٨٢١.

وقد توصل باحثون إلى أن الامراض التى ينقلها القمل لعبت دورا أساسيا فى دحر جيش نابليون عبر الأراضى الروسية عام ١٨١٢، وقد حلل الباحثون مادة مستخرجة من أسنان الجنود الفرنسيين الذين شاركوا فى الحملة فوجدوا أنواعا من مرض التيفوس الذى ينقله القمل وكذلك حمى الخنادق.

وقد نشر البحث الذى أنجز فى جامعة البحر المتوسط فى مرسيليا فى مجلة الأمراض المعدية وقد احتوت بقايا أسنان سبعة من الجنود حمضا نوويا من الفيروسات المسببة لمرض حمى الخنادق وثلاثة منها احتوت حمضا نوويا من الفيروسات المسببة للتيفوس.

وتوصل الباحثون إلى أن الأمراض التى ينقلها القمل قد تكون وراء هزيمة نابليون فى روسيا.

■ ■ ■

٣

معركة ووترلو..
بداية النهاية !!

قرية في الجزء الشمالي من وسط بلجيكا. تقع على مبعدة ١٤ كيلومترا ونصف الكيلومتر إلى الجنوب من العاصمة بروكسل. دارت على مبعدة خمسة كيلومترات منها معركة حاسمة (١٨ يونيو ١٨١٥) هزمت فيها القوات البريطانية (مع بعض الوحدات الهولندية والبلجيكية والألمانية) بقيادة دوق ولينغتون والقوات البروسية بقيادة جبهارت ليبرخت فون بلوخر القوات الفرنسية بقيادة نابوليون بونابرت.

وتعتبر معركة واترلو، التي وضعت نهاية أخيرة لحياة نابوليون السياسية، من المعارك الكبرى التي غيرت وجه التاريخ الأوروبي.

في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر تحول وقع أقدام الجنود إلى مسألة عادية بالنسبة إلى سكان القارة الأوروبية طوال عقدين من الزمن، فوقعت المعارك في أماكن متعددة من القارة منذ قيام "نابليون" وحتى اندحاره.

هزيمة "نابليون" عام ١٨١٤ على أيدي الحلفاء سجلت نهاية للطاغية وبداية لتمتع القارة بالسلام والرخاء، لكنها لم تكن طويلة الأمد.

ففي الأول من مارس هرب "نابليون" من منفاه في "ألبا" وانطلق عائدًا إلى "فرنسا"، ما عنى أن الحرب كانت على وشك الانطلاق.

بعد الكارثة التي أصابته في "روسيا" عام ١٨١٢ بدأ "نابليون" بالانحدار إلى أن أُحيط بجيوش من "بريطانيا" و"النمسا" و"روسيا" و"بروسيا" حين أجبر الجنرال إلى توقيع معاهدة غير مشروطة، بعد أن رفض أعداؤه احتفاظه بلقب

الإمبـراطور تحول إلى أميـر لجزيرة "إيلبا"، من جيش فـخور يتألف من نصف مليون جندي سُمح لنابليون بأن يأخذ معه ستمائة فقط من حراساته الشخصية. السابقة لتقف أمامه. التأثر الواضح ختمه بقبلة وداع وبكلمات قال فيها: "بهذه القبلة أضمكم جميعًا إلى صدري".



جنود نابليون في معركة ووترلو

الكثـير من رجال الوحدات المجتمعة هناك من "موسكو" و"إيلاو" وغيرهما انهمروا بالبكاء أيضًا، بعد ذلك بقليل أخذ الإمبراطور يودعهم، وفي أبريل من عام ١٨١٤ صعد إلى سفينة حربية بريطانية تولت إيصاله إلى "إيلبا" حيث المنفى.

عودة "نابليون" إلى المسرح الفرنسي ومسيرته المظفرة من "نيس" إلى "باريس" تحولتا إلى أسطورة معاصرة؛ مع أن الاحتفال به في "باريس" كاد لا يحصل أبدًا.

الإمبـراطور الذي أمضى سنوات منفاه في جـزيرة "إيلبـا" يهدد ويتـوعد، ومن خلال مراقبته للأحداث في "فرنسا" شعر باستياء الفلاحين المتنامي من الفئات

الحاكمة الجديدة هناك، كما شعر بعدم الرضا الذي أثاره تفكيك جيوشه الهائلة.

هذه الأوضاع مجتمعة ساعدت على توفير الظروف الملائمة لإعادة انبعاثه، لقد تمكن دائمًا من الاستفادة من الظروف المحيطة لصالحه كما عُرف بأنه رجل أفعال.

عام ١٧٩٦ عزز شهرته بضربه المباشر لأعمال الشغب، أما هذه المرة فعليه الاستفادة من الاستياء الشعبي قبل أن تتمكن السلطات الحاكمة من قمع بذورها.

في السادس والعشرين من شباط-فبراير من عام ١٨١٥ أبحر "نابليون" متوجهًا من "إيلبا" إلى "فرنسا" ما شكل الفرصة النهائية لإعادة بناء سلطته.

إن هؤلاء الضباط ما كانوا يريدون التورط في عملية فاشلة حتى قبل أن تبدأ، ولكن ما إن بدأت رحلته في اليابسة حتى بدأت الأمور تتغير، فقد أُرسلت وحدات جيش لاعتراضه من قبل المارشال "ني" الذي كان قائد القوات في "بوربون" مذ تم نفي "نابليون" عام ١٨١٤.

يُذكر أن مشهد الاعتراض هذا تحول إلى ما يشبه الأسطورة؛ حيث كان الجنود يهمون بإطلاق النار عليه حين خرج نابليون من بين جنوده الألف حيث قال: "أيها الجنود أنتم أمام الإمبراطور". فرمى الجنود بنادقهم، وأخذوا يهتفون: "عاش الإمبراطور.. عاش الإمبراطور".

وقد حدث ذلك فعلاً حتى إن كل فرقة كانت تتلقى أوامر من ضابطها، وهو يصرخ: "أطلقوا النار". كانوا يلقون بأسلحتهم، ويهتفون: "عاش الإمبراطور". وينضمون إليه.

حينئذ استمر بالتوجه شمالاً إلى "باريس"؛ حيث كان يلتقي بمزيد من الوحدات التي أُرسلت لتعترضه من قبل الحكومة، فيتكرر ما حدث ذلك مرة بعد أخرى حيث ينضم الجيش إليه في اللحظة الأخيرة، وعندما وصل إلى جدران العاصمة جرت موقعة أخرى حيث بعث برسالة ليلاً إلى قريبه في القصر يقول:"قريبي العزيز.. أرجو ألا ترسل مزيدًا من القوات أصبح لدي ما يكفي. التوقيع.. نابليون" ما دعا "لويس" الثامن عشر إلى الهرب من القصر والذهاب

إلى المنفى.

في تلك الليلة وصل "نابليون" إلى القصر الملكي في "باريس"؛ حيث أصبح في الواقع إمبراطورًا مرة أخرى.

ردُّ أعدائه جاء متحفظًا جدا، اجتمعت "روسيا" و"بروسيا" و"بريطانيا" و"النمسا" وتوصلوا إلى اتفاق أدى إلى توقيع معاهدة "فيينا"، تفاهموا على مبدأ تخليص أوروبا من متاعب نابليون فما كان لأي بلد أن يتفاوض على انفراد معه، فهو لا يستحق أن يُمنح الثقة. ويجب ألا يُمنح الوقت اللازم؛ لإعادة بناء آلته العسكرية، لا بد من تدميره بالقوة وبأسرع ما يمكن؛ إذ أن السلام لن يعم إلا بعد أن يتعرض "نابليون" لهزيمة نكراء في ساحات القتال.

كان الإمبراطور بحاجة ماسة إلى تعزيز مكانته في "فرنسا" ومن الطبيعي أن يسعى إلى تحقيق السلام، ولتأكيد هذه الرغبة خرج أمام حشود من مؤيديه بملابس الدولة بدل ملابسه العسكرية الرمادية اللون، ما خيب آمال الكثيرين.

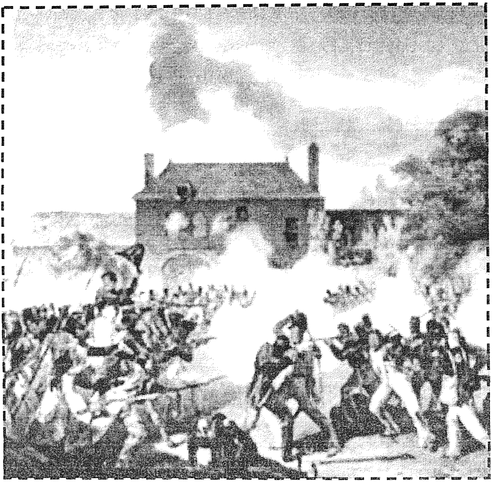
كان "نابليون" بحاجة إلى الوقت؛ كي يعيد بناء وحداته؛ خاصة وأن جيوشه تقلصت كثيرًا طوال فترة وجوده في المنفى. كان يواجه الكثير من الأعداء عند كل منعطف، كما أن كل عروضه للسلام رُفضت بالكامل.

حين واجه ذلك التحالف الذي يُصر على تدميره المباشر أعلن عن حملة المائة يوم والتي تُوجت بمعركة "واترلو".

كان دعمه الشعبي يتنامى إلا أن الظروف الإستراتيجية التي تواجه الإمبراطور كانت يائسة، رغم حقيقة أن الكثير من جنوده السابقين عادوا إلى مواقعهم إلا أنه لم يتمكن من تجنيد أكثر من مائتين وثمانين ألف رجل، أما الجانب المضاد فحشد جنودًا من أربعة بلدان متحالفة بلغ تعدادها ثمانمائة ألف رجل سيتبعها المزيد، كان التفوق العددي بالغ الأهمية بالنسبة إلى الحلفاء، لكن عليهم الاعتماد على استراتيجية تساعدهم على الاستفادة من تفوقهم العددي.

قوات من خمسة بلدان تُستخدم لخنق قوة متناثرة واحدة بجيش تتحالف فيه "بريطانيا"، "هولندا"، "بلجيكا" بما يوازي مائة وعشرة آلاف رجل، على

"ويلنجتون" أن يهاجم "باريس" من ناحية "بروكسيل"، على أن تتم حماية ميسرته من قبل المارشال "بلوكر" بقوة من مائة وعشرة آلاف بروسي. الجنرال "شوارزنبيرج" على رأس مائتين وعشرة آلاف رجل من الجيش النمساوي سيهاجم "فرنسا" من ناحية الغابة السوداء.



جانب من معركة ووترلو

الجنرال "فريمون" على رأس وحدة من خمسة وسبعين ألف نمساوي وإيطالي سيهاجم "ليون" من خلال "الريفيرا"، أخيرًا احتشد مائة وخمسون ألف روسي يعملون على الوصول إلى "فرنسا" من خلال "الراين".

ما إن تتمكن هذه الجيوش من الانتصار على الجيوش المحلية حتى تتفق على التوجه إلى باريس، لا بد من أن تأخذ الاستراتيجية بعين الاعتبار أن تحريك الوحدات القتالية الكبيرة في بداية القرن التاسع عشر يحتاج إلى الكثير من الوقت خصوصًا أن على وحدات المشاة أن تنتقل عبر الجبال والسهول سيرًا على الأقدام.

علمًا أن قوتين فقط كانتا جاهزتين للعمل المباشر تلك التي يقودها البريطاني "ويلنجتون" والأخرى التي يقودها "بلوشير" في أيار-مايو عام ١٨١٥ أما القوات النمساوية فلا يمكن توقعها قبل يوليو، القوة الروسية القادمة من "موسكو" ستصل في مرحلة لاحقة أيضًا، هذا التأخير في استراتيجية الحلفاء كان في صالح "نابليون" ما يمكنه من العمل على تنفيذ استراتيجية الموقع المتوسط.

الإستراتيجية التي اتبعها "نابليون" في خلال حملة المائة يوم كانت رائعة، حتى إنه انتصر استراتيجيا في حرب عام ١٨١٥، ولكن في السنوات التي سبقت عصر "نابليون" في التاريخ تؤكد أن الاستراتيجية لا تحقق النصر، ما يعني أنك إذا ما ارتكبت أي خطأ استراتيجي سيعني ذلك أنك لن تحقق شيئًا بعد ذلك، أيّاً كان تعداد الجنود الذين خلفك وكأنها لم تكن.

وما كان يفعله "نابليون" في تلك المرحلة هو تكرار لما كان يبتدعه في الماضي من استراتيجية موقع الوسط، ولأن لديه وحدات أقل من "ويلنجتون" و"بلوشير" مجتمعين كان يسعى إلى قيادة جيشه بين هاتين القوتين، ثم يحكم الطوق على إحدى القوتين بعد أن يكون قد تفوق عليها منفردة ويعمل على النيل منها محيِّدًا القوة الثانية.

في هذه الأثناء، وبعد أن يتخلص من الأولى في ساحة القتال يتوجه نحو الثانية ويعمل على سحقها.

لعبة رائعة، ولكنها تمزقت بسبب مجموعة من الأخطاء التي ارتكبها "نابليون" وضباطه.

مقاتلة الوحدتين اللتين تطالهما يد "نابليون" في هذه الحرب عنت أن بإمكان "نابليون" إنهاء تلك الحملة قبل وصول النمساويين والروس للمشاركة فيها.

العلاقات السياسية بين "روسيا" و"بريطانيا" كانت على أسوأ حال، ما يعني أن انتصاره في الحرب لن يفرق بين الحلفاء فقط، بل سيعزز دعمه في "فرنسا" أيضًا.

أضف أن هزيمة "ويلنجتون" في هذه الحرب ستترك أثرًا سلبيا في أسواق الأسهم في انجلترا، كان نابليون يعتمد على أن يؤدي تدمير الأسهم إلى انهيار الحكومة في انجلترا ما سيأتي بحكومة حزب ضعيف يتعاطف أكثر مع قضية السلام.

عُرف عن ويلنجتون كفاءته العالية حتى إن شعبيته كانت عالية، لم يتعرض لأي هزيمة على يد الفرنسيين طوال سنوات الحرب في إسبانيا، وفي السادسة والأربعين وكان في عمر نابليون لم يكن يعاني مشاكل صحية كالتي يعانيها الإمبراطور، رغم اشتهاره بالقسوة إلا أنه كان يبدي اهتمامًا مميزًا برجاله، ويُقال أنه شوهد يذرف الدموع على تقارير الضحايا.

شعر نابليون بالثقة في التغلب على ويلنجتون وبلوشير، رغم التقارير الأمنية التي تؤكد بأنه نتيجة الخلافات السياسية القائمة كان لكل من جيوش الحلفاء خطوط اتصال منفصلة، اتصالات ويلنجتون كانت تُستمد من انجلترا عبر أوستين، بينما كانت مؤن بلوشير تأتيه من ألمانيا.

بمهاجمة النقطة الوسط بين الجيشين كان نابليون يأمل بأن ينسحب كل منهما بعيدًا عن الآخر باتجاه مواقع المؤن، ما يسهل الأمر عليه لمحاصرة كل جيش على حدة وإيقاع الهزيمة بكليهما.

سيفعل ذلك بتركيز جيشه الوحيد لمواجهة كلا القوتين، ما سيمنحه تفوقًا عدديًا مؤقتًا في الحالتين ليتخطى ضعفه العددي، حاجته الماسة إلى إجبار الحلفاء التراجع هي التي ستحدد طبيعة الأحداث في الأيام اللاحقة.

القوات التي كانت على وشك المشاركة في حملة المائة يوم شهدت تقدمًا على مدار المائة عام الماضية التي تفصل بين تلك الموقعة وتركيز حشود الجيش البريطاني التي اجتمعت في "مالبرا" قبل مائة عام من ذلك التاريخ.

كانت موزعة على ثلاثة أسلحة مختلفة: هي المشاة، والفرسان، والمدفعية، عُرف عن وحدات المشاة البريطانية أنها الأكثر نظامًا وتسلحًا في العالم، وقد

تفوقت على الوحدات الفرنسية طوال سنوات حرب شبه الجزيرة التي امتدت بين عامي ١٨٠٤، ١٨١٤.

سلاح المشاة الرئيسي هو البندقية نفسها التي تُستعمل منذ عام ١٧٤٥ كان يتم حشو السلاح من الوسط؛ حيث يوضع بعض من ملح البارود في حجرة النار، ويقفل الغطاء، ثم يُصب ما تبقى من الشحنة في فوهة البندقية بما فيها الورقة التي تُدفع من خلال سيخ نحو أسفل البندقية بما فيها طلقة من رصاص.

ثم يُعاد السيخ المعدني إلى مكانه تحت الأنبوب الحديدي لتصبح البندقية جاهزة لإطلاق النار، يتم ذلك من خلال آلية بدائية عبر شرارة تشعل ملح البارود في حجرة النار، الذي يشعل بدوره الشحنة التي في أسفل الأنبوب فيرسل الطلقة إلى هدف ما.

أسلحة العصر لا تصيب الهدف تمامًا، وهناك خطورة على الجندي إذا ما جعله الخوف ينسى سحب السيخ من البندقية، ما يعني إطلاق السيخ مع الرصاصة نحو الأعداء، وفي هذه الحالة لا يمكنه حشوها من جديد. البندقية مجهزة بممر لولبي، يجعل الرصاصة تحلق باستقامة ما يضمن إصابة دقيقة، لكن بفعل العمل على الحشو وإطلاق النار بسرعة سارت دقة الإصابة مسألة ثانوية، ما عنى بالنسبة إلى الخبراء أن ما يقارب الخمسة في المائة من العيارات النارية تحقق أهدافها عبر مواجهة لا تزيد مسافة عشر ياردات.

أما المسألة الانتحارية في تلك الحروب فكانت اقتراب الجنود من بعضهم البعض ما يضاعف الخطورة عليهم، إلا أن تضاعف الإصابة يتطلب رص الصفوف بين الرجال، مع أن هذا كان يؤدي إلى وقوع إصابات في الصفوف، وهناك تقديرات تتحدث عن نجاة ثلاثة جنود فقط من كل مجموعة كانت تستطيع الخلاص بنفسها بعد كل معركة يصطف فيها الرجال جنبًا إلى جنب طوال يوم كامل من المواجهات الشاملة.

نيران المدافع كفيلة بإيقاع الكوارث في جميع الصفوف، وفي تلك المرحلة كانت القذائف الفعالة في غياهب المستقبل، بينما كانت المدافع تستخدم كريات

حديدية تزن بين أربعة أرطال واثني عشر رطلاً. كانت تستخدم قذائف عنقودية للمسافات القريبة، وهي مئات من الطلقات يتم حشوها معًا في المدفع لتنتشر في جميع الاتجاهات عند إطلاقها ما يوقع خسائر جسيمة في صفوف وحدات العدو المتراصة، الكريات الحديدية الصلبة التي يطلقها الأعداء لا تنفجر بل تصيب الرجال أثناء مسيرهم فتقطع أوصالهم، وكثيرًا ما كان صف كامل يُقتل بقذيفة واحدة تمر عبر جنود متراصين.

عمل القبطان "ميرسر" على رأس وحدات من المدفعية البريطانية في "واترلو"، ذاكرته الحية تعطي فكرة عما يمكن لسلاح المدفعية أن يوقع من إصابات.

ويقول القبطان ميرسرأحد القادة في المعركة : كان يجب أن نستمر هناك، نشتعل غضبًا لما تحققه المدفعية الفرنسية في الجانب الآخر، الاستمرار في إطلاق النار أوامر دائمة كنت أتتبعها دون تردد، هو التزامنا بالأوامر رغم التباطؤ في المدفعية أحيانًا، التي كانت تطلق قذائف من عيار تسعة أرطال في ذلك الحين، كانت الأولى من نوعها ترد على أسلحة من عيارات تفوقها جدًا.

ولم تكن متوقعة كما أن تفوقها كان معروفًا بمداه البعيد وأصوات انفجارها وكانت تسقط خلفنا، لكنا استمررنا بإطلاق القذائف من عيارات مختلفة وفعلوا مثلنا تمامًا، ولكن هذا لم يكن كل شيء غير أن أحد رجالي كان أول من أُصيب بتلك القذائف الحديثة حينها.

لا يمكن أن أنسى ذلك الصراخ الذي أطلقه حين تعرض للإصابة وأصبح جسده أشلاءً سقطت بين المدافع وصل صراخه إلى أعماق فؤادي حتى إني أحمل نفسي مسئولية ما أصابه مع أني بذلت جهدًا لإخفاء تأثري عن الرجال الذين ينظرون إلي فأمرتهم بتقديم الإسعافات للمصابين.

تم في تلك الحقبة التوصل إلى قذيفة مدفعية صُممت للانفجار عند تعرضها للصدمة، ضمان انفجار القذيفة عند سقوطها على الأرض يتطلب مقاييس دقيقة، كثيرًا ما كانت القذيفة تسقط على الأرض، وتبدأ بالصفير والدوران قبل الانفجار.

كانت الأوامر واضحة بين الضباط وهي ألا يسقط أرضًا إذا ما وقعت قذيفة إلى جانبهم، عليهم أن يتصرفوا بعدم اكتراث بانتظار انفجاره، أما الرجال الذين يصطفون جنبًا إلى جنب فهم أقل رغبة في القيام بذلك، مع أن واجبهم يدعو للبقاء من دون حراك في وجه قذائف المدفعية، علمًا أن سرعتها البطيئة تسمح برؤيتها تخرج من فوهة المدفع من الخطوط المواجهة وهي تحمل معها الموت والدمار.

ويؤكد العريف "سارجنت" الذي سار مع "نابليون" حتى "موسكو" إن سلاح المدفعية كان يحقق جميع انتصارات الجبهة الفرنسية، مع ذلك فإن القسم الثالث من الجيش كان ليتحفظ على ذلك، إنه سلاح الفرسان الذي كان يعتبر نفسه جزءًا من ارستقراطية ساحات المعارك.

وبالاعتماد على ضرباتهم المفاجئة كان الفرسان يرصون الفرسان بينهم لفتح الثغرات في صفوف العدو؛ بحيث يتمكنون من إيقاع الإصابات، لم يطرأ أي تقدم على سلاح الفرسان منذ ما يزيد عن المائة عام من تلك المعركة، حاله كحال سلاح المشاة أيضًا، وأحيانًا كان يُلجأ لأنواع قديمة من الأسلحة.

وفي إحدى المعارك النابليونية في "بولونيا" عادت الرماح إلى أيدي سلاح الفرسان الفرنسي بعد أن غابت عن ساحات القتال في أوروبا قبل ذلك بمائتي عام.

إعادة الحراب إلى المعارك لم تكن السبيل الوحيدة للعودة إلى السلاح القديم، بل إن الدروع والخوذات التي اعتمدها سلاح الفروسية الفرنسي جعل وحدات "كوراسيه" أشبه بالقوات الرومانية القديمة التي عُرفت قبل ألفي عام من ذلك العصر.

علمًا أن الشائعات التي انتشرت بين صفوف المشاة البريطاني بأن الدروع كانت مضادة للطلقات لم تكن شائعات صحيحة، تمكن مشاة ذلك العصر من إثبات قدراتهم الدفاعية من دون اعتمادهم على دعم الوحدات الفروسية، وعند اقتراب الفرسان يشكلون درعًا واقية من الرماح في جميع الاتجاهات، ما يمنع سلاح الفرسان من فتح ثغرة بينهم والاستفراد بكل على حدة، أثبت هذا التكتيك فعاليته وقد استفاد منه البريطانيون في معركة "واترلو".

لم يتمكن الفرنسيون إلا في مناسبة واحدة من ضرب تشكيلات الدوائر

البريطانية الواقية، حيث أدى إطلاق الرماح على هذه التشكيلات إلى تفريقها وبعثرة جنودها، لكن هذه حالة شاذة تخرج عن القاعدة، وفي جميع المناسبات كثيرًا ما تتمكن هذه التشكيلات من الدفاع عن نفسها، أما في المعارك فقد أدى سلاح الفروسية قدرته على إشغال وحدات الفروسية المعادية.

بينما يتم التركيز من خلال المدفعية وسلاح المشاة على ضرب ما تبقى من سلاح المشاة، يبني سلاح الفروسية سمعته البارزة في ساحات المعارك انطلاقًا من تأثيراته النفسية.

الكابتن "ميرسر" شهد واحدة من الحملات غير المقنعة التي قام بها الفرسان في معركة "واترلو".

ويقول: من بين الحملات التي كانت تقوم بها الفروسية الفرنسية على مختلف مواقع المشاة شاهدت حملة كان فيها الفرنسيون يتجهون مباشرة نحو موقع ما وسط ساحات القتال، ولكنهم سرعان ما حاولوا الانحراف قبل أن يبدو ذلك مستحيلاً حيث واجهتهم وحدة مقابلة من سلاح الفرسان التابعة لنا، واصطدمتا ببعضهما وما إن وقع الصدام حتى جرى تبادل بعض الطعنات بحركات شبه متفق عليها بين الطرفين، الذين انسحبا بعد ذلك على الفور، وحينها لم نشاهد إلا سقوط البعض منهم، قبل أن تعاود كل فرقة التشكيل تختفي عن الأنظار تمامًا.

تلك هي القوات التي واجهت بعضها البعض صباح الخامس عشر من حزيران-يونيو عام ١٨١٥، سارت خطة نابليون على ما يرام، كان "ويلنجتون" على علم بما تشكله المؤن من خطورة في "أوستن".

وما إن علم بتحرك القوات الفرنسية حتى أمر وحداته بالتمركز في الجنوب الغربي لبروكسيل، مبتعدًا بذلك عن مواقع حلفائه كما توقع نابليون، حين ركز وحداته بعيدًا عن "بروكسيل" إلى الجنوب الغربي عمل على جمهرة وحداته.

ولا بد من أنه سيستغرق وقتًا لإعادة تشكيلها، تنبه "ويلنجتون" بعد حين إلى الخطأ الجسيم الذي ارتكبه، وقال في هذا الشأن: "أعرف أن نابليون يستخف بي، وأنه كسب بضعة أيام على حسابي".

علم نابليون أنه سيشترك في معركتين يوم السادس عشر من حزيران-يونيو، الأولى توجيه ضربة موجعة يجمد فيها الوحدات البريطانية، أما الثانية فهي معركة أطول تسعى لتصفية القوات البروسية؛ ليستدير بعدها ضد البريطانيين ويدمرهم بالكامل.

لو أن الأمور جرت على ما يرام بالنسبة إلى الاستراتيجية التي وضعها نابليون لما ساءت على نحو ما ساءت عليه في ذلك اليوم، بعد اختياره لقوات بروسيا كهدف رئيسي لوحداته أمر نابليون المارشال "ناي" بالتوجه لمحاصرة القوات البريطانية التي تعسكر في "كاتبرا".

وما إن ينتهي من عملية الحصار حتى يرسل قوة تعزز مواقع الإمبراطور في الوسط حيث يعمل مع قوة الميمنة على إبادة القوات البروسية في "ليني" كان على وحدات "ناي" أن تبقي الحصار مغلقًا حتى تتمكن وحدات الإمبراطور من سحق الوحدات البروسية للتوجه بعدها وتعزز النصر بهزيمة نهائية للقوات البريطانية.

بفعل مجموعة من الظروف التي كان من بينها عدم كفاءة قادة الوحدات الفرعية للجيش فشل المارشال "ناي" في تنفيذ مهماته، فشل أولاً: في السيطرة على الطريق المؤدي إلى "كاتبرا" يوم السادس عشر من -يونيو، ثانيًا: فشل في إرسال الدعم الذي يحتاج إليه "نابليون" لتصفية القوات البروسية في "ليني"، ثالثًا: سمح لـ"ويلنجتون" أن يفصل قواته وينزلق بعيدًا نحو الشمال يوم السابع عشر.

ويقول أحد المؤرخين: لا بد من التعامل مع حرب ١٨١٥ على أنها أربعة اشتباكات بين الجيوش المتحاربة، اثنان يوم السادس عشر مع بداية تلك الحملة وقد وقع في "كاتبرا" و"ليني"، واثنان في الثامن عشر من يونيو حيث تقع "واترلو" على مسافة سبعة أميال من المواقع الأولى للقوات المتحاربة، كانت الاستراتيجية تمنح أهمية أولى لتصفية قوات" بروسيا" بشكل رئيسي وتدميرها كلها.

لهذا كان لا بد لوحدات "ديرلون" بأن تغادر مواقع الجنرال "ناي" لتنضم إلى القوات الرئيسية عبر الأرياف لتنقض على جيش بروسيا هناك، ولكن حالة من الفوضى سائدة، فقد صدرت أوامر عن معاوني الإمبراطور "ديكوك" إلى

الجنرال "ديرلون" الذي دعاه إلى التحرك، ولكن تم الاعتراض على ذلك من قبل القائد العام لضباط "ناي"، الذي ما إن شاهد قوة "ديرلون" تسير عند الأفق حتى فقد أعصابه، وقال: "إنه يريد عودته فهو يحتاج إلى معونته".

ما عنى أن "ديرلون" تلقى أوامر أخرى تلغي الأوامر الأولى؛ كي يعود إلى ساحة القتال في "كاتبرا"، وبسبب هذه الدعوة التي كانت حاسمة حصل ما حصل في معركة "كاتبرا" من انسحاب للقوات المواجهة، أو ما حصل في معركة "ليني"، لعدم وصول وحدة "ديرلون" في الوقت المحدد، هذا ما أثر سلبًا في وزن وحدات "نابليون"، إذ إن هذه القوات لم تقاتل في أي من المعركتين، بل أمضت الوقت في تجوال بين الساحتين ذهابًا وإيابًا.

وهكذا وبفعل ما ورد من إخفاقات المارشال "ناي" بدأت معركة "كاتبرا" في وقت متأخر، كان أربعة آلاف رجل فقط يسيطرون على الطريق الرئيسي ما يعني أن هجومًا حاسمًا من قبل الخمسين ألفًا بقيادة المارشال "ناي" كانوا يستطيعون السيطرة على الموقع بسهولة، لكن حذر "ناي" المبالغ فيه الذي أصابه بالهزيمة أمام "ويلنجتون" في "إسبانيا" جعله يدخل في معركة بدل القيام بهجمات ثانوية ما سمح للبريطانيين باستقدام تعزيزات متلاحقة.

نتائج تلك المعركة ضعفت الكارثة بالنسبة إلى نابليون الذي كان يقاتل وحدات بروسيا في "ليني" بما أن قوات الدعم لم تصل من جنب "ناي" كما كان مقررًا تمكن البروسيون من الهرب من "ليني من دون إصابات حاسمة، هذا على الرغم من ضربته المعنوية وخسارته سبعة عشر ألف رجل، لكنه لم يهرب من الجيش الفرنسي منسحبًا إلى الشرق حيث "لايج" بحسب اعتقاد "نابليون"، بل شمالاً إلى "فارف".

شاهد "نابليون" الكثير من جنود "بروسيا" يهربون من الجيش باتجاه منطقة "لايج"، وهكذا أخطأ في التوجه شرقًا مبتعدًا عن مصادر إمداداته وعن مواقع "ويلنجتون"، كما أنه كان بطيئًا في توجيه الأوامر لوحداته بمطاردة الوحدات البروسية، ما يعني أنهم كما جرى في "كاتبرا" تمكنوا من التجهيز لإيقاع خسائر جسيمة في صفوف "نابليون".

يوم السابع عشر من يونيو كانت الوحدات البريطانية والبروسية تنسحب نحو الشمال، وكان "بروشير" في عداد المفقودين طوال الليل بعد أن وقع تحت جواده في "ليني" فحل مكانه "سايز ناو" الذي كان سيصدر أوامر بالانسحاب بعيدًا عن "ويلنجتون" نحو "ألمانيا"، لكنه جمع قواته أولاً قبل القيام بذلك، في تلك اللحظة العصيبة عاد "بروشير" وأمر بوقف الانسحاب، وذلك لتقديم الدعم لقوات "ويلنجتون".

أي أن الحلفاء كانوا يسيرون في خط موازٍ في التوجه شمالاً من دون الابتعاد عن بعضهم.

وفق خطة نابليون، فقد نابليون الاتصال بأجهزته الأمنية، ولم يعاود الاتصال حتى السابع عشر من يونيو، حينها كان "ويلنجتون" قد حسم أمره للصمود والقتال في "واترلو"، في الثامن عشر من يونيو، اتخذ قراره على اعتبار أن الوحدات البروسية المجتمعة في "فالف" على مسافة ثمانية أميال ستتمكن من الوصول إليه في اليوم نفسه.

أما "نابليون" فلم يكن يعلم أنهم قريبون جدًا، بل كان واثقًا بأنهم يتابعون الانسحاب، وقد أقنعه "جراوتشي" الذي أكد له بأنه سيضمن انسحاب البروسيين بعيدًا عن "ويلنجتون"، وهكذا قرر نابليون أن يغادر هدفه لمهاجمة "ويلنجتون".

صباح الثامن عشر من حزيران-يونيو قام بتفقد وحداته هناك، ثم حسم أمره بسحق جيش "ويلنجتون" على أن يجد الوقت لمطاردة قوات "بروسيا".

ساحة القتال في "واترلو" لا تزيد عن ثلاثة أميال من الشرق إلى الغرب وميل ونصف الميل من الجنوب إلى الشمال.

اتخذ دوق "ويلنجتون" على رأس الجيش البريطاني الهولندي موقعًا له عند منطقة تقع إلى الجنوب، عادةً ما كان "ويلنجتون" يحقق النصر على الوحدات المعادية التي تعتمد على تركيز القوات في الوسط حيث تقع ضحية قذائف المدفعية، لهذا كان يُركز وحداته الرئيسية في مواقع مواربة بعيدة عن التأثير المباشر لمدفعية العدو.

كان يطلب من جنوده الانحناء والجلوس في أثناء عدم مشاركتهم في القتال،

ما جعل حجم الخسائر في صفوفهم تقل كثيرًا.

كما أدى ذلك إلى زيادة احترامهم للقائد الذي يعمل على حمايتهم الشخصية، الكثير من الضباط قدروا عاليًا هذه الإجراءات علمًا أن العديد من المسائل الأخرى لن تؤخذ بعين الاعتبار في هذا المجال.

مع بداية الاشتباكات تعرضت الوحدات الهولندية لقصف مكثف من قبل المدفعية الفرنسية، علمًا أنها واحدة من التشكيلات القليلة التي وُضعت في المقدمة على مرمى النيران الفرنسية.

في الجانب الفرنسي انتشرت القوات على خط مستقيم في مواجهة البريطانيين يفصل بينهم سهل منحدر وشارعان رئيسيان إلى جانب قصر عُرف بلقب "هوجو مونت" وعلى الناحية الأخرى مزرعة "لا إيسانت".

تشكلت وحدات "ويلنجتون" من قوات "بريطانية" و"هولندية" و"بلجيكية" مع بعض العناصر "الألمانية"، أي ما مجموعه ثمانية وستون ألف رجل، من بينهم خمسون ألفًا من المشاة، عشرون ألفًا منهم بريطانيون، واثنا عشر ألفًا وأربع مائة من الفرسان، ومائة وستة وخمسون مدفعًا يعمل عليها خمسة آلاف وخمسمائة جندي.

على الجانب الفرنسي تسعة وأربعون ألفًا من المشاة وستة عشر ألفًا من الفرسان ومائتان وستة وأربعون مدفعًا يعمل عليها سبعة آلاف جندي، هذا يعني أن "نابليون" نجح في حشد أعداد أكبر لمواجهة البريطانيين.

مقارنة مع الخطة المسبقة التي رسمها "نابليون"، يمكن أن تُعد معركة "واترلو" مخيبة للآمال، ومع ذلك فقد كان متأكدًا بالنيل من جنرال النظرة الثاقبة كما كان يسميه، حيث قال أمام الجنرالات الذين يحيطون به: "إن ما يجري لا يزيد أهمية عن تناول الإفطار"، معبرًا عن ثقته بخطته التي كانت تُختصر بتوجيه ضربة قاضية تخترق وسط خطوط "ويلنجتون"، وباحتلال تقاطع الطريق الحيوي الذي يعتمد عليه؛ ليتابع مسيرته في اتجاه "بروسيا" حيث كان واثقًا بأنه سيتمكن في ذلك المساء من إنهاء العملية، ثم إنهاء الحرب محققًا الانتقام.

وبعد أن أفاق الجيشان صباح اليوم التالي وسط وُحُول جاءت بها ليلة ممطرة، أمضى الجنود ليلتهم في العراء، وكثير من الأسلحة كان منغمسًا في الوحول، أجزاء من ساحة القتال كانت موحلة بالكامل، لدرجة أن حركة المدافع فيها أصبحت شبه مستحيلة، ما سيؤثر على إصابات وأهداف المدافع، حيث إن القذائف تغوص في الوحول عند سقوطها على الأرض ولا تسبب الأذى لأحد.

ثقته بأن القوات البروسية كانت بعيدة عن ساحة القتال جعلته ينتظر أكثر من ساعتين حتى تجف ميمنة ساحة القتال في أرض المعركة، في الجانب البريطاني كان "ويلنجتون" يميل للانتظار على اعتبار أن كل ساعة تأخير هي مكسب للحلفاء؛ لأنها تجعل حلفاءه "البروسيين" أقرب.

ومن دون علم الوحدات العسكرية بما تحضره الاستراتيجية أخذت تعمل على تعزيز راحتها والتموين قدر الإمكان.

الثامن عشر من يونيو يوم لا يُنسى، قبل بزوغ الفجر ببعض الوقت مرت وحدات التموين على الجنود توزع الذخائر ثم تبعتها مجموعة من الجنود توزع اللحوم والبسكويت وبعض الحليب، ومؤنًا أخرى كثيرة تُقدم للجميع، كما وزع الشراب للجميع، وبما أنه شراب حار ونادر هناك ملأ كل منا وعاءه كان ذلك عملاً رائعًا، شعرت القوات بالشكر والامتنان نحوه، وكان ذلك بسبب توزيع الشراب في ساحة القتال.

استمر "نابليون" في الانتظار لعدم معرفته باقتراب الوحدات البروسية، لكن في تمام الحادية عشرة والنصف بدأت المدافع الفرنسية بإطلاق قذائفها، وتحركت الوحدات الفرنسية على الأرض للقيام بالهجوم.

تركز الهجوم أولاً على موقع القصر الذي كانت تحتله الوحدات البريطانية المتقدمة، بدأ القتال على القصر والأرض المحيطة، ما أنهك القوات الفرنسية التي بذلت العطاء السخي للحصول على موقع لا يستحق كل هذا العناء.

استمرت المعركة المريرة للاستيلاء على القصر طوال اليوم، ومع استمرار الاشتباكات كانت الأحداث جارية في ساحات أخرى، إلى أن نجح الفرنسيون في

فتح الطريق إلى باحة القصر من خلال مجموعة من رجال البلاطات الذين حطموا الباب الرئيسي وتبعتهم الوحدات الأخرى مباشرة، كانت تلك نهاية المعركة للاستيلاء على القصر في ذلك اليوم، تلك العملية التي شغلت نصف كتيبة أو ما لا يقل عن عشرة آلاف رجل ضد وحدة لا تزيد عن ألفي رجل من الحراسات البريطانية.

ما كادت القوات الفرنسية تستعد لتعزيز تشكيلاتها واختراق الصفوف البريطانية حتى وصلت إلى الإمبراطور أنباء مفاجئة، فلأول مرة علم بأن البروسيين لا ينسحبون إلى ألمانيا، وأنهم في الطريق الآن لنجدة البريطانيين وضرب الوحدات الفرنسية من جانبها الأيمن.

أُجبر نابليون على سحب مجموعات كبيرة من قواته الاحتياطية لتعمل على حماية ميمنته قبل أن تبدأ المعركة، ما يعني أن عليه المشاركة في حربين في وقت واحد، مع ذلك فقد كان على ثقة كاملة بأن وحداته ستهزم "ويلنجتون" قبل وصول الإمدادات "البروسية" لنجدته.

كان "جراوتشي" قد فشل في مهمته في إبعاد القوات البروسية عن "ويلنجتون" ووحداته، لكن نابليون أصبح الآن بحاجة ماسة إلى انضمام "جراوتشي" ورجاله العشرين ألفًا إلى المعركة في "واترلو"؛ فبعث عددًا من الرسائل العاجلة يدعو فيها "جراوتشي" للانضمام إلى الجيش الرئيسي في "واترلو" في أسرع وقت.

أصبح القتال شمالاً على طول خطوط المعركة، فإلى جانب المعركة التي وقعت حول القصر أوشك حصار آخر أن يقع هناك، حيث عملت القوات على احتلال مزرعة "لا إيسانت" التي تتولى حمايتها الفرقة الألمانية، استمرت المعركة طوال اليوم إلى أن نفدت الذخائر لدى الألمان، وتخلوا عن المزرعة بعد ظهر ذلك اليوم.

في تلك الأثناء كانت الوحدات توجه الهجمات على المواقع البريطانية، كانت تلك لحظات عصيبة بالنسبة إلى البريطانيين حيث كانت وحدات فرنسية معززة بالمدفعية والفرسان تقارع لاختراق الميمنة البريطانية المؤلفة من ثلاثة آلاف من المشاة.

كان المشهد سوداويًا لـ"ويلنجتون" حتى تمكنت وحدات الفرسان البريطانية من إنقاذ الوضع في اللحظة المناسبة، فتوجهت فرقة "أنسيون" إلى ميمنة مزرعة "لا إيسانت" وفرقة "أنيون" إلى ميسرتها؛ لتشكل هجومًا مضادًا للهجمات الفرنسية.

وسط حماسة قوات الفروسية البريطانية تمكنت هذه من اختراق صفوف وحدات المشاة الفرنسية حتى وصلت إلى الخطوط الفرنسية، كان يُفترض بهم أن يتوقفوا هناك وينسحبوا على الفور، لكن قوة الفرسان الاسكتلندية التي كانت في الطليعة تمكنت في خلال تسعين ثانية من الوصول إلى مواقع المدفعية الفرنسية في المؤخرة حيث تعرضوا لضربات موجعة..

لكنهم تمكنوا من إسكات المدفعية الفرنسية، حيث ذُبح الرماة بلا رأفة، بعد تلك العملية الحماسية تنبهوا إلى أن الجياد المتعبة أصبحت أقل سرعة من أن تتمكن من إعادتهم إلى مواقعهم سالمين، حيث قامت وحدة من الفرسان الفرنسيين بمطاردتهم فقُتل غالبية الفرسان الاسكتلنديين في ذلك اليوم، يُقال: إن أكثر من ألف رجل من وحدة الفروسية الاسكتلندية -الألفين والخمسمائة- سقطوا ضحية تلك العملية الجريئة، ورغم هذه الخسائر الجسيمة رُد أول هجوم فرنسي على أعقابه، مع ذلك كان القتال على أشده في جميع ساحات المعركة على الخطوط، الكابتن "ميرسير" يتذكر ذلك بالقول.

العقيد "جولد" قائد المدفعية جاء إلي في وقت متأخر وهو يسعى للتحدث عن ظروفنا التي كانت يائسة من وجهة نظره، وقال: إنه على جميع الأحوال يرى أن الانسحاب مسألة واردة، ثم طلب رأيي في الأمر فكان ردي على ذلك بالقول إن الوضع يبدو يائسًا فعلاً ولكني أثق بالدوق لأنه سيخرجنا من هذه الأزمة بطريقة أو بأخرى، في هذه الأثناء كان التشاؤم يعشش في خاطري أما كنت بذلك أخون نفسي بناء على ما قلته للرجل، فلا شك في أن الواقع كان مؤلمًا، وأن كارثة بدت تلوح في الأفق وبهذه الحالة فكرت في أن أكون صادقًا مع نفسي وأنسحب من الساحة بالاعتماد على الجياد وكل ما لدي من سبل، لأتبع الخط التالي المحدد للانسحاب العام.

لكن "ميرسر" لم ينسحب وبقي هناك بانتظار مهمات أخرى، تنبه المارشال "ناي" إلى وجود نية بريطانية للانسحاب من خطوط الوسط، فاتخذ قرارًا بتوجيه أمر للفرسان للقيام بهجوم فرنسي واسع النطاق، وأكد في هذا الشأن أن كل ما يتطلبه الأمر هو حملة نفسية أخيرة، وهكذا نُفذ هجوم الفرسان من دون دعم وحدات المدفعية أو المشاة، ليجد أن التشكيلات الدائرية البريطانية مستعدة لاستقبالهم عند عبورهم الخط الفاصل.

قامت وحدات الفرسان باثني عشر هجومًا رُدت على أعقابها في اثنتي عشرة مرة بنيران التشكيلات الدائرية والمدفعية البريطانية، من بينها مدفعية "ميرسر".

ويقول أحد المؤرخين: كانت تلك محاولة يائسة بلا شك، كانت الحملات تأتي أمواجًا الواحدة خلف الأخرى، وانتشرت شائعات تقول إن نهايات تلك الهجمات لم تنطلق بعد، بينما كانت طليعتها على مسافة ستين ياردة من مرمى أسلحتنا، كانت ردة الفعل بطيئة، ولكنها مستقرة وثابتة.

بدا واضحًا أنه ليس هجومًا واسع النطاق بل تقدم عشوائي في منطقة عشوائية، عليها أن تحمل وزر ما تفعله، إلا أن تصرفاتنا كانت شبه عشوائية أيضًا، فبقي كل من الرجال في موقعه بكامل استعداده وسلاحه محشو أولاً، ولديه ذخيرة احتياطية، والملقم عند القذائف ورجال المدفعية يتوزعون خلف العجلات.

وأنا أحمل الكلمة التي ستلقي الحمم والموت في أولئك النبلاء على جيادهم، مع أني كنت أدعهم يقتربون أولاً إلى مسافة قد تصل إلى خمسين أو ستين ياردة من موقعنا، قبل أن أصرخ بكلمة: "أطلقوا النار". فكانت النتائج رهيبة ربما كان الخط الأمامي يسقط بكامله، كما أن الخوف والفوضى كانت تعم الخطوط التالية، الأرض التي تعج بضحايا بدايات المعارك أصبحت مستحيلة العبور، ومع ذلك كانت مجموعات من الفرسان تستمر بمحاولاتها للوصول إلينا لتكلل محاولتهم بالفشل، فخطوطنا كانت تعج بنشاط منقطع النظير، كنا على مستوى أدنى من المنطقة التي ينطلقون منها، لكن أمامنا تلة ترابية مرتفعة نسبيًا، ما يجعلها أشبه بساتر ترابي يوحي عبوره بأن مواقعنا أصبحت ضعيفة، ولكن

وصولهم إلى هناك كان يضعهم في موقف صعب، أما الانسحاب إلى الوراء فلم يكن أقل صعوبة، كان الكثير منهم يحاولون العبور من فوق أجساد الفرقة المسلحة ولكنهم يواجهون صعوبة في ذلك، لأن البنادق لم تتوقف عن إطلاق النار، لا يمكن تصوير ما كان يحدث، أما النتيجة فهي أشبه بالمذبحة التي تسودها الفوضى والضياع، كانت أعداد كبيرة تسقط مع كل محاولة للهجوم ليسعى الباقون على قيد الحياة إلى النجاة بأرواحهم.

وقد رأيت الكثيرين منهم يستعملون السيوف لفتح طريق العودة إلى الخلف بينما يجدون أنفسهم محاطين بالنيران من كل مكان ليسيروا في جميع الاتجاهات حتى يعثروا على طريق يسلكونها، وهم مدرجون بالدماء، في محاولة يائسة للنجاة بأنفسهم، وأخيرًا أُجبرت الوحدات على الانسحاب بسرعة كبيرة.

وقد شكلت صد هجمات قوات الفروسية بنيران التشكيلات الدائرية البريطانية والمدفعية اللحظة الحاسمة للمعركة، الأوضاع في تلك التشكيلات كانت تمنع أي تقدم، الأجواء المغطاة بالدخان والجثث المنتشرة على أرض المعركة ما كانت لتسمح بالاستمرار طويلاً، أخيرًا في الرابعة بعد الظهر بدأت طلائع الجيش البروسي تصل إلى ساحة المعركة، وفي الخامسة تمكنت من الاستيلاء على قرية "بلونسينوات" في الجانب الفرنسي لتهدد بضرب التشكيلة الفرنسية.

بدد نابليون فرصة الفوز في معركة حاسمة لرفضه إدخال حرسه الإمبراطوري فيها، تتألف هذه الوحدات من رجال ذوي كفاءات عالية مجربين في معارك مختلفة، وتتألف منهم حراساته الشخصية.

هذه المرة لن يكرر ذلك الخطأ، فرقتان من الحراسات الشخصية تسللت إلى "بلونسينوات" وأوقفت تقدم أربع عشرة فرقة بروسية في المنطقة المحيطة بها، ليتمكنوا بهذه الطريقة من إعادة الاستقرار بالنسبة إلى الفرنسيين.

كان من المحتمل أن يفوز بها نابليون، فقد تمكن المارشال "ناي" من تصفية العديد من وحدات الفروسية المعادية باستخدام المشاة والمدفعية والفرسان التي كانت توقع خسائر جسيمة في قلب الجبهة الفرنسية، في تلك اللحظات طلب

"ناي" من نابليون قوات لم تقاتل بعد.

كان يعرف أن جهدًا نهائيًا وحاسمًا قد يغير الأوضاع، تأخر نابليون في إرسال تلك الإمدادات الحاسمة لعدم وضوح الرؤية بعد على جبهة "بلونسينوات"، باستخدام التشكيلات التقليدية المتبعة تمكن "ويلنجتون" من تأكيد صلابة جبهة الوسط، ثم لجأ "نابليون" إلى فيلق الحراسات الملكية "رولت فولت".

الحراسات القديمة والأشد قدمًا بقيت في مواقعها في تشكيلات احتياطية، بينما قامت الفرقة الثانية والثالثة من فيالق الحراسات التي تُعرف بالحراسات الوسطى بمهاجمة المواقع البريطانية، لكنها واجهت مقاومة من قبل فرق الحراسات البريطانية التي اعتمدت غزارة في النيران لم يكن يتوقعها أحد.

حيال كثافة النيران هذه أُجبرت الحراسات الإمبراطورية على التوقف، حين شعر "ويلنجتون" بأن اللحظة الحاسمة تقترب قام بدعوة قادة وحداته بالقول:"الآن حان الوقت لبدء الهجوم". في تلك اللحظة انطلقت جميع الوحدات البريطانية إلى الأمام وكأنها رجل واحد حتى تزعزعت الرغبة الفرنسية بالمقاومة.

ثم انسحبت الحراسات الفرنسية، سرى الخبر سريعًا في صفوف الفرنسيين، والذي قال:"الحراسات تنسحب".. انطلق الصراخ بين جميع الوحدات، لينجو كل برأسه، وبعد لحظات اهتزت المعنويات الفرنسية، تحول الجيش الفرنسي من قوة صلبة مهاجمة إلى مجموعات فارة تحاول النجاة، وانتشر الرعب في صفوف الجيش وتبخرت أدنى مستويات النظام والأداء العسكري.

مطاردة الحلفاء كانت بلا رحمة،وآلاف من الفرنسيين أُضيفوا إلى الأعداد الهائلة من القتلى والمصابين، كما انسحب الإمبراطور شخصيا نحو التشكيلات الخلفية التي أقامتها الحراسات الشخصية، وبعد أن فشل في رفع معنويات المجموعات الهاربة امتطى جواده وفر عبر الحقول مع مجموعة من الحراسات ليضيف بذلك مشهدًا آخر من الرعب والخوف، لقد ترك خلفه سبعة وأربعين ألف قتيل وجريح بين الطرفين.



أحد عشرات الكتب التي تناولت المعركة و نهاية الإمبراطور

هذا المشـهـد المأسـاوي للكارثة الذي بقي في ذاكـرة المشـاركين يتـحـدث عنه الكابتن "ميرسير".

يقـول الكابتن ميـرسير: نظرت من حولي وتأملت سـاحة المعـركة على ضـوء القـمـر الشـاحب، كان الضـوء سـاكنًا وبالغ الوضـوح برغم بعض الغـيـوم التي كـانت تمر عـبـر دائـرة القـمـر، لتـغطي بعض المشـاهد الحـزينة التي كـانت تميـز أنحـاء المسرح القتالي.

كان مشـهـدًا مؤثـرًا أن تقف وسط سكون تلك الليلة لتتـأمل تلك الحـقـول التي أمـضت اليـوم بين ضـوضـاء وصـراخ القـتـال لتـهـدأ الآن بالكامل، كنت أرى هنا

وهناك بعضًا ممن يجولون بين المصابين، وكأنهم يشغلون أنفسهم بعدد من القتلى كثير ممن رأيتهم هناك عند طلوع الفجر كانوا في حال من السكينة والهدوء التي ميزت من رحلوا من قبلهم، بين الحين والآخر كنت أرى من يلملم نفسه وينهض ليعاود السقوط مرة أخرى من شدة الأسى، أما البعض الآخر ممن نهضوا وهم بحالة أشد ربما لأن إصابتهم لم تكن مميتة، فكانوا يسيرون بعيدًا بخطوات متعثرة عبر الحقول إلى حيث لا يعلمون، تبعت الكثير منهم بنظراتي حتى غابوا في ظلمات الأفق، ولكن الكثيرين منهم كانوا يتعثرون.

كانت ملامحهم ضبابية وكأنها أطياف، أيًا كان حجم الهزيمة في "واترلو"، ما كانت لتحطم الآمال الفرنسية.

بعد "واترلو" عاد نابليون إلى "باريس" حيث حاول الاستمرار بالسيطرة على الآلة السياسية، وكاد يستطيع ذلك من وجهة نظري، وهذا رأيي فقط، كان يستطيع الفوز بجانب من معركة "واترلو"، أو ما يمكن تسميته بمعركة "باريس" أيضًا، لأنه بعد وصوله إلى باريس، كان هناك ما يقارب مائة وعشرين ألف جندي فرنسي يتجمعون حول المدينة وفي ذلك وحدات "جراوتشي" التي لم تقاتل هناك، بل كان انسحابهم منظمًا في طريق العودة إلى "باريس".

أما الحلفاء الذين كانوا يطاردون جيش "نابليون" برغم أنه يزداد قوة نتيجة تراكمه المستمر أصبح الحلفاء أضعف منه، بعد ما اجتازوا ذلك السباق عبر فرنسا بعد انتهاء القتال وعند وصولهم إلى باريس كان عدد الحلفاء لا يتعدى ثمانين ألفًا، أعني قوات الحلفاء مجتمعة، بينما يتمتع نابليون بمائة وعشرين ألف رجل.

أما من الناحية المعنوية فالهزيمة كانت تثقل الفرنسيين منذ ليلة الثامن عشر من حزيران-يونيو.

أما من الناحية المادية فلا إذ يمكنهم الاستمرار بالثبات ويمكن أيًا كان أن يؤكد أن الظروف المعنوية هي الحاسمة، حيث إن توحيد القوات والقتال في أراضيهم دفاعًا عن مواقعهم وعاصمتهم بقيادة "نابليون" كان انتقامًا لما أصاب

سمعتهم في معركة "واترلو"، أما الحوار فإنه مازال قائمًا حيث سيستمر على هذه الحال بضع سنوات قادمة.

وتؤكد الأحداث التاريخية أن "نابليون" لم يكن ليُمنح فرصة أخرى، لم يقبل الحلفاء المنتصرون بأي خطأ في المرة الثانية، فتم وضع الإمبراطور على سفينة حربية بريطانية حملته إلى المنفى، هذه المرة إلى جزيرة "سانتا إلينا" القاحلة في الأطلسي حيث أمضى آخر أيامه يفكر في مجده الضائع ويعاود التساؤل ما هو السبب؟ ألم يستولي على "كاتبرا"؟ ألم يصل "جراوتشي"؟ هل انسحب "بروشر" شرقًا؟ تلك هي الأحداث التي كان يعاود الإمبراطور المعزول التفكير فيها مرة بعد أخرى.

لقد ساءت حالته الصحية والمعنوية ولم يعد الإمبراطور المفاخر بنفسه، لكن الأساطير كانت تنمو من حوله رغم انسحاب جنوده الواحد تلو الآخر، أما في فؤاده فقد كان رجلاً تملأه الهزيمة والأسى، ولم يكن يتوقع أبدًا هذا الذل والهوان.

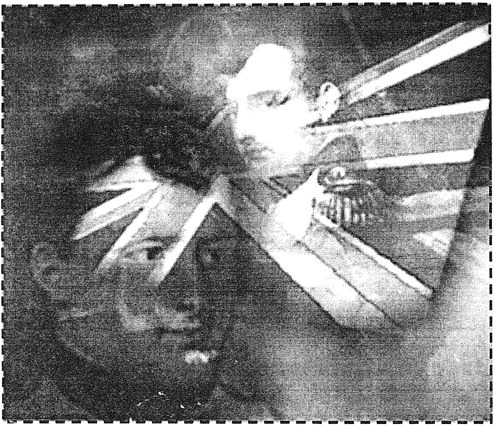
وقبل حوالي عقد من زمن حلول الذكرى المئتين لمعركة واترلو يصدر الكاتب اندرو روبرتس كتابه «واترلو مقامرة نابليون الأخيرة» ليصف به، وبشكل جديد وزوايا نظر مختلفة أشهر، وربما أكبر معركة أرضية خاضها البريطانيون ضد جيش نابليون في تاريخهم الحديث. وصدور هذا الكتاب اليوم يعتبر بداية لمجموعة من الكتب التي ستصدر لاحقا حول هذه المعركة، التي غيرت وجه التاريخ.

يرسم المؤلف لوحة مختصرة ومكثفة عن هذه المعركة، حيث يستغني عن كل التفاصيل غير الضرورية، التي أتت بها الكتب التي تناولت «واترلو» من قبل.

خلال أيام الهروب من «البا» واستعادته لعرشه في مارس (آذار) ١٨١٥ واجه نابليون الكثير من المشاكل والمعضلات العسكرية الكبرى، فقد أعلنت أربع قوى عظمى هي بريطانيا، استراليا، بروسيا وروسيا عن هدفها إطاحته. وبتجمع جيوشهم الكبيرة ضد فرنسا وبسرعات مختلفة لم يبق لدى نابليون غير طريق واحد، هو مقاومتهم بشراسة لدحرهم واحداً تلو الآخر.

وهكذا، ففي الثاني عشر من يونيو اجتاز نابليون الحدود البلجيكية مع (١٢٤)

ألف رجل لمقابلة أقرب الجيشين: الجيش الاتحادي الإنجليزي لدوقية ولنغتون وجيش المارشال بلوثر البروسي. وكان كلا الجيشين يفوق الجيش الفرنسي عددا، لذلك كانت استراتيجية نابليون هي تقسيمهما ثم دحرهما.



نابليون و نهاية مضجعة في ووترلو

وكاد نابليون أن يفلح في خطته فتقدمه السريع نحو بروكسل في الخامس عشر من يونيو باغت ولنغتون وبلوثر، الأمر الذي دعا الأخير لأن يصرخ قائلا: «لقد خدعني نابليون وحق الله» وفي الأيام التالية طارد نابليون البروسيين حتى مدينة ليغني.

ولحسن حظ ولنغتون لم ينسحب بلوثر شرقا باتجاه بروسيا، كما كان نابليون يتوقع، وإنما شمالا لكي يبقى على اتصال مع الجيش الإنجليزي الاتحادي، ثم

كانت هناك ضربة حظ أخرى حظي بها ولنغتون في ذلك اليوم، حينما أوشكت قواته على دحر الفرنسيين في موقع استراتيجي، وهو تقاطع طريق كوارته براس، مما مهد ذلك إلى المواجهة قرب واترلو في اليوم الثامن عشر من يونيو من ذلك العام.

بالنسبة لنابليون، كانت معركة واترلو تمثل سباقاً ضد الزمن فبرجاله الـ (٧٧) ألف مقاتل و(٢٤٦) بندقية فاق رجال ولنغتون البالغ عددهم (٧٣) ألف مقاتل وعدد من البنادق، إلا أن وضعه كان سيتغير اذا ما تدخل البروسيون، وسيكون وضعا حرجا من الناحية العددية، لذلك كان من الضروري الهاء ولنغتون بأسرع ما يمكن، وهكذا اختار نابليون ان يؤخر هجومه حتى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، لكي يكون هناك متسع من الوقت لجفاف الأرض الرطبة. وفي رأي الكاتب، كان هذا هو أول خطأ من جملة الأخطاء الفرنسية التي ارتكبت.

أما الأخطاء الأخرى فتتضمن خطأ المارشال غروشيه، وهو أحد قادة نابليون، حينما تقدم نحو واترلو من دون استشارة القيادة، عند سماعه أول صوت من أصوات المعركة، كذلك خطأ استخدام المدفعية لاختراق حصن شاتو في هوغرمونت، أحد مفاتيح ولنغتون.

ثم إن نابليون ومساعده قررا شن الهجوم أولا بالمشاة، من دون دعم سلاح الفرسان وسلاح المدفعية، وبعد ذلك بسلاح الفرسان فقط. وكما اتضح أخيرا، فإن الهجوم الأخير الذي تم بواسطة عشرة آلاف فارس كان قد شن عن طريق الصدفة.

ورغم وصول أوائل البروسيين عند وقت الظهر، فإن القتال كان لم يزل متعادلا عند الساعة السادسة والنصف مساء، حينما حاول الفرنسيون أخيرا الاستيلاء على حصن مزرعة سانت لاهايه، وكما يدون الكاتب، فإن تلك اللحظة كانت «أخطر لحظة في كل المعركة بالنسبة لولنغتون»، فلو أن نابليون أطلق حرسه الإمبراطوري الشديد المراس في تلك اللحظة، بدلا من إطلاقه بعد نصف ساعة على ذلك، لربما استمر في سيطرته وربح المعركة لذلك اليوم.. إلا أنه لم يفعل، وهكذا أخذ تدفق البروسيين يستمر على أرض المعركة وأصبح

اندحار نابليون مؤكدا. وحينما خيم الليل كان هناك (٧١) ألف إصابة من جميع الأطراف، تئن على أرض معركة لا تتجاوز مساحتها غير ثلاثة أميال عرضا، وميل واحد عمقا. وفي الظلام قتل العديد من الجرحى على أيدي البلجيكيين المدنيين وتم سلبهم.

وبعد ما يقرب من مائتي عام على انتهاء معركة واترلو، لم يزل إلى الآن عدد من العسكريين والمؤرخين يطرحون السؤال المهم التالي: هل حقا أن واترلو غيرت وجه التاريخ؟ والمؤلف أندرو روبرتس يعترف بأنه حتى لو قدر لنابليون أن يربح تلك المعركة، فإنه «عاجلا أم آجلا سيدحر على أيدي واحد أو أكثر من الجيوش الروسية، الاسترالية أو البروسية الجرارة، التي كانت مجتمعة على فرنسا».

ثم يؤكد على أن واترلو قد «أنهت التفوق العسكري الفرنسي»، وفي نفس الوقت التبشير و«البداية الحقيقية للإمبراطورية البريطانية الحديثة».

ولا يزال الحديث عن هذه المعركة الشهيرة دائرا حتى يومنا هذا. وبعيدا عن التاريخ والمؤرخين، قال علماء بريطانيون في دراسة نشروها في عام ٢٠٠٥، إنه يمكن للأطباء الاستفادة من معركة واترلو في الحد من عدد الوفيات التي تحدث نتيجة لفشل وظائف الأعضاء وهو السبب الأول في حالات الوفاة في غرف العناية المركزة.

وتبحث الدراسة التي يعدها علماء من يونيفرسيتي كوليدج في لندن أسباب وفاة بعض المرضى نتيجة لفشل الأعضاء.

ويقول البروفسور ميرفين سنجر إن الاحصاءات الخاصة بمعركة واترلو يمكن أن تكون مفيدة في هذا الصدد.

وأضاف أنها تبين إن للجسد البشري قدرة على علاج نفسه في ظل ظروف صعبة.

فمن بين ٥٢ جنديا أصيبوا بضربات سيوف أو طلقات الرصاص تُوفي اثنان فقط منهم.

ويقول البروفسور سنجر: "بالرغم من عدم وجود المضادات الحيوية وعمليات

نقل الدم والأجهزة الحديثة، تعافى أغلب الجنود من إصابات أغلبها خطيرة. ونحن مع كل التقدم التكنولوجي، لم نستطع تقليل الوفيات نتيجة الإصابة ببعض الأمراض مثل بكتيريا التعفن في مجرى الدم.

ويضيف: "السؤال الذي يجب أن نوجهه إلى أنفسنا هو هل يقودنا فهمنا الحالي إلى الطريق الخطأ؟ وهل تعد بعض الاختراعات الحديثة خطرا على عملية العلاج؟".

وقال إن بعض طرق العلاج الحديثة تسبب تغيرا في الأنظمة الحيوية والجهاز المناعي لدى المريض بطرق غير مرغوبة.

وأوضح البروفسور سنجر أنه يمكن أن يكون "خفض درجة حرارة مريض مصاب بالحمى ضد مصلحته".

وقال إنه يجب وضع العلاج طبقا لرد فعل الجسم الطبيعي على البكتيريا والأمراض الأخرى.

بل إن إحصاءات الناجين من الحرب قد تخرج بنظرية أكثر ثورية، وهي أن حالات الغيبوبة الشديدة وما قد يليها من عدوى ربما تمثل محاولة من الجسد للبقاء على قيد الحياة.

ويرى مؤيدو هذه النظرية إن الغيبوبة تشابه السبات الشتوي الذي تقوم به بعض الحيوانات.

وما يدعم هذه النظرية أن أعضاء الجسد المصابة تعود إلى العمل بشكل طبيعي بعد أيام أو أسابيع.

وسيقوم الفريق باجراء دراسة لمعرفة أسباب الوفاة الناتجة عن بكتيريا العفن المسؤولة عن ثلث حالات الوفاة داخل غرف العناية المركزة، وطرق العلاج التي يمكن استخدامها لتقليل معدلات الوفيات.

وتشير الدراسات الأولية إلى أن قدرة الجسد على تخزين واستخدام الطاقة بكفاءة ربما تلعب دورا في تحديد ما إذا كان المريض سيتعافى.

ويعتقد العلماء أن الهرمون المسؤول عن تنظيم وزن الجسم والجوع وعملية التنظيم الغذائي يلعب دورا هاما.

ويقول جلين المشارك في الدراسة: "نعتقد أن بعض المرضى المصابين بهذا النوع من البكتيريا يعانون من نقص في هرمون ليبتن مما يؤدي إلى ضعف في الطاقة والذي يؤدي بدوره إلى حدوث فشل في وظائف الأعضاء".

وأضاف أن دراسة العلاقة بين مستوى الطاقة في الجسم وهذا الهرمون ومدى خطورة الحالة يمكن أن يكشف عن علاج جديد لمرضى بكتيريا التعفن".

■ ■ ■

5

نهايةٌ مأساويةٌ لقائدٍ عسكريٍّ كبيرٍ



١

وثيقة الاستسلام
الإمبراطور يقرّ بالهزيمة !!

بعد حياة سياسية وعسكرية حافلة حكم فيها نابليون بونابرت أوروبا كلها تقريبا، استسلم بشكل مفاجئ للقوات البريطانية، وسلم نفسه طواعية، وفي ١٤ يوليو ١٨١٥ كتب للوصي على العرش الذي كان يحكم بريطانيا:

"يا صاحب السمو الملكي. ..

نظراً للنزاعات التي استنزفت بلادي، واختلاف القوى الكبرى في أوروبا قررت أن أنهي كل عمل لي في مجال السياسة وإنني آت لأقيم في بيت الشعب البريطاني لأنعم بالدفء بينه.

إنني أضع نفسي تحت حماية قوانينكم التي أناشد سموكم الملكي باعتباركم أكثر أعدائي قوة وعزما وكرما أن تمنحوني حمايتها ".

احتارت الحكومة البريطانية في أمر نابليون وفكرت في إعدامه، لكنها قدرت استسلامه طواعية وقررت نفيه في مكان لا يستطيع الهرب منه ولا يكلفها الكثير، فاختارت نفيه إلى جزيرة سانت هيلانا على بعد نحو ١٢٠٠ ميل من غرب إفريقية. إنها جزيرة بعيدة وإحدى المستعمرات البريطانية.

ولكن كيف يتم نفي إمبراطور بحجم وشهرة ومكانة نابليون بونابرت ؟

لقد كاد نابليون أن ينهار عندما علم أنه قد حُكم عليه بما اعتبره موتا رغم أنه يتنفّس، فاعترض بشدة لكنه استسلم عندما رأى أنه لا جدوى من ذلك. ومُنِح عدة مزايا، فقد سُمِح له باختيار من يرغب من أصدقائه ليصحبوه وبالفعل

سافر معه بعض أقرب أصدقائه وأتباعه وحوالي ثلاثين من الخدم.

وأقام نابليون في بيت ريفي ضخم في تلك الجزيرة النائية المعزولة عن العالم وكان تعداد سكانها لا يتعدى الخمسة آلاف. وخصص لنابليون ست غرف: غرفة انتظار واسعة للزوار وحجرة مؤدية إليها وردهة وغرفة نوم وغرفة دراسة ومكتبة وغرفة طعام واسعة. وكانت الجدران مغطاة من الداخل بكانافا مشبعة بالقار.

وذكر بعض المؤرخين بعد ذلك أن هذا الدهان كان به نسبة عالية من الزرنيخ مما أدى إلى تسمم نابليون وإصابته بسرطان المعدة، وكانت طريقة تغطيتها أنيقة، وكان هناك نوافذ كثيرة.

وقبل نابليون هذا دون شكوى مبدئيًا، بل إنه كان سعيداً بالحمّام الذي وصفه بأنه فخم مترف بطريقة لم يُسمع عنها في هذه الجزيرة البائسة. وقد ذكر مساعدو نابليون أنه كان راضيا عن كل شيء.

أما الجناح الآخر من الغرف المشيّدة فقد هيِّئت لأصدقائه وللخدم.

وكان لنابليون حرية الحركة - على قدميه أو راكباً حصانا أو في عربته في حدود دائرة نصف قطرها خمسة أميال من البيت الذي يُقيم فيه، لكن كان لابد أن يخضع لمراقبة صارمة من الجنود الإنجليز.

واعتاد الإمبراطور أن يأكل بمقادير ضئيلة حتى الساعة الثامنة مساء ثم يتناول هو ومن معه عشاءهم بتروٍّ مما يجعله - بعد العشاء - مستعدا للنوم.

وكان نابليون قد أحضر معه من فرنسا أدوات مائدة مُترفة غالية الثمن. وكان يستخدمها بانتظام بل إنه جلب معه سكاكين وملاعق وشوكات من ذهب.

أما الأطباق فكان غالبها من خزف البورسلين. وكان الخدم يرتدون ملابسهم الرسمية الخضراء المحلاة بالذهب كاملة.

وكان الجميع مبهورين بأناقة أدوات المائدة والطريقة الممتازة التي تنظّم بها موائد الطعام. لقد استمر الإتيكيت الذي كان معمولا به في فرنسا.

وسمح نابليون لأصدقائه المخلصين بالحديث معه بكثير من الصراحة لكنه

لم يُزل الكلفة بينه وبينهم، فقد كانوا دائما يشيرون إليه في حديثهم بالإمبراطور، وكانوا يخاطبونه بصاحب العظمة.

وكانت الخطابات التي توجه إليه كجنرال لا يتم فضّها، وكان على الزوّار أن يخاطبوه كإمبراطور أو أن يمكثوا بعيدا عنه. لقد استصحب نابليون معه كبره وغطرسته في سجنه الأخير.

ولكن استوطنت الفئران في منزل الإمبراطور، بل وحتى في قبعته، وكانت تجري حول أرجل المائدة وهو يتناول طعامه، ولم تكن البراغيث ولا البق لتميز بين الخدم والإمبراطور. وكان الضباب المسبب للكآبة يَعُم المنطقة يوما بعد يوم، وكان الماء يسقط أحيانا وافتقد الإمبراطور حمامهُ الدافئ.

وأدت المراقبة الدائمة - مهما كانت مهذّبة أو من بُعد - إلى اعتكاف يشبه اعتكاف الرهبان في الدير.

ولقد كان الأمر المثير والداعي إلى الدهشة في حياة المنفى تلك، الإخلاص الدائم والعميق لهؤلاء المساعدين الذين صحبوا نابليون إلى سانت هيلانا.

وبالرغم من أن زهو وعطر الشهرة المُسْكر قد حفزهم على المزيد من خدمته، لكن إصرارهم على هذا ومثابرتهم عليه رغم قيود المنفى وقسوة الحياة فيه وكونهم فعلوا هذا باختيارهم المحض، كل هذا يكشف طبيعة النفوس التي اعتادت على ذل التبعية والخدمة، حتى صاروا يخدمون سجينا لا حول له ولا قوة وبكل أمراضه وضعفه البشري.

■ ■ ■

٢

نابليون في المنفى
شقاء ما بعده شقاء !!

لقد تردَّتْ أحوال نابليون بعد السنة الأولى في المنفى، وصار شكله شيخا هرما رغم أنه كان ما زال في الأربعينيات من عمره، وأخذ الملل يتسرب إليه، والضجر يملأ حياته وإن من أشق الأمور على الإنسان أن يتذكر أيام سعادته السابقة وهو في الشقاء. ولم يكن ثمة ما يحول بين نابليون وتجرع ذكريات الماضي الحافل، لقد كان لديه الوقت كاملا لهذا العذاب النفسي.

وصف نابليون في بعض مذكراته التي أملاها على مساعديه حالته النفسية فقال "... كيف سقطت؟! أنا - الذي كان نشاطي لا حد له.. أنا الذي لم أخلد للراحة! أيصبح هذا حالي؟ كسولا بليدا خَدِرا! لقد أصبحت أبذل جهدا لأرفع الجفن عن عيني، لقد كنت في بعض الأحيان معتاداً أن أُملي في مختلف الموضوعات على أربعة أو خمسة من السكرتيرين يكتبون بالسرعة نفسها التي بها أتحدث، لكنني كنتُ وقتها نابليون.. أما الآن فأنا لا شيء.. إنني حي لكنني ميت".

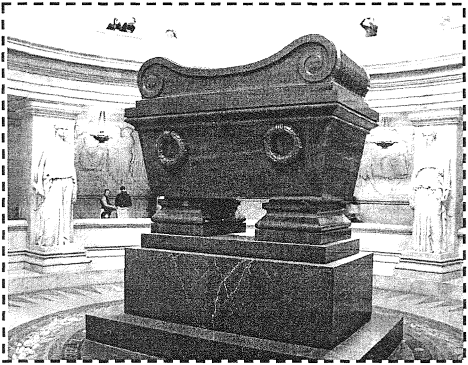
إن الاطلاع على نهاية نابليون البائسة، بعد حياته ومعاركه وانتصاراته وحكمه وإمبراطوريته وقصوره وثرواته وأحلامه وغروره ودهائه ومغامراته، ليكشف زيف هذه الدنيا وأنها مجرد زينة لا تلبث أن تزول وتنزوي. إن خداع بهرجة الدنيا وزخارفها أخطر ما يمكن لأي إنسان أن يسقط فيه.



نابليون في منفاه

أريد أن ادفن على شواطئ نهر السين قريبا من الشعب الفرنسي"تلك كانت وصية نابليون بونابرت قبيل وفاته منفيا في جزيرة سانت هيلانة في تمام الساعة الرابعة من صبيحة الخامس من مايو ١٨٢١.

وبالطبع لم يكن الإمبراطور السجين وحده في منفاه بل كان محاطا بنوعين من الخلطاء بعضهم حاشيته وخدمه الذين فضلوا البقاء مع زعيمهم حتى آخر لحظة بعد نفيه على متن الباخرة نورتمبرلاند في السابع من أغسطس عام ١٨١٥، وجلهم من سجانيه الإنجليز وبينهم طبيبه الخاص والمشرف على منفاه.



مقبرة نابليون

حقيقة أسباب موت الإمبراطور الذي أقام الدنيا وأقعدها لا تزال سرا غامضا يتراوح بين الإصابة بسرطان الرئة والموت بجرعة سم دسته له أيدي سجانيه بأمر مباشر من لندن.

وعلى الرغم من الجدل الدائر في أوساط علماء التاريخ عن سبب الوفاة إلا

أن لغز الجثة وما تحمله من إهانة لمشاعر الفرنسيين أصبح يعرف اليوم بأنه أحد أكبر ألغاز التاريخ الحديث.

فالفرنسي الذي اعتاد معرفة أن قبة مبنى الانفاليد تضم تحتها رفاة أعظم قادة التاريخ الفرنسي أصبح اليوم في حيرة من أمره بعد أن نشر برونو رواهنري كتابه "جثة الإمبراطور" والذي سخر فيه من عملية نقل الرفاة التي تمت بمراسيم إمبراطورية في الخامس عشر من ديسمبر عام ١٨٤٠.

ورواهنري ليس هاويا للتاريخ وغرائبه فحسب ,بل إنه واحد من أكثر مؤرخي فترة الثورة الفرنسية شهرة وذلك لمعرفته الغزيرة والموثقة بتلك الفترة وما انطوت عليه من أسرار وتقلبات.

يقول رواهنري إن الجثة التي نقلت من سانت هيلانة إلى باريس لا يمكن أن تكون جثة نابليون لسببين: أولهما أن الجثة المزعومة جاءت محافظة على هيئتها وكأنها محنطة ,في حين أن تلك الفترة لم تشهد أي ممارسة للتحنيط.

والسبب الآخر هو أن خدام الإمبراطور وحاشيته دونوا في مذكراتهم ملاحظات واضحة عن تحلل الجثة الحقيقية بعد فترة وجيزة من الوفاة بسبب حرارة الطقس في تلك الجزيرة النائية. أما القول بأن التابوت الخاص الذي أُعد من الحديد الأبيض لحفظ جثة نابليون طوال عشرين سنة فإنه رأي يمكن تفنيده ببساطة لأن تحلل الجثث لا يمكن إيقافه إلا باستخدام المواد الكيميائية أو الجليد.

إذا ما الذي حدث بالضبط؟ يقول رواهنري: لقد زور الإنجليز الجثة باستخدام الشمع ببراعة مثلما حصل حديثا مع جثمان جون كنيدي عندما عمدت جهات معينة لإظهار صور لكيندي القتيل تناقض حقيقة الإصابات القاتلة وإصابتها في الرقبة.

ولكن كيف يمكن أن يتأكد الفرنسيون من حقيقة دفين الانفاليد.. هل هو نابليون أم غيره؟؟

يؤكد المهتمون بالأمر إن أفضل وسيلة هي إجراء فحص الحمض النووي

DNA لما تبقى من عظام الإمبراطور

ومؤخرا، قال علماء إيطاليون إنهم أثبتوا أن نابليون بونابرت لم يمت مسموما واضعين بذلك حدا للأسطورة القائلة بأن السجانين البريطانيين دسوا السم القاتل للإمبراطور الفرنسي في منفاه.

وكان تشريح جثة نابليون قد أثبت أنه توفي جراء إصابته بسرطان المعدة عن ٥١ عاما ولكن النظرية القائلة بأنه اغتيل لمنعه من العودة للسلطة اكتسبت مصداقية على مدى العقود الأخيرة حيث أشارت بعض الدراسات إلى أن جثته كانت تحتوي على نسبة عالية من سم الزرنيخ.

وقال باحثون في جامعة بافيا بعد أن أخضعوا للتدقيق نظرية قتل البريطانيين لنابليون عندما كان منفيا في جزيرة سانت هيلانة جنوب المحيط الأطلسي في عام ١٨٢١ "لم يكن سم الزرنيخ هو الذي قتل نابليون في سانت هيلانة."

وأظهر البحث الإيطالي الذي شمل فحص عينات من شعر نابليون في فترات مختلفة من حياته كانت محفوظة في متاحف بإيطاليا وفرنسا أن جثة الإمبراطور الفرنسي كانت بها نسبة عالية من الزرنيخ بالفعل ولكن جسمه تسمم بالزرنيخ بمعدل خطير منذ كان صبيا.

واستخدم العلماء مفاعلا نوويا لتعريض عينات الشعر للإشعاع بهدف الحصول على قياس دقيق لمستويات الزرنيخ.

وبفحص عينات الشعر التي أخذت من العديد من معاصري نابليون بمن فيهم زوجته وابنه اكتشف الباحثون أن مستويات الزرنيخ كانت أعلى بشكل عام مما هي عليه اليوم.

وقال الباحثون في بيان نشر على موقع الجامعة على الإنترنت "الخلاصة هى أنه لم يحدث تسمم في اعتقادنا لأن عينات شعر نابليون تحتوى على نفس كمية الزرنيخ التي تحتوي عليها عينات شعر معاصريه."

وكشفت الدراسة أن عينات الشعر التي أُخذت من أشخاص عاشوا في أوائل القرن التاسع عشر احتوت على زرنيخ أكثر ١٠٠ مرة من متوسط المعدلات

الحالية. ويلقى باللائمة في ارتفاع معدلات العنصر السام في البيئة على الغراء والأصباغ التي كانت شائعة الاستخدام في ذلك الحين.

وقال العلماء "تسببت البيئة التي عاش فيها الناس أوائل القرن التاسع عشر بشكل واضح في امتصاص كميات من الزرنيخ تعتبر خطيرة بمقاييس اليوم."

وهكذا الدهشة لاتنتهي: كيف يكون هناك دائما جديد عن نابليون أو لنابليون؟ ولكن هذه هي الحقيقة الباهرة.

فآخر ما صدر عن نابليون كتاب عنوانه: هل مات نابليون مسموما - أي أن الإنجليز هم الذين وضعوا له الزرنيخ يوما بعد يوم حتى مات.. إن الدراسات في الأعوام الثلاثين الماضية تؤكد ذلك.

أما الجديد لنابليون فهو أن خطابات له سوف تباع اليوم في مزاد علني.. هذه الخطابات قد كتبها بيده للحاكم الإنجليزي لجزيرة سانت هيلانة التي نفي فيها نابليون. وفي هذه الخطابات يطلب استيراد بيانو وبعض النوتات الموسيقية. لمن؟ لسيدة اسمها البين تركت زوجها دوق مونتلون وجاءت مع نابليون في منفاه. إنها عشيقة نابليون.

وليس معروفا عن نابليون أنه يحب الموسيقي أو الطرب. ولكن نابليون أراد أن يدخل السعادة علي قلب العشيقة. ولم يشأ حاكم الجزيرة أن يجيبه إلى طلباته المتكررة. فقد خشي أن يحتوي البيانو علي رسائل خاصة لنابليون. تساعده علي الهرب كما هرب قبل ذلك من جزيرة ألبا.. كما رفض الحاكم أيضا إحضار متعلقات نابليون من الكتب والآنية من الفضة أو الكريستال والأثاث أو الهدايا التي تلقاها..

وبعض هذه الخطابات كان يوقعها نابليون بحرف النون أو بكلمة (نابو).. ولكن الخطاب الذي طلب فيه البيانو قد وقعه بالاسم كاملا.. فصار وثيقة نادرة تستحق مئات الألوف من الجنيهات لتتصدر متاحف السياسة الحديثة أو المكتبات الخاصة.

ويرى بعض المؤرخين أن الكونت مونتلون زوج عشيقة نابليون قد اشترك في

التآمر علي حياته. ويقال إنه هو صاحب فكرة وضع الزرنيخ اليومي في طعام نابليون ويقال إن الزوج المهجور قد لمح لزوجته بأن نهاية نابليون سوف تكون على يديه. ولم تصدقه الزوجة. فلم تكن تعرف كيف ينال نابليون بسوء.

وبعض الأطباء رأي أن نابليون مات بسبب الدوسنتريا الأميبية.. فلم يكن نابليون سعيدا ولا حياته صحية ويكفي أن نتصور أنه عندما كان يجلس إلى الطعام كانت الفئران تقفز على ساقيه وعلى المائدة.. فلابد أنها نقلت إليه المرض.. ولكن من المؤكد الآن أنه مات مسموما وآخر كلماته هذه العبارة: هاتوا لها بيانو يا أولاد.

■ ■ ■

6

نابليون...
والإسلام واليهود



١
اسم الإمبراطور الجديد
علي نابليون بونابرت

في عام ١٧٩٨ بعد بدء حملة نابليون بونابرت على مصر بسنة واحدة، نشرت صحيفة لومونيتور الفرنسية خبرا مثيرا ذكرت فيه أن الامبراطور الفرنسي اعتنق الدين الإسلامي، وغير اسمه إلى "علي نابليون بونابرت"، كما أقنع الجنرال جاك مينو، أحد جنرالات جيشه باعتناق الإسلام، وأشرف شخصيًا على نطقه بالشهادتين.

وقصة اعتناق جاك مينو الإسلام معروفة، فقد غير اسمه إلى عبد الله مينو، وتزوج فتاة مصرية اسمها الست زبيدة يتصل نسبها بنسب آل البيت، وسافرت معه إلى فرنسا بعد انتهاء الحملة الفرنسية، ولكن.. هل اعتنق نابليون الإسلام بالفعل؟

صحيفة لومونيتور التي نشرت الخبر يمكن اعتبارها مصدرا موثوقا به، فقد كانت الصحيفة الرسمية الناطقة بلسان الدولة، والأخبار التي تنشرها تعبر عن وجهة نظر الدولة، وما كانت الصحيفة تنشر خبرا في مثل هذه الأهمية عن الإمبراطور الفرنسي الذي كان في أوج قوته وعظمته في ذلك الحين إلا إذا كان الخبر صحيحا.

وأخيراً، وبعد مرور السنين الطويلة، ظهرت الحقيقة ساطعة كالشمس، فقد ظهرت مذكرات (نابليون بونابرت) التي ادعى البعض أنها اختفت، ولا يمكن العثور عليها! وقامت الكاتبة الفرنسية "كريستيان تشير فيلز" بإخراجها إلى الهواء الطلق ليراها الجميع، حيث كشفت الباحثة الفرنسية- في مقدمة الكتاب أن بونابرت (-١٧٦٩ ١٨٢١م) أسيء فهمه، ولُفّقت ضده الاتهامات تبريراً لعزله

ونفيه! وأوضحت أنه أعلن إسلامه، وأنه كان معجباً بنبي الإسلام أيما إعجاب، مما جعله يسهب الحديث عنه في مذكراته، فتحدث عن سياسته العامة تجاه الرعية، وغزواته، وانتصاراته، وشريعته، ووسطية دينه، إلخ. وقالت الباحثة: إن بونابرت قائد عسكري وإمبراطور فرنسي، خاض معارك كثيرة ضد إيطاليا، وبريطانيا، وروسيا، وانتصر في أربعين منها، وكان رافضاً للكاثوليكية، مما جعله يدمر مقار البابوية. ولما غزا الشرق كان يبحث عن مكاسب متبادلة لفرنسا، ولدين مثالي لها، من أجل أن يقود قطاراً يتوقع له النجاح.

وكان في مصر يتردد إلى المسجد في أيام الجمعة ويسهم بالشعائر الدينية التقليدية بالصلاة، وكوّن نابليون ديواناً استشارياً مؤلفاً من المشايخ والعلماء المسلمين.. وينسب لنابليون الفضل في صدور القانون المدني الفرنسي والذي اقتبسته باقي الدول الأوروبية. وبالنسبة للحكم الذي كوّنه بونابرت عن شخصية الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، لا يوجد أي احتمال لأدنى ريب حوله، فكان يؤمن بأن محمداً كان أكثر الأنبياء قدسية، وأكثر فاعلية.

وجاء في البيان الذي ألقاه بونابرت أمام العلماء والأئمة وقيادة الانكشارية: "أؤكد لكم أنني أحب الإسلام، وأبجّل الرسول، وأحترم القرآن.. وهذه الخدمات والمزايا التي أغدقها عليكم بسبب حبي للرسول أكرم خلق الله كلهم.

وقد وعدتُ بأمرين لهما أهمية كبيرة، الأول: أن يُبنى في القاهرة مسجد عظيم لا يرى الإنسان نظيراً له في أي مكان في العالم. ثانياً: أنه سوف يُعلِم كل إنسان بدخوله في دين محمد الذي اختاره الله».

ويحدثنا المؤرخ المصري الجبرتي في كتابيه (عجائب الآثار) (الآثار ومظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس) أن المستعمرين الفرنسيين عندما احتلوا مصر بقيادة نابليون بونابرت انكمش الصوفية وأصحاب الموالد فقام نابليون وأمرهم بإحيائها ودعمها.

قال: "وفيها (أي سنة ١٢١٣هـ في ربيع الأول):سأل صاري العسكر عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كعادتهم فاعتذر الشيخ البكري بتوقف الأحوال وتعطل

الأمور وعدم المصروف فلم يقبل.وقال (لابد من ذلك).

وأعطى الشيخ البكري ثلاثمائة ريال فرانسية يستعين بها فعلقوا حبالا وقناديل واجتمع الفرنسيس يوم المولد ولعبوا ودقوا طبولهم وأحرقوا حراقة في الليل وصواريخ تصعد في الهواء ونفوطاً . ولعل سائلا يسأل ما هدفهم من تأييد ودعم مثل هذه البدع وهذه الموالد؟

وندع الجواب للمؤرخ الجبرتي المعاصر لهم حيث يقول في تاريخ عجائب الآثار:

"ورخص الفرنساوية ذلك للناس لما رأوا فيه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء واتباع الشهوات والتلاهي وفعل المحرمات ".

ومن المعروف عند الجميع أن نابليون في أول حملته على مصر كان يتودد ويتقرب للمسلمين.

وبعد مرور قرنين من الزمان يعتقد بعض الفرنسيين أن الإمبراطور نابليون بونابرت أسلم قبل موته ,حيث يؤكد الكاتب الفرنسي كريستيان شيرفيس في كتابه "بونابرت والإسلام"والذي نشر عام ١٩١٤ على أن نابليون مات مسلمًا, مستشهدًا بأجزاء من مذكراته في جزيرة سانت هيلانة.

يقول فيها: "أنا نفسي مسلم موحد بالله وأؤمن بالرسول محمد وأتمنى ألا يتأخر الوقت لكي أتمكن من توحيد الحكماء العارفين في بلادي ,وأن أقيم نظامًا متسقا يقوم على مبادئ القرآن وهو الوحيد القادر على إسعاد البشر".

ويؤكد الكاتب أنه بخلاف الرأي القائل بأن نابليون أعلن اعتناقه للإسلام كمناورة سياسية أثناء وجوده في مصر ,فقد اعترف بهذه الشهادة أثناء انهياره التام في منفاه ,ولم يكن في حاجة لقول ذلك ,بل لخّص ببساطة الإسلام قائلاً:

"إنه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله!".

ولكن لويس أنطوان فوفوليه دي بوريان، سكرتير نابليون، يحاول في المذكرات التي كتبها عن عمله مع الإمبراطور الفرنسي، أن يقلل من أهمية الخبر، ويقول:

"صحيح أن نابليون كان، أثناء وجوده في مصر، يتحدث كمسلم، ولكنه كان يفعل ذلك لأسباب سياسية، بهدف استمالة المصريين. وكان يشعر بالرضا عندما يكتشف أن الكلمات التي يقولها عن الدين تتحول إلى قصائد شعرية، ويتناقلها الناس على نطاق واسع".

ويعترف سكرتير نابليون أن إمبراطوره كان يناقش الفقه الإسلامي مع علماء الأزهر ورجال الدين، وأنه كان يتحدث كمسلم، ويجمع المؤرخون على أنه كان شديد الإعجاب بالشريعة الإسلامية، إلى درجة أن معظم مواد قانونه الذي عرف باسم "قانون نابليون" مستمد من أحكام الإمام مالك، ورغم أن الحكومات الفرنسية المتتابعة حاولت حذف كل ما له علاقة بالشريعة الإسلامية من قوانينها إلا أن القانون الذي طبقته في حادث مصرع الأميرة ديانا ودودي الفايد في النفق الباريسي، بالنسبة للمصورين الصحافيين، يستند إلى الشريعة الإسلامية.

فالقوانين الغربية العلمانية لا تجرّم الذي لا يتحرك لنجدة مصاب مثلا، ومع ذلك فإن المحاكم الفرنسية اعتبرت المصورين الصحفيين مدانين لأنهم لم يفعلوا شيئا لمساعدة ديانا وصديقها في اللحظة الحرجة، وهذا الحكم مستمد من الإمام مالك.

ويقول سكرتير نابليون إن إمبراطوره ناقش، في عدة مناسبات، مسألة اعتناقه الدين الإسلامي مع رجال الدين في مصر، أثناء وجوده فيها وظهر في مناسبات عامة بالزي الذي يرتديه رجال الدين المسلمون.

ولكنه يؤكد أنه لم يدخل مسجدا، ولم يحفظ شيئا من القرآن الكريم، كما يقول بعض المؤرخين، ويضيف: "لا أذهب إلى حد القول أن نابليون لم يكن على استعداد لاعتناق الدين الإسلامي إذا كان الشرق الأوسط هو الثمرة".

نعود ونتساءل: هل اعتنق نابليون بونابرت الدين الإسلامي؟ وهل هذا هو السبب في العداء البريطاني الشديد له في السنوات الأخيرة من حكمه؟

■ ■ ■

٢

نابليون واليهود وآل روتشيلد

هناك من الفرنسيين من يتهم اليهود من خلال آل روتشيلد و هم العائلة الصهيونية الكبرى التي أسست الإمبراطورية المالية وسيطرت من خلالها على العالم، بالانقلاب على نابليون، والتحول لتدميره، بعد أن أسسوا إمبراطورية الخفاء التي لا تقهر، وجيش من العملاء اليهود في الدول الأوروبية سمح لهذه الإمبراطورية بألا تغيب عنها شاردة ولا واردة في قصور أوروبا وجيوشها ومؤسساتها، وبعد أن أسسوا ثروات ضخمة أكبر من إمكانات دول في زمانها.

ويقولون إنه ما أن اعتلى ناثان روتشيلد الخبيث الماكرعرش الإمبراطورية الماسونية، فبدأ وإخوته تنظيم أعمالهم التجارية والسرية المريبة بتضامن تام، ومنذ العام ١٨١٢ كانت أعمالهم ضخمة جدا، وعلاقاتهم التجارية متينة، على درجة جعلت منافستهم مستحيلة، ويعزى نجاحهم إلى الفوضى التي سادت العالم حينذاك.

وكانت خططهم لتدمير العالم المسيحي، ولقتل أكبر عدد من المسيحيين، ولتملك العالم قد وضعت منذ العام ١٧٧٨ وما كان ينقص سوى السير على خطاها.

في تلك الأثناء كان جيش نابليون الضخم قد زحف إلى قلب روسيا، ولم يصطدم به الروس إلا في معارك غير حاسمة، متراجعين أمامه دون أن يسمحوا له بخوض معركة حاسمة كان قد أعد لها، ودخل موسكو التي لم تلبث النيران أن أحرقتها فاضطر إلى العودة.

سلك الجيش غافلا نفس الطريق الذي جاء منه، مع عجز تام في التموين الذي كان بسبب سوء تنظيم الروتشلديين له عن سوء نية، فضلا عن هجمات

الفرق الروسية التي لم تتقطع، فخسر جزءا كبيرا من جيشه، فيما كان عملاء اليهود في بولندا ولتوانيا يقومون بقتل كل من يقع تحت أيديهم من الجرحى ومتضرري الصقيع بكل قسوة، وبذلك قتل مئات الآلاف من المسيحيين.

والغريب في الأمر كما قال المؤرخ الفرنسي ريفز: (كان الروتشلديون يمدون جيش نابليون بالمؤن والعتاد، وفي الوقت ذاته كانوا يقومون بمد خصومه، وهم على استعداد للثراء على حساب الأعداء والأصدقاء على حد سواء).

وصل جيش نابليون المنهك إلى قلب أوروبا وكان جيش القيصر في أثره يطلبه، ورددت أوروبا أصداء النصر، وانطلقت الدعوات فيها لكي تهب الجيوش والشعوب ضد الطاغية الذي أذلها، فتحولت أوروبا إلى أرض معادية، فحماس الشعوب كان أقوى من حماس الملوك للقضاء عليه.

وتكون الحلف الروسي البروسي النمساوي في الشمال، فيما كانت الجيوش الإسبانية البريطانية تتحرك في الجنوب. وكان نابليون يبحث عن نصر مًّا يقلب به موازين القوى ويستعيد هيبته، في حين كان الحلفاء يرون أن نابليون فقد كل مقومات النصر مما أطال أمد الحرب.

وفي ليبزج (أو معركة الشعوب) في ١٦أكتوبر١٨١٢ كانت هزيمة نابليون الكبرى، إذ بدأت بعدها جيوش الحلفاء زحفها إلى داخل فرنسا من الشمال فيما كانت الجيوش الإسبانية البريطانية تغزوها من الجنوب (والذي يذكرنا بما حدث في العراق).

وقد قاوم الشعب الفرنسي بضراوة دفاعا عن أرضه، لكن تفوق الحلفاء جعل نابليون يقبل نصيحة مارشالاته وتنازل عن العرش لابنه ملك روما، وغادر فرنسا إلى جزيرة (ألبا) الإيطالية محتفظا فيها بلقب الإمبراطور في العام ,١٨١٤

ولكن لم يلبث طويلا ليعود إلى فرنسا لينقذها من لويس الثامن عشر البوربوني الذي عاد في ركاب الحلفاء ليحكم فرنسا بعد نكبتها بدعم من الإنجليز والبروسيين والنمساويين، عاد نابليون إلى فرنسا لينقذها من عار الهزيمة، عاد وقد وجد دعما من الشعب الذي لم يتقبل عودة البوربون الذين ثار

عليهم وطردهم ليعودوا على أسنة رماح الغزاة.

ولقد كانت عظمة نابليون المهزوم تتفوق على عظمة الملوك والقياصرة المنتصرين. وبذلك أعطى الشعب الفرنسي الجريح لنابليون الفرصة مرة أخرى، فترددت أنباء انتصاره على جيش بلوخر البروسي، ولكن لم يلبث بلوخر أن جمع جنده لاحقا بالقوات الإنجليزية بقيادة ولنجتون، فكانت معركة واترلو الشهيرة في العام ١٨١٥.

يقول فيكتور هوجو في كتابه عن واترلو (كانت معركة واترلو سرا حير المؤرخين، فهي لغز للرابحين والخاسرين على حد سواء). ذلك أن المؤرخين غفلوا عن دور اليد الخفية، فنابليون صنعته حكومة العالم الخفية لشن الحروب وتحطيم الكنيسة، فأصبح أخيرا لا يخدم أهدافها ومصالحها فما كان ينبغي له أن يعود.

لقد أهمل نابليون دور الروتشيلديين، ومهد الطريق أمام اليهود فاحتلوا المناصب العليا في إمبراطوريته، وجهل برغم عبقريته القوى الشيطانية التي تحكم العالم فلم يستمع إلى رئيس شرطته الذي أرابته تحركات الروتشلديين.

لقد أفسد الروتشلديون كل مرشدي الجيش الفرنسي، وجاب عدد لا يحصى من جواسيس اليهود بلجيكا وكشفوا كل خطط نابليون.

ولما كان نابليون مريضا، آلت القيادة للمارشال سولت الذي أغدق عليه نابليون وعينه دوقا لدالماتيا من قبل، وقد كان سولت يهوديا خالصا، وبناءً على ذلك فهو يسمع ويطيع أوامر الروتشلديين وينفذ خططهم، فانهزم في المعركة عن سوء قصد ونية.

ولم يكن تأخر المارشال غروشيه عن اللحاق بجيش نابليون بميدان المعركة في الوقت المناسب مبررا إلا بصناديق الذهب القادمة من لندن إلى معسكره مباشرة. ولم يكن ناثان الماكر(روتشيلد الثاني) ليعتمد حتى على آخوته سالومون وكارل وجيمز، ووجد من الضروري أن يذهب بنفسه إلى ميدان المعركة فترك مركز مبادلاته المالية بلندن لينضم إلى الجيش البريطاني في بلجيكا، وكان يعلم

أن نابليون إذا ما استعاد سلطته مجددا فإن جميع الأموال التي أقرضوها لدول كثيرة ستفقد نتيجة لإفلاس أوروبا المفاجئ، فقد أجبر على حمل السيف كسهم أخير في جعبته في معركة لا تقبل الاحتمالات.

وعلى أرض المعركة وصلت جيوش بلوخر البروسي، بدلا من وصول جيوش المارشال غروشيه التي كان يتوقعها نابليون، فهنالك كانت الهزيمة، وهنالك دارت ملحمة قلما يجد التاريخ لها مثيلا في بسالة الحرس الإمبراطوري.

شغلت إمبراطورية نابليون العالم بأحداثها الجسام، غير أن هنالك أمرا بسيطا تجاهله معظم الباحثين، إذ كيف تقوم إمبراطورية ضخمة تسيطر على أرجاء أوروبا بكل هذه السرعة (أقل من خمسة عشر عاما) ثم ما تلبث أن تنهار.

والجواب بسيط وهو أن إمبراطورية الشيطان صنعتها ودعمتها لتنفث من خلالها سمومها على العالم المسيحي ولتحطيم الكنيسة، وحينما أصبح إمبراطورها حاكما صالحا قابضا على السلطة ومسيحيا أكثر مما ينبغي، وكارها لليهود ودورهم البغيض في أركان دولته قرروا تدميره.

وهكذا وبعد موت مؤسس العائلة ماير روتشيلد بعد أن زرع أبناءه الخمسة في أكبر عواصم أوربا ليمثلوا الجيل الثاني من "إمبراطورية روتشيلد" راحوا يحركون بأموالهم القوى المتصارعة في أوربا، ويوجهونها لخدمة مصالحهم، وكان لهم الدور الأكبر في صناعة الأحداث والشخصيات، فهذا الجيل هو الذي صنع نابليون بونابرت، وهو الذي حركه ليوجه حملته الفرنسية إلى مصر، وهو أيضاً الذي حطمه باستخدام قائده "سولت" لخيانته المتعمدة. . سولت الذي كان يهوديًا، وخان إمبراطوره الذي رقّاه مارشالاً، وعينه دوقًا، وأغدق عليه الملايين، لكن ولاءه لآل روتشيلد كان أكبر من كل شيء.

كان احتلال مصر هدفا قديما للفرنسيين ,يلمع في الذاكرة للفرنسية من حين لآخر ,ويتجدد من آن لآخر ,حتى سنحت الظروف بهذا الاحتلال، و ذلك للثأر من العار الذي لحقهم في معركة المنصورة سنة١٢٥٠ والذي أسر فيها كبيرهم لويس التاسع عشر.

ومن أهداف الحملة أيضاً الانتقام لفشل الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢٢١ على يد الملك الكامل.

كما كان من أهدافها الرغبة الفرنسية في عقاب المماليك الذين ساهموا في كسر الغرور الفرنسي من قبل.

فلما بدأ الضعف يتسرب إلى الدول العثمانية ويدب في أوصالها أخذت فرنسا تتطلع إلى المشرق العربي من جديد، وراح الأمل القديم يحيا في النفوس، وبدأ الساسة الجدد ينتظرون لحظة الثأر من العار الذي لحقهم في معركة المنصورة خالدة الذكر في سنة ١٢٥٠، وكانت تقارير رجالهم تحرضهم بأن اللحظة المناسبة قد حان أوانها ولا بد من انتهازها.

وكان من بين الأهداف أيضاً البحث عن طريق تجاري آخر بعد استيلاء الإنجليز على طريق رأس الرجاء الصالح وتضييقهم على السفن الفرنسية في الإبحار فيه، لذلك تولدت رغبة فرنسية في مواجهة النفوذ البريطاني، المتزايد، بهدف التشويش على طرق التجارة البريطانية، وبالقضاء على مراكزهم التجارية في البحر الأحمر.

كل هذا بالإضافة إلى رغبة فرنسا في العمل على شق قناة برزخ السويس. فبعد قيام الرحالة فاسكو دا جاما باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في بداية القرن السادس عشر، تغيرت معه حركة التجارة العالمية. إذ لم تعد السفن القادمة تمر على مصر ولم تعد مصر والإسكندرية قلب هذه التجارة، بل صارت تدور حول قارة إفريقيا، وعانت فرنسا جراء ذلك معاناة شديدة.

وبعد ضمِّ بريطانيا العظمى الهند إلى ممتلكاتها أصبح طريق رأس الرجاء الصالح حكراً على بريطانيا وحدها. لذلك ومع تزايد التنافس الاستعماري بين الدول الكبرى نشط الفرنسيون للتغلب على منافسيهم البرتغاليين في الشرق الأقصى، وكذلك البريطانيين وغيرهم، فرأوا أنه لا سبيل لذلك إلا بإعادة التجارة إلى طريقها القديم والحصول على حاصلات الشرق بواسطة السويس، وصارت تلك الفكرة الشغل الشاغل للدبلوماسية الفرنسية ردحاً من الزمن فقد

كان على فرنسا أن تفعل شيئاً يعيد لها مجدها وهيبتها، و يقضي كذلك على تجارة انكلترا مع الهند.

ولذا ظهرت الحاجة الملِحَّة لحفر قناة السويس، وعندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر بقيادة نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨ درس نابليون إنشاء قناة تربط البحرين الأبيض والأحمر.

وأخيراً، فقد كان من بين الأهداف التي وضعها الفرنسيون من حملتهم على مصر والشام بالطبع رغبتهم أن تكون مصر قاعدة إستراتيجية ونواة للإمبراطورية الفرنسية في الشرق.

إذن كان احتلال مصر رغبة قوية وملحَّة لدى فرنسا، بل بقيت أملا لساستها وقادتها ينتظرون الفرصة السانحة لتحقيقها متى أتِيحت لهم،وفي سبيل ذلك كانوا يبعثون رجالهم إلى مصر على هيئة تجار أو سياح أو طلاب ودارسين، ويسجلون دقائق حياتها في تقارير يرسلونها إلى قادتهم.

ولما بدأ الضعف يتسرب إلى الدولة العثمانية أخذت فرنسا تتطلع إلى المشرق العربي مرة أخرى، وكانت تقارير رجالهم تحرضهم بأن اللحظة المناسبة قد حان أوانها ولا بد من انتهازها.

وكشفت تقارير سانت بريست سفير فرنسا في الآستانة منذ سنة ١٧٦٨ والبارون دي توت والمسيو - مور- قنصل فرنسا في الإسكندرية ضعف الدولة العثمانية، وأنها في سبيلها إلى الانحلال، ودعت تلك التقارير إلى ضرورة الإسراع باحتلال مصر، غير أن الحكومة الفرنسية ترددت ولم تأخذ بنصائحهم، احتفاظا بسياستها القائم ظاهرها على الود والصداقة للدولة العثمانية.

الحملة الفرنسية لم تكن مجرد حملة صليبية حربية، بل كانت هجمة استعمارية موجهة إلى كبد الحضارة الإسلامية، ولذلك فلم تكن بالطبع بمعزلٍ عن أيدٍ يهودية خفية، كانت قد خلقت من قبل الثورة الفرنسية ومن قبل ذلكً كثيرٍ من معطيات الثورة الصهيونية المسماة تاريخيا بعصر النهضة.

إذ أن الأيدي اليهودية التي كانت كثيرا ما تحوك المؤامرات ضد القصر الملكي

الفرنسي والتي استطاعت عبر التاريخ استغلال الأحداث وتوظيفها لمصلحتهم التوظيف الأمثل. استطاعت توظيف نابليون - امبراطور فرنسا الثائر وصاحب الانتصارات المتعددة، والمولود عام ١٧٦٩ في جزيرة كورسيكا التي كانت فرنسا قد استولت عليها قبل ولادته بخمسة عشر شهراً - وفق مخططات صهيونية مرسومة بدقة متناهية.

فمن الثابت تاريخيا أن اليهود حاولوا استغلال حملة نابليون بونابرت على مصر عام ١٧٩٨ وتوظيفها لتحقيق عدد من المكاسب التي تخدم المصالح اليهودية وتفت في عضد أمتنا الإسلامية. وبذلوا في ذلك الغالي والنفيس.

كانت تجول في عقلية نابليون، الخارج لتوه من حرب ضروس مع إيطاليا منتصرا متوجا ,يملأه الصلف والغرور كثير من الآمال والأحلام تجاه غزو مصر. إلا أن الواقع يومها كان يقول إن العين الفرنسية بصيرة واليد قصيرة فغزو مصر هدف كبير ,ومكلف وسيكلف نابليون الكثير والكثير، فقد كانت الحكومة الفرنسية تمر بضائقة مالية خانقة بسبب الحروب العديدة المتتالية التي خاضتها فرنسا في الفترة السابقة. وبالتالي برزت أمام أحلام نابليون بإنفاذ حملته على مصر جبال من الصعاب ,وتلال من العقبات.

وهنا يأتي دور آل روتشيلد الشيطاني من خلال الفروع الخمسة وخاصة الفرنسي الذي اختطف نابليون بالاتفاق مع باقي الفروع كممثلين عن اليهود المتآمرين.

فقد رصدت الرأس اليهودية المتمثلة في الإخوة روتشيلد هذا الواقع ورصدت - أيضا - الرغبة الفرنسية الجامحة في إنفاذ الحملة العسكرية على مصر بشتى الطرق.

وفي الوقت نفسه رصدت كم الصعاب التي تواجه نابليون وحكومته. ولكنها سرعان ما تدخلت، وسرعان ما بدأ مسلسل استغلال الحدث.

وبدأ آل روتشيلد أباطرة المال في التقرب من نابليون. وسرعان ما هونوا له كل الصعاب التي واجهته، وحلوا له العديد من المشاكل. وسرعان ما تحولت جبال الصعاب إلى سهول معبدة ومفروشة بالورود.

فلقد قامت خزائن روتشيلد بتمويل حملة نابليون على مصر. وصدرت الأوامر لصناع السفن اليهود في ميناء جنوه في إيطاليا من خلال فرع روتشيلد في روما ببناء قطع الأسطول الذي سيحتاجه نابليون في مهمته. بالفعل كان هذا الأسطول هو الذي رافق نابليون في حملته على مصر.

كان الهدف من كل هذا هو إقناع آل روتشيلد، الذين أصبحوا المحرك ليهود العالم والمتحدث الرسمي باسمهم، نابليون بونابرت بمساعدة اليهود في تكوين وطن قومي لهم في فلسطين.

وسارع روتشيلد إلى إقناع نابليون لتوطين اليهود في فلسطين إن هو نجح في توطيد أركان سيطرته على الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط. ولقد استحسن نابليون هذه الفكرة.

وهكذا كان الوعد الفرنسي بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين كان مقابل تقديم الممولين اليهود من آل روتشيلد قروضًا مالية للحكومة الفرنسية التي كانت تمر - آنذاك - بضائقة مالية خانقة، والمساهمة في تمويل الحملة الفرنسية المتجهة صوب الشرق بقيادة بونابرت.

ولكن باءت باءت أحلام روتشيلد واليهود بالفشل.فلقد تم تدمير الأسطول الفرنسي " السفن اليهودية " كله على الشواطئ المصرية. ولم يستسلم الشعب المصري لحظة واحدة ولم تهنأ القوات الفرنسية في مصر بوجودها لحظة.

وقام المصريون بقتل العديد من القوات الفرنسية ,وذكرت إحصائية فرنسية حديثة أن قوات نابليون التي جاءت إلى مصر وفلسطين بلغت خسائرها ١٣ ألف قتيل سقطوا في المعارك. وهناك إحصائية أخرى تقدر خسائر الجيش الفرنسي بلغت ٢٨ ألف جندي أي أكثر من نصف قواته ,وأن عدد القتلى الفرنسيين أمام أسوار عكا وحدها بلغت ٥٠٠٠ قتيل.

ولما دمر الأسطول الفرنسي - وبدلا من أن يجر نابليون أذيال الخيبة مع بقايا جنوده ويتوجه إلى فرنسا، سار ببقايا جيشه عبر صحراء سيناء إلى فلسطين مضمرا في نفسه أن ينشئ الدولة اليهودية بها ,استجابة لطلب

المحافل الباريسية الصليبية الصهيونية هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن فرنسا لم تكن تتمنى أكثر من أن ترى الطريق إلى الهند والصين، وقد سكنها شعب على أهبة الاستعداد لأن يتبعها حتى الموت - من أجل مصالحها - ولا يوجد أصلح من الشعب اليهودي لهذا الغرض كما ذكر بالحرف الواحد المفكر اليهودي "موسى هس" حليف و صديق آل روتشيلد.

وفي الرابع من أبريل سنة ١٧٩٩ خطب نابليون خطبته الشهيرة في صهيونيِّي يافا وحيفا والقدس الذين انتظروه مع غيرهم من اليهود القادمين من رومانيا قال فيها :

يا ورثة فلسطين الشرعيين

الأمة العظيمة تناديكم

لتستردوا ما سلب منكم بالغزو

أسرعوا

لقد حانت اللحظة المطالبة باسترداد حقوقكم المدينة

وكيانكم السياسي كأمة إلى الأبد ".

والثابت تاريخيا أن هذه الخطبة التي ألقاها نابليون لم تكن موجهة إلى يهوديي فلسطين فقط، ولكنها كانت نداء إلى يهود العالم. فلم يوزع هذا النداء في فلسطين وحدها. وإنما جرى توزيعه في الوقت نفسه في فرنسا ,وإيطاليا , والإمارات الألمانية وحتى في أسبانيا.

ويشير كل ذلك إلى أن القضية كانت أكبر وأوسع من مواجهة نابليون حينما استعصت عليه أسوار عكا، ومما يؤكد هذا الكلام أنه وأثناء حصار عكا، نشرت الجريدة الرسمية الفرنسية بيانا من نابليون يدعو فيه اليهود إلى مؤازرة فرنسا، وانتهاز فرصة وجوده في فلسطين لتحقيق آمالهم في التمركز ما بين عكا والإسكندرية.

كانت خطبة نابليون هذه حافلة بالكلمات التي تستجيش عواطف اليهود-

وتشحذ هممهم ,وتحفزهم وتحمسهم بل وتدعوهم للالتحاق بجيشه من أجل دخول القدس ضمن الحملة الفرنسية نحو الشرق. وإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، ويذكر المؤرخون أن نابليون بونابرت لم يكتب هذه الخطبة بنفسه , ولكن مستشاريه من زعماء الصهيونية العالمية هم الذين أعدوها له ليقوم بتوقيعها قبل أن تذاع.

وهكذا دفع اليهود وفي مقدمتهم آل روتشيلد الفاتورة. فاتورة الحملة الفرنسية على مصر. تلك الحملة التي بلغ قوامها ٣٨ ألف جندي. وفشل نابليون بالوفاء بالوعود التي قطعها على نفسه لزعماء اليهود في فرنسا باحتلال فلسطين وإقامة وطنٍ قوميٍّ لليهود فيها فقرروا تصفيته.

وعند ذلك أدرك نابليون أنَّ اليهود جُبلُوا على الأذى الرهيب، فحاول الخروج عن سيطرتهم، ففي (مارس ١٨٠٨) أعلن أنه لن يتبع نصائح "الماسونية" الخاضعة لسيطرة اليهود، وراح يعدد جرائم اليهود البشعة في المجلس الإمبراطوري، فقال:

إنه لا ينبغي النظر إلى اليهود كعنصر متميز، بل كغرباء، وسيكون إذلالاً مُرًا أن نُحْكَمَ بهؤلاء، وهم أذلُّ شعبٍ على وجه الأرضِ".

فكان ذلك تحدِّيًا لليد الخفيةِ التي قبلت التَّحَدِّي، وقررت تدميره والخلاص منه، وفشلت عدَّة محاولات لاغتياله، فلجأت "اليد الخفية" إلى طريقة أخرى لتدميره، فقد قام القائد الماسوني "راديه" باعتقال البابا "بيوس السابع" دون عرض الأمر على الإمبراطور "نابليون" الذي أفزعه ذلك، لكنه لم يرغب في الإساءة إلى قائده، وتطور الأمر سريعًا، فأصدر البابا صكًا بحرمان "نابليون".

وهنا ظهرت أخلاق اللصوص حينما يختلفون. فقد غضب اليهود يقودهم الاخوة روتشيلد على نابليون، فحاولوا اغتياله إلا أن محاولتهم الأولى باءت بالفشل، فأتبعوها بمحاولة ثانية قام بها رجل يهودي اسمه "سناب". كان قد قرر اغتياله في مدينة "شونبرون" ,وفشلت المحاولة فعززوها بمحاولات.

وهكذا كانت الجرائم الإرهابية العلنية والسرية التي نفذها اليهود بتمويل

وتخطيط من آل روتشيلد انتقاما من نابليون بونابرت بعد أن انقلبوا عليه.. كانت لا حصر لها. "وكان انتقام زعماء اليهود من نابليون رهيبا لأنه فشل في تنفيذ الوعد الذي قطعه على نفسه لهم باحتلال فلسطين وتسليمها إليهم ليتخذوا منها وطنا قوميا لليهود.

وكانت معركة واترلو التي وقعت عام ١٨١٥ قرب بروكسل آخر المعارك الخاصة بنابليون بونابرت، وقد استطاع اليهود بث الخيانات بين مساعدي نابليون ومستشاريه مما وضع حدا لطموحات نابليون السياسية التي كانت تهدف إلى حكم اوروبا بعد هزيمته في هذه المعركة.

وإثر هذه الهزيمة الساحقة اضطرنابليون للتنازل عن منصبه ,ليتم نفيه إلى جزيرة إلبا قبالة ساحل إيطاليا، إلا أن نابليون بونابرت توفي في ٥ مايو عام ١٨٢١ بمنفاه الجديد في جزيرة سانت هيلينا في المحيط الأطلسي.

نفي نابليون إلى جزيرة سانت هيلانه، وهنالك مات سنة ١٨٢١ مسموما، فلم ترد له حكومة العالم الخفية البقاء ليؤرقها وجوده حتى وإن كان حبيسا، وقد عاد جثمانه في عهد لويس فيليب، في احتفالات مهيبة من سانت هيلانة إلى مثواه الأخير بالإنفاليد، وبدا واضحا كم كان الشعب تواقا لنابليون آخر يعيد لفرنسا مجدها ومكانتها.

وهكذا ستظل تساؤلات نابليون في سانت هيلانة، لماذا لم يساعده سولت نائبه في القيادة في واترلو؟؟ ولماذا لم يحفظ معاونوه النظام برغم كل أوامره، ستظل شاهدا على عدم وعي القائد الفذ بحجم المؤامرة التي حيكت ضده، وضد شعب فرنسا من بعده. لم يكتف اليهود بقهر ذلك القائد الكورسيكي الفذ وسلبه إمبراطوريته، بل أصروا حتى على تلويث دم سلالته بدم عرقهم الآسن.

تعاقبت على فرنسا ملكيات هزيلة، لويس الثامن عشر، شارل العاشر، لويس فيليب، التي لم تكن إلا جزءا من تآمرحكومة العالم الخفية التي أرادت استرداد أموالها من خلال الغرامة الحربية المفروضة على فرنسا، ثم الإبقاء على هذا الضعف الذي خولها سلب فرنسا ثرواتها وإدارتها بطريقة عبثية تسمح بتحقيق مآربها.

ففرنسا ما بعد الثورة ونابليون يجب أن تبقى علمانية ويجب تربية أجيال جديدة بعيدا عن الكنيسة، وبرغم ذلك ظل شعب فرنسا تواقا لدور باريس الرائد في قيادة العالم والمحفل الأوروبي، دور ما استطاع أن يسترده أبدا حتى تاريخنا الحديث.

"من بونابرت إلى بلفور"... هذا الكتاب الذي نشر بباريس وأعده المركز الفرنسي للبحث في القدس مؤخرا، يعتبر من أهم ما نشر في فرنسا خلال السنوات الأخيرة حول العلاقات التاريخية بين أوروبا الغربية وفلسطين والمؤامرات الصهيونية في هذا الصدد.

في مقدمة هذا الكتاب الجماعي الذي شارك فيه ٢١ باحثا، يقول المحرران، دومينيك ترامبور (مركز البحث الفرنسي في القدس) وران آرونسوهن (الجامعة العبرية في القدس) إن الفترة التاريخية موضوع الدراسة ١٧٩٩-١٩١٧ حددها حدثان تاريخيان، دخول نابليون بونابرت الشرق، وقيام دولة إسرائيل.

وقد رأى مركز البحث الفرنسي في القدس أن يجمع مجموعة من الدراسات الخاصة بهذه الفترة منتهجا التنوع، لتقديم مؤلف يسمح بالتقاء كتّاب من مختلف الأصول يدرسون المنطقة نفسها إبان الفترة نفسها ومن خلال وجهات نظر مختلفة.

وعن هذه الحقبة التاريخية الهامة يقول المحرران "إنها تصادف القرن الأخير من السيطرة العثمانية، وعليه فهي ربما الأكثر ثراء من الناحية التاريخية، خاصة في مجال العلاقات الدولية".

والكتاب هو الجزء الأول من مشروع يغطي الفترة ما بين ١٧٩٩ و ١٩٤٨، وعن سبب التركيز على أوروبا الغربية دون إدراج روسيا يقول المحرران إن الهدف هو المقارنة بين الحقبتين، بينما الوجود الروسي في فلسطين انتهى مع ثورة أكتوبر وسقوط الإمبراطورية العثمانية.

يقول المحرران إنه بعد دخول بونابرت مصر واجتياحه العابر للأرض المقدسة، خرجت فلسطين من سباتها كمقاطعة داخلية لإمبراطورية شاسعة.

ولم تكن فلسطين آنذاك كيانا سياسيا وإداريا محددا، حتى إن بونابرت لم ير أنها تستحق الزيارة.

ومع القرن ١٩ خاصة بعد الحملة الفرنسية على مصر، بدأت فلسطين تجذب تدريجيا اهتمام القوى الأوروبية حتى أصبحت تحظى بأهمية جيوإستراتيجية كبيرة في حساباتها، لتصبح في ما بعد مسرحا للصراع بينها للحصول على المزيد من الامتيازات في الإمبراطورية العثمانية.

وفي إشارة لما كتب حول هذه الحقبة الزمنية، يقول المحرران إن أهم الأدبيات موجودة بالإنجليزية وإن أهم ومعظم ما كتب بهذه اللغة هو من فعل كتاب إسرائيليين. أما الأدبيات الفرنسية والتي كانت ضعيفة فقد حققت تقدما ملحوظا خلال العقدين الأخيرين.

أما عن الأدبيات الألمانية، فيقولان إن زيارة الإمبراطور غليوم الثاني للأرض المقدسة في ١٨٩٨ شكلت نقلة كمية ونوعية في هذه الأدبيات، حيث مثلت هذه الزيارة ولوجا رسميا لألمانيا في الشؤون الفلسطينية.

يلاحظ المحرران أن الأدبيات الأوروبية كانت في اهتمامها بفلسطين رهن التوجهات السياسية للقوى الأوروبية، حيث إن الدول الأكثر نفوذا في فلسطين أو التي أولتها اهتماما خاصا عرفت حركة نشر مهمة في مختلف الموضوعات حول فلسطين.

أما في ما يخص الأدبيات الإسرائيلية المكتوبة بالعبرية، فهي تحوي أيضا مؤلفات إسرائيلية حررت بالإنجليزية وحتى الألمانية، ومن كتبوا بالعربية هم نفسهم الذين كتبوا بالإنجليزية خلال العقود الأخيرة.

ويلاحظان أن التأريخ الإسرائيلي فيما يخص فلسطين القرن التاسع عشر ركز على محورين أساسيين. أولهما الرحلات والمستعمرات الألمانية والأميركية والقناصل الأميركيون، وثانيهما هجرة واستيطان اليهود.

أما في ما يتعلق بالأدبيات العربية، فيقولان إنها معروفة لكن قُلل من شأنها لاعتبارها تبريراً لمطالب وطنية.

يقول المحرران إن ما يعاب على التأريخ بصفة عامة بخصوص فلسطين هو كونه لم ينظر إليها نظرة شاملة بل اهتم بأجزاء منفصلة دون محاولة جمعها. كما أن التحليل التاريخي شابته المواقف السياسية، مما جعل مواقف المؤرخين متعارضة.

لكن مع مرور الزمن تمكن التأريخ من الإلمام بمختلف جوانب هذه المنطقة بما تسمح به المصادر (التاريخية) المتاحة.

وفي هذا الإطار يندرج هذا الكتاب الذي يقدمانه محاولة شاملة تطرح فيها مختلف التوجهات مع التركيز على الوجود الفرنسي في الأرض المقدسة.

ونظرا للعدد الكبير للمساهمين في هذا المؤلف، يتعذر ذكرهم كلهم، وعليه سنكتفي بالإشارة إلى أهم النصوص.

وفي مساهمة افتتاحية قيمة بعنوان "فلسطين في العلاقات الدولية ١٧٩٨-١٩١٤"، يوضح روجي هايكوك (جامعة بيرزيت) كيف تحولت فلسطين من منطقة هامشية في الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف إلى مسرح لصراع النفوذ بين القوى الأوروبية. ويرى أن حملة نابليون "فتحت الشرق لأوروبا".

وهذا الشرق كان أساسا مصريا، لكنه يضم فلسطين التي احتل بونابرت قسما من ساحلها، قبل أن يُقذف به خارجها من قبل أحمد باشا الجزار (حاكم مقاطعة صيدا) المدعوم من الإنجليز.

وهنا يتحدث عن غزو سوريا من قبل محمد علي، أو بالأحرى نجله إبراهيم باشا عام ١٨٣١، والذي تمكن من الاستيلاء على فلسطين بتشجيع من فرنسا. وكان محمد علي يسعى لإقامة كيان جديد قوي على أنقاض الإمبراطورية العثمانية الهرمة.

وقد انتهج إبراهيم باشا سياسة انفتاح حيال مسيحيي الشرق كما فتح القدس ودمشق للأوروبيين.

لكن مع تقدم الجيش المصري، تحركت القوى الأوروبية، إنجلترا، روسيا، النمسا وبروسيا.

-باستثناء فرنسا- بدعم السلطان العثماني ووضعت حدا لـ "حلم محمد علي في سوريا" في ١٨٤١.

وظهر في ذلك الوقت التركيز القوي للقوى الأوروبية على فلسطين بالذات، وبدأت محاولات تحديد معالمها الجغرافية.

هكذا حدث في القرن ١٩ انتقال مركز الثقل من صور إلى فلسطين، حيث ازدهر الاقتصاد والمبادلات التجارية مع أوروبا، وكانت القدس المركز الثقافي، بينما نابلس المركز الاقتصادي.

مع مطلع الأربعينيات من القرن ١٩ بدأت حركة الإصلاحات في الإمبراطورية العثمانية والتي تزامنت مع تدفق القناصل والمبشرين ورجال الدين الأوروبيين نحو فلسطين. وهنا بدأ التنافس بين القوى الأوروبية للحصول على الامتيازات امتياز الواحد تلو الآخر في الإمبراطورية العثمانية، بدعوى حماية المسيحيين.

ويشير المؤلف إلى تنامي النفوذ الفرنسي القوي في فلسطين لا سيما عبر إقامة قنصلياتها في الأرض المقدسة، إذ كانت فرنسا تعتبر نفسها القوة الحامية للكاثوليك في الشرق. وقد طبق قناصلها سياسة المحمية الكاثوليكية الفرنسية، إلى درجة أن أصبحوا مستشارين في الخفاء للحاكم العثماني.

ومن خلال اتفاق ميتيلان (١٩٠١) ومعاهدة القسطنطينية (١٩١٣) المبرمة مع الباب العالي، تمكنت فرنسا من تسجيل نقاط إستراتيجية ليس فقط تجاه الإمبراطورية العثمانية وإنما أيضا حيال القوى الأوروبية الأخرى التي تنافس امتيازاتها في الإمبراطورية العثمانية.

ويشير هايكوك هنا إلى أحد أبرز حلقات الصراع الدولي على فلسطين، حرب كريميا "فهي أول حرب، منذ الحروب الصليبية، اندلعت بسبب قضية التحكم في فلسطين"، وهي مليئة بالعبر من حيث آليات عمل النظام الدولي. "وهي الحرب الوحيدة الهامة فيما بين مجموعة القوى الكبرى بين مؤتمر فيينا، في ١٨١٥ وحرب ١٩١٤: نجاح امتحان الوفاق بين هذه القوى وقدرتها على تسيير النظام الدولي". ويرى أن فلسطين كانت السبب الحقيقي لهذه الحرب

التي كانت كريميا مسرحا عسكريا لها.

السبب العلني كان التحكم في إمارات مولدافيا وفالاشي الرومانية. لكنها حرب وقائية معادية لروسيا، وفي الوقت نفسه حرب انفصالية عثمانية. الصراع بدأ في فلسطين بين مختلف القوى الأوروبية الساعية لإحباط النفوذ الروسي المتنامي في الإمبراطورية العثمانية عبر حماية المسيحيين الأرثوذكس، خاصة أن البطريق الأرثوذكسي لم يعد ابتداء من ١٨٤٣، يُنتخب في القسطنطينية بل في القدس.

بعد انتقال مركز الثقل الأرثوذكسي من القسطنطينية إلى القدس، تحركت فرنسا والسلطة البابوية في روما: البطريق اللاتيني الذي يقيم منذ مئات السنين في روما نُقل في ١٨٤٧ إلى القدس.

ولم يتأخر التصعيد، الذي كان في بداية الأمر رمزيًا، ثم أيديولوجيًا، عثمانيًا ـ عثمانيًا قبل أن يصير عسكريا ودوليا. فقد اضطرت السلطات العثمانية في ١٨٤٧ لاستخدام الجيش لوضع حد لاشتباكات بين مختلف الطوائف المسيحية في القدس.

ومن هنا قاد التصعيد تدريجيا نحو الحرب في كريميا (١٨٥٣-١٨٥٦) بين روسيا من جهة والقوى الأوروبية الأخرى في إطار تحالف ضم الإمبراطورية العثمانية وسردينيا (إيطاليا فيما بعد).

وحسب المؤلف فإن "حرب كريميا حرب وقائية، لمنع روسيا من تحويل الإمبراطورية العثمانية إلى محمية ولكنها أيضاً حرب انفصالية مسبقة ورهانها هو الإمبراطورية العثمانية نفسها. وقد اعتبرت القوى الأوروبية آنذاك أن سقوطها لا مفر منه".

أما ران كوهين-ميللر، فقد وضح من خلال دراسة حول القناصل الفرنسيين في فلسطين، أنه رغم التقلبات السياسية في فرنسا (التأرجح بين الملكية والجمهورية) فإن السياسة المتبعة كانت نفسها إنشاء محمية فرنسية في فلسطين بدعوى حماية المسيحيين بمختلف طوائفهم وحماية المؤسسات الفرنسية في الأرض المقدسة.

وأسهم في تدعيم هذه السياسة تحالف باريس مع الفاتيكان الذي يخشى النفوذ الروسي المتنامي في الأوساط الأرثوذكسية في الأرض المقدسة. أما فرنسا فكانت تخشى النفوذ الديني والسياسي الروسي في الإمبراطورية العثمانية عموما.

وقد كان نفوذ القناصل الفرنسيين كبيرا إلى درجة أنهم أصبحوا شبه حكام في الخفاء لفلسطين. وكان صراع النفوذ قويا بين القناصل والسفراء الأوروبيين في فلسطين. كما أصبح هؤلاء، بعد حرب كريميا، يتصرفون كسلطة موازية تمارس ضغوطا على الباب العالي.

ويقول الكاتب إن القناصل الفرنسيين تميزوا باحتقارهم للسكان الأصليين بمختلف انتماءاتهم الدينية. وقد شرع هؤلاء في شراء الأراضي في فلسطين والعمل على جعل الأماكن المقدسة المسيحية في القدس محمية فرنسية بمباركة البابا.

ويرى الكاتب أن القرن ١٩ كان قرن "اختراع مصطلح الأرض المقدسة، الذي هو مصطلح ديني-سياسي يشكل بالنسبة للغرب البعد الافتراضي لفلسطين العثمانية". وقد أسهمت الرحلات والحملات العلمية في تجسيد هذا البعد عمليا.

هكذا دخلت فلسطين في مجال البحث عن سيطرة العالم في ذلك الوقت من قبل القوى الأوروبية، حيث التقى مختلف الفاعلين في هذا الحيز الضيق الذي هو القدس. فقبل ١٨٤١ لم تكن القدس إلا مدينة صغيرة من دون أهمية.

وإذا كان العثمانيون قد رفعوا من شأنها بجعلها عاصمة بشالق (ولاية باشا في النظام العثماني)، فلم يكن ذلك بمحض الصدفة، إذ تزامن هذا القرار مع بداية اهتمام القوى الأوروبية بالقدس التي أصبحت النواة التي تشكل حولها مفهوم الأرض المقدسة.

وحول اتفاقات ميتيلان وهي جزيرة تقع على مقربة الساحل التركي في بحر إيجه، تبين إستار بن باسا في مساهمة هامة لها بعنوان "التحالف الإسرائيلي الكوني والمشاريع اليهودية في فلسطين"، كيف ظهرت جمعية "التحالف الإسرائيلي الكونية" التي أسسها ثلة من الشباب اليهودي الفرنسي لتحسين وضع اليهود في العالم.

وتقول إنها تجد أصولها الثقافية في حركة التنوير اليهودية في أوروبا والتي كانت تدعو إلى اندماج اليهود ثقافيا واجتماعيا في الدول التي يعيشون فيها.

وهذا ما جعل هذه الجمعية لا تساند في بداية الأمر فكرة قيام وطن قومي لليهود في فلسطين. لكنها سرعان ما أسهمت في الاستيطان في فلسطين وبفضل نشاطها في إسطنبول، عاصمة الإمبراطورية ومقر إقامة الحاخام اليهودي الأكبر، حاولت هذه الجمعية إفشال المفاوضات حول وطن قومي لليهود في فلسطين التي كانت تقودها الحركة الصهيونية في الإمبراطورية العثمانية.

وقد احتدم الصراع بينها وبين الحركة الصهيونية في القدس في ١٩٠٨ بسبب الخلاف حول انتخاب حاخام المدينة الأكبر. لكن هذه القضية لم تكن نقطة الصراع الوحيدة، حيث إن الصهاينة كانوا في أغلبهم ألمانا، يتحدثون الألمانية والحركة الصهيونية كانت تتخذ من ألمانيا مقرا لها، بينما كان التحالف الإسرائيلي الكوني فرنسي اللغة والمنشأ وبالتالي قاد هجوم الصهاينة القوي على هذه الجمعية إلى تقربها من السلطات الفرنسية.

لكن رغم هذا العداء، فإن هذه الجمعية توسطت في بعض الأحيان بين الحركة الصهيونية والباب العالي، كما تدخلت في العديد من المرات لدى هذا الأخير للدفاع عن اليهود، كتدخلها لطلب تسهيل آليات حصول اليهود على الجنسية العثمانية، إذ كانت الجنسية هي العقبة الرئيسية أمام شرائهم أراضيَ في فلسطين.

ومع الحرب العالمية ووعد بلفور وتصلب عود الحركة الصهيونية العالمية ثم سقوط الإمبراطورية العثمانية، ضعفت هذه الجمعية التي لم يتغير موقفها من الحركة الصهيونية. لكن بعد الحرب العالمية الثانية، دعمت قيام دولة إسرائيل لتصبح فيما بعد من أشد مسانديها.

لقد أصاب هذا الكتاب في تغطية لحقبة تاريخية هي الأخطر في التاريخ العربي- الإسلامي، وتوضيح صراع النفوذ والمطامع الأوروبية في الإمبراطورية العثمانية، وكيف أن هذه القوى المتنافسة كانت تتفق في بعض الأحيان على

الإبقاء على الرجل المريض قيد الحياة، ما دامت شروط تفكيك الإمبراطورية لم تتوفر بعدُ، ولما توفرت تم تفكيكها.

كما أظهر كيف مزجت هذه القوى ببراعة بين الدين والسياسة لخدمة أهدافها الإستراتيجية وكيف اعتبرت المبشرين والمؤسسات الدينية جيوشا للدفاع عن مصالحها في انتظار اللحظة السانحة لإرسال قواتها المسلحة الفعلية للمنطقة. ووضح طبيعة العلاقة المتقلبة بين القوى الأوروبية واليهود والتي تطورت نحو التحالف.

لكن ما يعاب على هذا الكتاب هو عدم تقديمه تحليلا تاريخيا للوضع الاجتماعي الاقتصادي السكاني في فلسطين، ما عدا بعض الإشارات المتناثرة. طبعا الكتاب يتعلق بفرنسا وأوروبا الغربية في فلسطين، لكن كيف يمكن دراسة هذا دون التطرق إلى فلسطين نفسها؟

فالكتاب يعطي الانطباع بأن فلسطين كانت شبه فارغة من السكان. العدد الملحوظ من المساهمين اليهود من مختلف الجنسيات يفقد هذا الكتاب التوازن في التحليل ويناقض ادعاء المحررين طرح وجهات نظر مختلفة. كما افتقد المحرران إلى الموضوعية لما اعتبرا أن الأدبيات العربية تترجم مواقف سياسية وكأن الأدبيات الإسرائيلية والأوروبية تمثل قمة في الموضوعية؟.

من ناحية أخرى، أكد الباحث الدكتور أنور أبو البندورة، أن الدولة الفرنسية، عملت طوال تاريخها، تقريبا، على تقديم الدعم للدولة الإسرائيلية، معللا تقديمها لهذا الدعم، بأنه جاء دائما لمصالحها التي وجدت لها تعبيرا عبر ارتباطها بإسرائيل وقياداتها المتعاقبة.

تأكيد الدكتور أبو البندورة هذا، جاء في محاضرة له تحت عنوان تاريخ العلاقات الفرنسية العربية قدمها مؤخرًا، في المركز الثقافي الفرنسي في مدينة الناصرة، بحضور العديد من المثقفين المهتمين ومحبي الثقافة والاطلاع.

في بداية المحاضرة، قدم مدير المركز دميان بيجو، المحاضر الضيف بكلمات مقتضبة، لكن معبرة، جاء فيها إن المحاضر يعمل أستاذا محاضرا للحقوق في

الجامعة العبرية في القدس، مشيرا إلى أن المحاضرة التي سيقدمها، ستكون واحدة ضمن سلسلة من المحاضرات والنقاشات حول موضوع التبادل بين أوروبا والشرق الأوسط، وهو موضوع سيكون بمثابة واحد من محاور اهتمام المركز في الأشهر القريبة القادمة.

بعد هذا التقديم، ابتدأ المحاضر أبو البندورة، في استعراض العلاقات الفرنسية العربية في منطقة الشرق الأوسط، قائلا إن هذه العلاقات ابتدأت منذ ايام الخليفة العباسي البارز هارون الرشيد وعلاقته بشارلمان، فالحروب الصليبية، ثم تواصلت عبر الإرساليات التبشيرية، رهبان الفرنسيسكان ومن إليهم من المستشرقين، إضافة إلى التجار الفرنسيين الذين استوردوا القطن من بلادنا.

ثم توقف المحاضر عند الحملة الفرنسية على المنطقة، وقال قد لا يعرف الكثيرون أن الوعد الأول لإقامة وطن قومي لليهود، قبل وعد بلفور، إنما كان بمبادرة من القائد الفرنسي نابليون بونابرت، موضحا أن هذا الأخير، أراد تقديم وعده هذا لليهود، مقابل مساعدته، في حملاته العسكرية في منطقة الشرق الأوسط. وقدم المحاضر إثباتا على ما قاله عن هذا الوعد قائلا، إن نابليون كان معجبا بتمسك اليهود، بأرومتهم وكتبهم الدينية، كونهم تشبثوا بها مدة ألفي عام، ولم يتنازلوا عنها. وأضاف يقول إنه توجد حتى هذه الأيام وثيقة تحت تصرف وزارة الداخلية الفرنسية، تثبت بما لا يقطعه شك أن نابليون قدم مثل هذا الوعد لليهود ليقيموا وطنا قوميا لهم على الأراضي العربية في فلسطين.

أما في العصر الحديث، فقد توقف المحاضر عند العديد من المحطات، في تاريخ العلاقات الفرنسية العربية، وكانت أبرزها تلك التي تسلم فيها الرئيس الوطني الفرنسي البارز شارل ديغول مقاليد الحكم في بلاده، في هذه الفترة، اكتسبت العلاقات بين الطرفين نوعا من المهادنة العقلانية القائمة على فهم متعمق للمصلحة الفرنسية.

هذه الفترة شهدت انفراجا في العلاقات بين الطرفين، تمثلت في رؤية ميزت الزعيم الفرنسي، هي أنني أريد أن اعمل مع العرب، وان أتعاون معهم،

ولا أريد أن انتهج أيا من أساليب التعامل السابقة معهم، بما فيها مناصبتهم العداء والسيطرة عليهم بقوة السلاح، كما حصل في فترات سابقة من تاريخ العلاقة التي يدور الحديث عنها وحولها.

في هذه الفترة ابتدأ الزعيم الفرنسي شارل ديغول، في الانسحاب من أجزاء من العالم العربي التي تحتلها فرنسا، وأشار المحاضر إلى أن ديغول، تسلم سدة الحكم في بلاده عام ١٩٥٨، وانه أعلن الانسحاب من الجزائر عام ١٩٦١، بعد ١٣٠ عاما من الاستعمار الفرنسي لها، وبعد أن التهمت نارها وقودا تمثل في أكثر من مليون شهيد قضوا فداء لعينيّ بلادهم.

إجابة عن سؤال قال المحاضر، إن الفرنسيين وقفوا إلى جانب إسرائيل دائما، مقدمين لها الدعم والمساندة، إلا أنهم مارسوا نوعا من الانفراج في علاقاتهم مع العالم العربي في فترة ديغول.

حينما اعترض أحد الحاضرين على أن فرنسا اتخذت موقفا برجماتيا من العرب في الشرق الأوسط، نفى المحاضر هذا قائلا إنه كان في عهد الرئيس الفرنسي السابق لشاري ديغول، ففي عهد ذلك الرئيس وقع العدوان الثلاثي بسبب تأميم قناة السويس، على القطر العربي المصري، وعلى مدينة بور سعيد تحديدا، موضحا أن هذا العدوان تم عام ١٩٥٦، وشاركت فيه فرنسا إلى جانب بريطانيا، أما في فترة ديغول، فقد تغير شكل التعامل إلى حد ما، ليعود بعده، إلى سابق عهده، أي مساندا لإسرائيل ومعاديا للعرب.

السبب في هذا كله، كما أكد المحاضر، أكثر من مرة في محاضرته، هو أن الدولة الفرنسية سعت دائما وراء مصلحتها الخاصة، لا سيما في المجال التجاري، وفي مجال فتح أبواب أسواق لبضائعها، وأنها رأت هذه المصلحة في الوقوف إلى جانب الدولة الإسرائيلية وليس إلى جانب الدول العربية.

إجابة على سؤال، رد المحاضر أبو البندورة قائلا: إن حكاية الفرنكفونية، ابتدأت قبل نحو المائتين من الأعوام، وأنها جاءت، بعد أن تعبت الدولة الفرنسية من الاستعمار لدول أخرى، وأرادت أن تستعمر العقول، فتجعلها تابعة لها

لمصلحة ما أو لبريق ثقافي، اتصف بمجمله لدى الفرنسيين ببريق الحرية، وهو واحد من شعارات ثورة الفرنسيين المشهورة في القرن السابع عشر.

المحاضر توقف أكثر من مرة ليجيب عن هذا السؤال أو ذاك، مشيرا انه أراد أن يكون اللقاء بينه وبين الجمهور حافلا في الحيوية، وتضمنت إجاباته معلومات غزيرة، تركزت على الجانب السياسي في مجملها وذهبت إلى الموضوع الثقافي في أقلها، وردد أكثر من مرة، أنه يكتفي بإثارة المواضيع بكل ما تتضمن من سخونة، تاركا للجمهور أن يجيب عما يطرحه موضوع المحاضرة ويثيره من أسئلة.

السؤال الذي تردد في المحاضرة، أكثر من مرة وعلى أكثر من لسان، هو: وماذا بعد؟ إذا كانت الدولة الفرنسية وقفت إلى جانب الدولة الإسرائيلية دائما وعلى طول الخط تقريبا، ابتداء من الحروب الصليبية انتهاء بتصريحات سراكوزي قبل فترة قصيرة، كما أشار أحد الحضور، مرورا بحرب الخليج، إذا كان هذا هو الوضع، ماذا يطلب منا نحن العرب أن نفعل؟ المحاضر كان حذرا في الإجابة، فهو يريد أن يتوصل كل من الحاضرين إلى استخلاص النتيجة بقواه الذاتية، وبعد الاستماع إلى ما قاله في محاضرته.

في نهاية المحاضرة، انفتح باب النقاش على أوسع مداه، وتعددت الاجتهادات في مسالة التعامل مع الآخر وكيف تكون، وأجمعت الاجتهادات، كل على طريقته الخاصة به، وعبر نبرة صوته، على أننا قبل أن نسال الآخر عما يريده منا، علينا أن نسال نحن أنفسنا عما نريده من أنفسنا ومنه، حينها ستكون الإجابة متوفرة ويسيرة المنال، فالمصلحة الذاتية، التي اتصفت بها العلاقات الفرنسية طوال تاريخها، لا تحيد عن خطها البياني المرسوم لها، ولا يهمها ما إذا كان من قبالتها إنسانا كرازماتيا أو جذابا، وما إلى هذا من كلام لا يمكن صرفه في بنك المصلحة الخاصة لأي من الدول، بما فيها الدولة الفرنسية، فهي ليست استثناء في هذا الصدد، وإنما هي تقدم نموذجا حيا على أن المصلحة بالنسبة لأصحابها تعتبر الأولى، أما ما عداها فإنه لا يعدو كونه حديث خرافة يا أم عمرو.

■■■

7

نابليون...
إمبراطور الحب



١

نابليون عاشق النساء والمجوهرات

احتفلت فرنسا مؤخرا بذكرى مرور مئتي عام على تنصيب نابليون بونابرت إمبراطورا. وقد نظم بهذه المناسبة عدد كبير من المعارض والفاعليات المختلفة، التي تسلط الضوء على جوانب عدة من حياة هذا القائد الفرنسي، صاحب الفضل في وضع قانون الأحوال المدنية في فرنسا، والعاشق الولهان، الذي ارتبط اسمه باسم (جوزفين).

أثار نابليون بونابرت، اهتمام كل من عايشه أو كتب وقرأ عنه. فحياته اتسمت بمواقف وظروف متناقضة جدا، بدءا من اعتلائه عرش الإمبراطورية الفرنسية في ٢ ديسمبر ١٨٠٤، مرورا بمعاركه العسكرية و مغامراته النسائية، و صولا إلى نفيه إلى جزيرة " سانت هيلين " وموته فيها. . كان غوته على حق عندما تلفظ عام ١٨٠٨، بجملته الشهيرة : "ستكبر عظمة نابليون، كلما زادت معرفتنا به ".

فقد شكل الإمبراطور، قصير القامة، مصدر إلهام لأعداد لا تحصى من الأعمال الثقافية والفنية. وهو يتربع اليوم على لائحة كتب مشاهير التاريخ، الأكثر مبيعا في دور النشر الأوروبية.

فمنذ وفاته العام ١٨٢١ صدر أكثر من ٥٠ ألف كتاب، بعضها جاء من خارج حدود الإمبراطورية ومحيطها. إذ يبدو أن الجنون " النابليوني " اخترق سور الصين العظيم، وميس نابليون وجود كتاب الشرق الأدنى، حيث اكتشف محبو نابليون وجود كتاب يحكي سيرة حياة هذا القائد الفرنسي باللغة الصينية،

صادر العام ١٨٣٧.

لم يعرف العالم خاصة الفرنسيين، إمبراطورا ذكيا وقويا وعاشقا محبا للعيش بترف ورفاهية كنابليون، وهذا ما تؤكده محتويات المعارض التي تنظمها فرنسا قبل هذا العام في الساحات والمكتبات والمتاحف دور المجوهرات وبعض المؤسسات الوطنية، من كتب قديمة وقصاصات الصحف والملصقات الصادرة في عصر نابليون، إضافة إلى اللوحات الفنية و البزات العسكرية والطوابع والمجوهرات والأفلام التاريخية والمسرحيات.

من كان يعتقد، أنه على الرغم من انهماك هذا الإمبراطور في كسب المعارك ووضع القوانين والتحاليل على مكايد الأعداء، كان يجد وقتا للاهتمام بأدق تفاصيل حياته اليومية، من الأزياء والديكور وشراء الهدايا الثمينة لحبيبته الأولى، وربما الوحيدة (جوزفين)، من دون أن ننسى بالطبع الرسائل التي كان يكتبها بوفرة وغزارة. فقد أعلن تييري لينتز، مدير مؤسسة نابليون، عن مشروع إصدار ١٢ مجلدا تحتوي على ٣٧ ألف رسالة أصلية لنابليون.

كان سباقا إلى إضفاء اللمسات التي تزيد من عظمته وتبرز شأنه وتضفي أبهة على الأبهة. فقد كان حريصا، على غرار سياسيي اليوم الذين يلجأون إلى وسائل الإعلام المختلفة، ودعوة المشاهير أو ذوي الشأن إلى حفلاتهم، على توثيق كل فعل من أعماله محاولة إيصاله إلى أكبر شريحة ممكنة من البشر بأجمل صورة لتأكيد أهميته.

وتعتبر لوحة تتويج (جوزفين) إمبراطورة من قبل نابليون، أهم شاهد على هذا الأمر.

كان مجلس النواب الفرنسي قد قرر وبالإجماع، بعد مضي ١٥ عاما على بداية الثورة الفرنسية التي أطاحت النظام الملكي، تنصيب نابليون إمبراطورا في ١٧ مايو ١٨٠٤. ولأن نابليون يهوى الترف والأبهة، فقد رفض أن تمر مراسم تتويجه إمبراطورا مرور الكرام، وأصر الفرنسيون، على تنظيم احتفال ضخم يليق بإمبراطور الفرنسيين، على غرار مراسم تنصيب الملوك، ودعوة البابا ممثل الكنيسة

لإضفاء مزيد من الأهمية على الحدث التاريخي. ولم يكتف بذلك، بل طلب من الرسام الشهير جاك (دايفيد)، رسم أربع لوحات ضخمة لتوثيق هذا الاحتفال.

غير أن الأخير لم يتمكن من تنفيذ سوى لوحتين تطلبتا منه ثلاثة أعوام من العمل المضني، إلا أن واحدة حصدت شهرة كبرى، وهي تلك التي يظهر فيها نابليون وهو يضع التاج على رأس (جوزفين)، والمعروضة حاليا في متحف اللوفر.

نجح (دايفيد) في تكريس ذكرى تنصيب نابليون، من خلال التفاصيل الدقيقة والغنية التي امتلأت بها اللوحة، فبفضل حجمها الضخم، ستة أمتار في عشرة أمتار، تمكن الرسام من إظهار ملامح كل أفراد العائلة الإمبراطورية، بمن فيهم والدة نابليون، التي غابت عن حضور الحفل الرسمي، لكنها حضرت في اللوحة.

كما عمل على إبراز أهمية مشهد تتويج نابليون (جوزفين)، من خلال جعل جميع أنظار الحضور تتجه نحو التاج ,وقد عبر نابليون عن رضاه عن هذا العمل عندما وصفه قائلا: "إنها لوحة تضج بالحياة، وكأن الناس الذين فيها يتحركون " .

وقد تمتع نابليون بحس مرهف و بذوق راق، فعرف كيف يستميل قلوب النساء من حوله، لاسيما (جوزفين) حبيبة قلبه الأبدية، التي أسرته وهو لا يزال ضابطا صغيرا. (وماري لويز) الأميرة النمساوية التي تزوجها لاحقا وأنجبت له وريثا تولى العرش من بعده، ناهيك عن النساء الأخريات اللواتي ملكن قلبه فترات وجيزة، نذكر منهن (ماري فاليسكا) الكونتيسة البولندية، التي أثبتت لنابليون أنه قادر على الإنجاب، إذ أنجبت منه ولدا غير شرعي !!، وهذا ما دفعه إلى تطليق (جوزفين) والاقتران (بماري لويز). ولا ننسى (ديزيره كلاريه) ملكة السويد لاحقا، التي ارتبطت رسميا بشقيق نابليون قبل أن تغرم بهذا الأخير. وبالطبع هناك (بولين فوريس)، التي وصفت بكليوباترا نظرا إلى وجودها مع نابليون طيلة مدة مكوثه في مصر.

وهناك أيضا الممثلة رائعة الجمال الملقبة "بمادوموازيل جورج " التي أغرم بها نابليون فترة قصيرة أهداها خلالها دبوس " بروش" على شكل سهم من الألماس

الملون باللون الوردي المرصع بالأحجار الكريمة التي شكلت اسمها.

ومن يرغب في أن يرى عن كثب هدايا نابليون إلى عشيقاته و أحبائه، عليه أن يزور المعرض الخاص الذي تنظمه "دار شوميه" للمجوهرات تحت عنوان "نابليون العاشق: مجوهرات الإمبراطورية نسور وقلب" في متحفها الخاص في ساحة فاندوم.

يتميز هذا المعرض بتسليطه الضوء على جانب حميمي من شخصية نابليون، وتقديمه صورة مؤثرة عن قصة حب نابليون و تقديمه صورة مؤثرة عن قصة حب نابليون و (جوزفين).

أما لماذا تحتفل "دار شوميه" بالتحديد بمرور مئتي عام على تنصيب نابليون إمبراطورا؟ ببساطة لأن مؤسس الدار "نيتو" كان الجوهري الرسمي لنابليون، وقد صمم له السيف الذي حمله في مراسم تتويجه. وهذا يعني أن أغلبية أطقم الحلي التي تعرض للمرة الأولى، صممها "نيتو" بناء على طلب الإمبراطور، اعتبر هذا المعرض سابقة في تاريخ المجوهرات ومبادرة خاصة تشهد على عدد وتنوع الهدايا التي اعتاد الإمبراطور أن يقدمها إلى أحبائه وجنرالاته الأوفياء والبواسل، وإلى الذين كان يرغب في مكافأتهم على إخلاصهم.

وقد تمكن منظمو المعرض من جمع حوالي مئة قطعة فريدة من نوعها كانت موزعة في كل أنحاء العالم، لعرضها في المتحف الخاص ضمن أربع غرف حملت أسماء أربع شخصيات رئيسية في تلكم المرحلة "النابليونية" وهي الجوهري "نيتو" نابليون، (جوزفين) و (ماري لويز).

وحرصت "دارشوميه" على تقديم المعروضات في إطارها الأصلي، فأعيد بناء ديكور أول متجر لنيتو في ساحة كاروزيل في بداية القرن التاسع عشر حيث عرضت الرسائل التي كان يوجهها نابليون وغيره من الشخصيات المهمة في تلك المرحلة إلى نيتو، إضافة إلى طلبات الشراء ورسوم تصمميه لبعض المجوهرات التي تبرز موهبة "نيتو" وذوق نابليون.

ويستطيع الزائر من خلال تجول في الصالات الثلاث المتبقية أن يفهم مدى

أهمية هذا الجوهري، صاحب فكرة إعادة صياغة مجوهرات ماري أنطوانيت، التي أطاحت بها الثورة الفرنسية لمصلحة نابليون، من خلال حجم الأعمال التي نفذها وصممها في عهد الإمبراطورية، ما حول هذا الأخير إلى هاوي جمع واقتناء مجوهرات.

يتوقع زوار جناح نابليون، أن يروا مجوهرات أنيقة وفخمة وفائقة الجودة والكلفة، لكنهم سوف يفاجأون بعرض حلي ترتبط بذكريات خاصة بنابليون مثل ساعة من الفضة مرصعة بحجارة من "الزيركون" قدمت إلى نابليون لدى تخرجه من المدرسة العسكرية في باريس، وكان عمره ١٧ عاما، إضافة على دبوس البروش الفضي والذهبي على هيئة نخلة، الذي كان يضعه على معطفه في معركة "واترلو" الشهيرة، الذي أضاعه أثناء تنقله بعربة الخيل.

كما يعرض الخاتم الذي صنع من معدن القذيفة التي قتلت حصان نابليون في معركة " دريسديه" عام ١٨١٣، على شكل خنفس أسود الذي قدمه نابليون إلى ماري فاليسكا. كذلك تمكنت " دار شوميه" من الحصول على قطعة رائعة من حجر العقيق، نقشت عليها صورة نابليون وهو يرتدي تاجا مع قبة المعطف المطرز بالماس وحرف نون ونحلة، قدمه البريطاني ويليام فرايزر لنابليون، أثناء مكوثه في جزيرة سانت هيلين كرمز لدعمه.

بقي أن نقول إنه و في شهر ديسمبر عام ٢٠٠٧، بيعت صفحة بخط نابليون بونابرت بمبلغ ٢٤ ألف يورو (٣٦ ألف دولار) في مزادٍ جرى ببلدة فونتانبلو، قرب باريس،. واقتنى الصفحة أحدُ جامعِي خطوط المشاهير.

وهي تتضمن الفقرات الأولى لرواية وحيدة كتبها نابليون. وتأتي قيمة هذه الصفحة من الرواية التي حملت عنوان «كليسون وأوجيني» من أنها واحدة من صفحتين فحسب، مكتوبتين بخط نابليون ولا زالتا قيد التداول بين الأفراد من أصحاب المجموعات الخاصة أي لم يضعْ أحدُ متاحفِ الدولةِ عليهما اليدَ.

ويوضح وكيل البيع أن الإمبراطور نابليون الأول (١٨٢١.١٧٦٩) كان مولعاً بالمطالعة وقد كانت له، في صباه، محاولات لكتابة القصص والطروحات،

أشهرها «عشاء بوكير». أما محاولته الروائية الوحيدة، فهي آخر نص أدبي له، وقد كتبه صيف عام ١٧٩٥.

وحسب القائمين على المزاد، فإن «كليسون وأوجيني» لم تنشر في حياة كاتبها ولم تطبع، جزئيًا، إلا عام ١٩٢٠ في صحيفة متخصصة. وفيها يكتب نابليون نوعاً من السيرة الذاتية في لحظة حرجة من وجوده، عندما كان مهموماً بطموحاته العسكرية، وفي الوقت نفسه بمشاعره العاطفية تجاه ديزيريه كلاري، شقيقة زوجة أخيه.

وظل المهتمون بالمخطوطات يتصورون أن هذه الصفحة تعود الى نص تاريخي خصصه كاتبه للحديث عن شخص يدعى كليسون. لكن قيمتها أخذت بعداً إضافيا عندما أثبت المؤرخ بيتر هيكس، الباحث في "مؤسسة نابليونش" أنها الصفحة الأولى من رواية أدبية في ٢٢ صفحة مخطوطة، كتبها نابليون عندما كان في السادسة والعشرين من عمره.

■■■

٢

الحب الأول..
ابنة تاجر الحرير

بعد أن تعرف نابليون على ابنة تاجر الحرير في مرسيليا أخذ نجمه يسطع ويتعالى في سماء المجد ونظرا لشجاعته استدعته حكومة الإدارة إلى باريس أمر سائق عربة الخيل التي تقله أن يعرج على بيتها فأعلمها بأمر نقله واستدان منها مبلغا من المال وعاهدها على استمرار حبهما وفي باريس علم ما لجوزفين من سيطرة على الضباط فوجد أنه لابد له من الحصول عليها لتأمين الحصول على التاج، لما انقطعت رسائله عن حبيبته جاءت إلى باريس وسألت عنه فمنعت من دخول النادي أن لم يكن بصحبتها ضابط وأثناء العودة وجدت زميلاً لنابليون في الطريق وهو يعلم عنها كل شيء واصطحبها معه إلى النادي وأفهمها أن نابليون دهس على قلبه في سبيل مطامحه.

لما رأت نابليون وجوزفين ومن حولها نظرت إليه نظرة عتاب وعادت مسرعة فأشار نابليون إلى زميله أن اتبعها ولاتدعها تفلت من يدك وبعد الخروج من النادي سألها إن كان بإمكانه الحصول على شرف توصيلها فوافقت وفي الطريق تم الاتفاق بينهما فتزوجها وبارك نابليون هذا الزواج وحضر حفل الزفاف.

وقدم لها من الهدايا أضعاف المبلغ الذي اقترضه منها، سطع نجم نابليون وأخذ يترقى من درجة إلى أخرى حتى أصبح إمبراطورا لفرنسا، أخذ التاج من يد البابا ووضعه على رأسه بنفسه قائلا:

أنا الذي أوصلته إلى هنا وليس أنت، في تلك الفترة صدف أن توفي ملك السويد بدون وريث وحتى لايحدث شقاق وحروب بين العائلات العريقة في البلاد

قرروا استدعاء جنرال من ضباط نابليون يكون نظيف اليد كما فعل الإنجليز سابقا واستدعوا أميرا ألمانياً لحكمهم فتم اختيارهم على زوج عشيقة نابليون.



بونابرت العاشق الولهان في شبابه

عرض الأمر على نابليون فاستدعاه وأبلغه أنه موافق على ذلك شريطة أن يكون حليفا لفرنسا فرفض ذلك إلا إذا كانت مصلحة شعب السويد تتطلب هذا فقال له حتى في سبيل الملك لم تتخل عن مبادئك النزيهة ,أنت أعظم مني ووافق على الطلب.

أرسل آل بوربون وحلفاؤهم جيشا لمحاربة نابليون، فانضم إليه وقويت شوكته، فخشي الشرفاء من إراقة الدماء، فطلبوا من ملكة السويد أن تتوسط لديه بالصلح، فلبت الدعوة وربتت على كتفه وهو يفكر في وضع خطة الانتصار، التفت خلفه.

ولما رآها ابتسم وقال لها فورا لاتطلبي شيئا لا أقدر على تنفيذه، نجمك الذي سطع حتى أضاء نجمي سيبقى الملك في عائلتك إلى ماشاء الله وأنا سأنتهي قريبا فهنيئا لك، ولأنجالك وكاد أن ينتصر في واترلو لولا خدعة من ضابط ألماني تظاهر بالانهزام فلاحقه ضابط من قوات نابليون فانقسم الجيش إلى قسمين وأحاطوا به من كل حدب وصوب وانتصروا عليه ونفوه إلى جزيرة القديسة هيلاني حيث قضى نحبه هناك.

■ ■ ■

٣

جوزفين...
غرام وانتقام !!

لم يمض يوم دون أن أحـبك، لم أقض ليلة دون أن أفكر فـيك، لم أتناول فنجان شاي دون أن ألعن المجد والطموح اللذيْن يجعلاني بعيداً عن روح حياتي. وسط انشغالاتي، وأنا أقود الجنود، وأجوب المعسكرات، وحدها عزيزتي جوزفين تقبع في قلبي، تحتل روحي، تشغل تفكيري.

إذا كنت قد ابتعدتُ عنك بسرعة جريان نهر الرون، فلكي أعود بسرعة لأراك، إذا كنت أستيقظ ليلا لأعمل، فلكي أستعجل عودتي لرفيقة عمري الرقيقة».

من يصدق أن كاتب هذه السطور الولهة هو نابليون بونابرت ١٧٦٩ ١٨٢١- أحد أكثر أباطرة أوروبا بطشًا وقوة.

إنها مقاطع من الرسالة التي بعثها من مدينة نيس لزوجته جوزفين وهو في طريقه للفوز بحملة إيطاليا سنة ١٧٩٦.

النسخة الأصلية للرسالة عرضها مؤخراً «متحف المخطوطات والرسائل» في باريس، ضمن معرض حمل اسم «حدثني عن الحب». وهي من أروع ما كُتب من رسائل حب، وقد كلفت المتحف مبلغ ١٠٠ ألف يورو لاقتنائها سنة ١٩٩٧.

فالإمبراطور العظيم بالإضافة لعبقريته السياسية والعسكرية، تبين انه كان ضليعاً بفن الرسائل التي دبّج منها ما يزيد على ٣٣ ألف رسالة معظمها موجود في «المكتبة البريطانية». وكان نابليون يستطيع إملاء أكثر من ١٠ رسائل لمعاونيه، وإن كان قد كتب أجملها بخط يده لزوجته الأولى جوزفين إلا أنه كتب رسائل

حب أخرى لزوجته الثانية الإمبراطورة المجرية «ماري لويس» ولعشيقته «ديزيريه كلاري» التي نُفيت معه لجزيرة «سانت هيلين».



الإمبراطورة جوزفين

ولعل ما يقوله الكاتب الفرنسي ذائع الصيت فكتور هيجو عن رسائل الحب، وهو: "أنها دائما هي الرسائل التي يجب البحث فيها عن بصمة قلب الرجل وآثار حياته أكثر من كل المؤلفات التي أمكنه كتابتها خلال عمره"- لعل هذا القول ينطبق أشد الانطباق على نابليون بونابرت.

كان نابليون بونابرت لنباهته أصغر الجنرالات عمراً، وكان معظم ضباطه في بداياته العسكرية أكبر منه سناً، حينها ظن نابليون ان زواجه من امرأة أكبر سناً سيعطيه عمراً اكبر بين مرؤسيه وهيبة أكثر.

احد مديريه "بول باراس" كان ينوء تحت مصاريف عشيقتين مكلفتين استطاع أن يفبرك زواج نابليون بإحداهما التي كانت تدعى ماري جوزيف روز دي بوهارنيس والتي عرفت لاحقاً باسم "جوزيفين" الاسم الذي اختاره لها نابليون حيث لم يعجبه اسمها السابق.

كانت جوزفين أكبر سنا من نابليون بأكثر مما كان يظن حتى إنها تخطت سن الإنجاب، والشيء الذي لم يعرفه نابليون في حينها لكنه لم يكن الأمر الوحيد الذي لم يعرفه عنها.

ففي خلال حملاته العسكرية كانت جوزفين تستغل غيابه لإقامة الحفلات أو المشاركة فيها متخذة عدداً كبيراً من العشاق، الأمر الذي كان معروفاً في أوساط باريس ومخفيا عن الجنرال المحارب في الجبهات الخارجية والذي كان يرسل لها رسائل العشق والغرام راجياً منها القدوم إليه إلى أن وصل بها الأمر إلى أن تدعي أنها حامل ولا تستطيع احتمال عناء السفر للحيلولة دون سفرها إليه وهربا من إلحاحه، وبعد عودة نابليون من حملة إيطاليا كان محبطاً جدا من الخبر الذي تلقته به زوجته إذ أخبرته أنها أجهضت.

جوزفين كانت زوجته الأولى (كما وصفها رئيس خدم الإمبراطور) ولدت في المرتينيك عام ١٧٦٣وكانت متوسطة القامة تقاسيمها متناسقة حركتها رشيقة ومشيتها خفيفة وإطلالتها مهيبةكما يليق بملكة مظهرها كان يعكس انفعالاتها وعيناها تكشفان كل مشاعرها.

كانت تبدو جميلة سواء في أوقات الحزن أو الفرح وكانت ابتسامتها معدية فيضطر المرء إلى أن يبتسم حين يراها تبتسم.

وإذا كانت حزينة فتشاركها حزنها عندما كانت تنظر إليك كانت تسحرك بنظراتها من دون أي مقاومة وكان يصعب عليها أن تنظر إلى الغير بقسوة ولكن ذلك لم يكن يفقدها هيبتها كان شعرها طويلا وناعما كالحرير ولونه كستنائي فاتح ينسجم كليا مع بشرة جلدها النضر كانت الإمبراطورة تتمتع بذاكرة قوية.

وكان الإمبراطور يعرف كيف يستفيد منها.. كانت موهوبة في الموسيقى وتعزف القيثار وتطرب سامعيها عندما تغني.



رسائل حب كتبها نابليون بخط يده لجوزفين

وكانت مرهفة الحواس وأحكامها صائبة سليمة ولايمكن أن نتصور أحكاما معصومة عن الخطأ كأحكامها كان مزاجها هادئا لا يتقلب بسهولة وتعرف كيف تقوم بواجباتها حيال أعدائها وأصدقائها على حد سواء وتعرف كيف تحل السلام والوئام محل المشاجرات والخلافات.

وعندما كان الإمبراطور يختلف مع أشقائه أو أشخاص آخرين وهذا ما كان يحدث له تكرارا كانت تدخل، ويكفي لها أن تتفوه ببضع كلمات كلمات حتى تحل المشكلات وعندما كانت تطلب من الإمبراطور العفو عن شخص ما نادرا ما كان يرفض طلبها أيا كانت خطورة الذنب.

وعندما كانت تعيش في قصر سان كلو الباريسي اعتادت الإمبراطورة على أن تستيقظ في التاسعة صباحا فتهتم بمكياجها وهندامها حتى العاشرة ثم تنتقل إلى ردهة الاستقبال لتلتقي بمن كان يحظى بموعد لمقابلتها.

وفي بعض الأحيان كانت تستقبل في الردهة نفسها الباعة المتعاملين معها وفي الحادية عشرة. وعندما يكون الإمبراطور غائبا تتناول الفطور مع مديرة التشريفات أو مع بعض النساء من حاشيتها كانت مديرة تشريفات الإمبراطورة السيدة روشفكو حدباء وقصيرة لدرجة أنها كانت تضطر عندما كانت تريد الجلوس إلى مقعدها أن تضيف مسندا إلى المسند الأصلي الموضوع على الكرسي لتتمكن من تناول الطعام بسهولة إلا أن هذه السيدة كانت تعرف كيف تعوض عن مظهرها بخفة روحها وذكائها المتقد ونبرة صوتها الناعم.

وبعد الفطور كانت الإمبراطورة تحب أن تلعب البلياردو وعندما يكون الطقس جميلا تتنزه في الحديقة أو المتنزه المغلق

ثم تعود إلى شقتها حيث تنسج بالإبرة بعض الرسوم على الأقمشة مع عدد من النساء اللاتي كن يطرزن الستائر من وقت إلى آخر. كان الإمبراطور يفاجئ إمبراطورته في ردهة الاستقبال وعندها كنا نطمئن إلى أنه سيكون مسليا ومحبا وفرحا كان العشاء يقدم في الساعة السادسة مساء إلا أن الإمبراطور كان يؤخره أحيانا حتى التاسعة أو العاشرة وكان نابليون يتناول العشاء أحيانا على انفراد مع الإمبراطورة وأحيانا أخرى بحضور مدعوين من الأمراء أو الوزراء.



ودرجت العادة أن ينسحب الجميع عند منتصف الليل سواء بعد حضور الحفل الموسيقي أو بعد حضور المسرحية إلا أن الإمبراطورة كانت تحب السهرة فكانت تلعب النرد مع أحد رجال التشريفات.

وكان السيد بومون هو من يحظى عادة بهذا الشرف كانت ترافق الإمبراطور في رحلات الصيد مع حاشيتها وهناك كان الجميع يتناولون وجبة الغداء معا وعندما كانت الإمبراطورة تأتي لشقة الإمبراطور لقضاء الليل معه كنت في الصباح ادخل كالعادة بين السابعة والثامنة ونادرا ما كنت أرى جلالتيهما نائمين فقد كان الإمبراطور يطلب مني عادة كوب شاي أو زهورات قبل أن ينهض من السرير وكانت الملكة تقول له :

-لماذا تريد أن تنهض بسرعة ؟

وكان الامبراطور يجيبها:

- ألا تحبين النوم أنت؟

وبعد بضع دقائق كانت الإمبراطورة تنهض بدورها فترتدي فستانها وتقرأ الصحف أو كانت تنزل من سلمها الخاص إلى شقتها ولكنها ما كانت تترك شقة الإمبراطور من دون أن توجه إلي بضع كلمات تنم عن طيبة قلبها ولطفها وكانت بالفعل طيبة للغاية وحساسة وسخية وتحاول أن تسعد الجميع الذين كانوا يحيطون بها.

كانت جوزفين تحب زوجها الإمبراطور حبا شديدا وحافظت على مشاعرها تجاهه حتى بعد أن عرفت بالعلاقة التي بينه وبين مدام دي بوهارني.

وكان الجنرال بونابرت ينظر إلى حوزفين على أنها المرأة الوحيدة التي أحبها وكانت تستحق ذلك.

وقال رئيس الخدم : " تأثرنا لسنين عديدة بالوفاق في حياتهما الزوجية كما تأثرنا بالمعاملة الحسنة التي كانا يتعاملان بها فكان الإمبراطور يرعى مشاعرها ويحترمها ويتفانى في سبيلها كنا نشعر بأنه كان يفرح عندما يقبلها على عنقها وخديها ويربت على كتفيها ووجهها وذلك لم يكن يمنعه في الحقيقة من أن يخونها أحيانا ولكن من دون أن يهمل واجباته الزوجية حيالها ومن جانبها كانت تحبه وتبحث جاهدة عن كل ما يمكن أن يرضيه وتحاول أن تدرك نواياه لتلبي أقل رغبة من رغباته.

في البداية ثارت غيرة الجنرال نابليون عندما استمع إلى الوشايات بحقها وعن مسلكها سيما حينما كان على رأس الجيش في مصر فلدى عودته طلب إليها أن تشرح له حقيقة الأمر وتوضح تصرفاتها وحدث أن تشاجرا في هذه المناسبة ولكن سرعان ما هدأت العاصفة فلم يكن بمقدور الإمبراطور مقاومة براءتها وجاذبيتها ونعومة طبعها.

الصدمة العاطفية الأكبر في حياة نابليون كانت في أثناء حملته على مصر حيث صارحه أحد أصدقائه الضابط "جونت" عن حقيقة أخبار زوجته في العاصمة الفرنسية، ويذكر سكرتير نابليون في تلك الفترة عن ذلك: لم أر وجه نابليون بمثل هذا الشحوب من قبل كان شحوبه يشتد أكثر فأكثر كلما استزاد "جونت" في الكلام، وكان يضرب وجهه بقبضتيه أكثر من مرة. وعندما تأكد من هذه الأخبار بنفسه، كانت هذه نهاية احترامه ووفائه لجنس النساء إذ أصبح من حينها يتخذ العشيقة تلو الأخرى.

وبعد وصوله إلى باريس امتنع عن رؤية جوزفين إلى أن رجته ابنتها "هورتنيس" أن يفعل ذلك، حينها أخبر جوزيفين أنها قتلت قلبه وبأنه لن يستطيع أن يحب مرة أخرى. نابليون أبقى على زواجه الصوري من جوزفين إلى أن تزوج ماري أنطوانيت ابنة إمبراطور النمسا، فأتم طلاقه من جوزفين لكنه أبقى على لقبها الإمبراطوري.

كان نابليون بونابرت شخصية مثيرة للجدل إلى حد ما، فقد تجد من يعتبره فاتحا ومحررا وحاميا لمبادئ الثورة الفرنسية وناشرا لها، وهناك من يراه ليس أقل من هتلر خبلا وجنون عظمة وتعطشا إلى سفك الدماء، عموما مهما كان رأي الفريقين يبقى نابليون عسكريا عبقريا وسياسيا محنكا ويشهد له بهذا التاريخ بعدة دلائل وشهود.

مهما كان من أمر، ما يجذب العالم في سيرة حياة نابليون هو رسائله الغرامية، فشخص عسكري وسياسي لا بد أن تكون الرومانسية أبعد ما تكون عنه كما هو متعارف عليه، لكنك تجد في رسائله رقة وصدقا وتعبيرا جميلا صحيح أنها لا ترقى إلى مصاف الشعر أو حتى النثر الشعري لكنها جميلة جدا، كما أني أعتقد أنك إذا أردت لمس قلب شخص معين فليس المطلوب هو كتابة معلقة ولزوم ما لايلزم كل ما هو مطلوب هو التعبير من القلب فقط، وأعتقد أنه من الغرابة بمكان أن يكون نابليون رقيقا ورومانسيا الى درجة ممرضة كما سنرى، نابليون الذي صاح بوجه أحد ضباطه الذي قال له إن عبور أحد الجسور مستحيل بجملته المشهورة :

"ماذا تقول؟ مستحيل؟ إن هذه الكلمة ليست فرنسية !"

رسالة إلى جوزفين حبيبة عمره وزوجته الأولى قبل زواجهما:

"إني أستيقظ ولا أرى أمامي غيرك. فإن صورتك والسهرة المسكرة التي قضيناها أمس لم تبقيا لحواسي شيئا من الراحة. فما هذا التأثير الغريب الذي أحدثته في قلبي يا جوزفين يا عزيزة المثال ! إني إذا رأيتك مكدرة الصفاء أو حزينة القلب أو قلقة الفكر تفطر فؤادي وفقدت الراحة.. أعطني ألف قبلة ! لا بل امنعيها عني فإنها تحرق دمي في عروقي ! "

رسالة أخرى إلى جوزفين، ارسلها لها من ايطاليا عندما كان يرأس حملته هناك:

" صارت حياتي كلها أحلاما مخيفة. وصرت كأني لست بين الأحياء.

وفقدت ما هو أغلى من الحياة والسعادة وكاد اليأس يتولاني. .

اكتبي لي عشر صفحات فإن هذا هو الأمر الوحيد الذي يعزيني بعض التعزية..

قلت إنك مريضة، وإنك تحبينني، وإنني أحزنتك، وإنك حامل.

فإذا أذنبت إليك ذنوبا عديدة لا ادري كيف أكفر عنها

فاغفريها لي واعذريني أيتها الصديقة

لأن حبك ذهب بعقلي فلست أجد إلى التفكير سبيلا. . "

" إن ما بي من الداء لايقبل الشفاء

وما عندي من الأفكار السوداء بلغ حدا صرت معه أكتفي بأن أراك

فأضمك ساعتين إلى قلبي ثم نموت معا. ..

ألا خبريني من يعتني بك ؟

أظنك دعوت هورتنس إليك. .

إن حبي لهذه الفتاة اللطيفة زاد ألف ضعف

منذ عرفت أنها تقدر على انزال شيء من السلوان على قلبك

أما أنا فلا عزاء لي ولا راحة

ولا أمل قبل أن يرِد عليَّ كتاب طويل منك

أعرف منه ما هو مرضك

فإذا كان خطرا عليك فإني أسرع إلى السفر نحوك. .

أيتها الصديقة قولي إنك مقتنعة كل الاقتناع

بأن حبي لك يتجاوز ما يستطيع الفكر أن يتصوره

وبأني لا أفكر في امرأة غيرك

وبأن كل النساء هن في نظري عاطلات من حلى اللطف

والظرف والجمال والذكاء

وبأنك وحدك تعجبينني وتروقين ناظري

وبأن قواي وساعداي ومداركي

كلها لك وروحي مقيم في جسمانك

فاذا متِّ متُّ أنا معك. .

أيتها الصديقة المعبودة

أنا مريض لمرضك والحمى تتسعر في جسمي

فلا تدعي البريد يتأخر أكثر من ست ساعات

بل أعيديه إليَّ على عجل بكتاب من سيدتي ومولاتي. .. "

على فكرة وقتها كانت جوزفين ليست مريضة فعلا، إنما كنا تخترع الحجج تحت ضغط طلب نابليون المتواصل منها ترك باريس والالتحاق به في حملته على إيطاليا.

ورغم آرائه السلبية ضد النساء وإخضاعهن لتبعية الرجل، إلا أنه كان له رأي آخر في النساء.. ويُنسب له القول الشهير «إن المرأة التي تهز السرير بيمينها تهز

العالم بيسراها». وهناك من يعتقد أنه غزا العالم للتعويض عن حبيبته الضائعة.

جوزفين المولودة عام ١٧٦٥ في عائلة نبيلة، وكانت رائعة الجمال. سجنت بعد انتصار الثورة، وبعد خروجها من السجن تخلت عن وقارها، وعاشرت الكثير من الرجال. وكانت نهاية مطافها عشيقة للقائد العام للثورة الفرنسية.

وكان نابليون يعمل تحت إمرة هذا القائد واسمه «بارا». واستطاع نابليون- عن طريق رتبته العسكرية- الوصول إلى صالونات القيادات العسكرية، وشاهد جوزفين وهو في الثامنة والعشرين من عمره. أعجب كلاهما بالآخر. وتعاشقا حتى تزوجا. ولم يدم شهر العسل أكثر من يومين، حيث تم استدعاء نابليون لقيادة الجيش في إيطاليا.

لقد سحقت جوزفين عظمة نابليون، إذ رغم أنها كانت تخدع زوجها إلا أنه يحبها ويشاطرها العلاقة الزوجية.

وبعد زواجهما، يرسل لها رسالة يقول فيها: «إن خطاباتك يا جوزفين، باردة جداً، كأن زواجنا مر عليه ١٥ عاماً، أنا لم أعد أحبك مطلقاً. أنا أمقتك، أنت إنسانة خسيسة، وقحة، فماذا تفعلين طوال اليوم بما أنك لا تكتبين إلا تلك الرسائل الباردة.

ولكي يتخلص نابليون من زوجته وذكراها اتخذ لنفسه عشيقة أخرى في مصر؛ أطلق عليها الجنود اسم كيلوباترا الشرق.

ولقد أرسل زوجها إلى الإسكندرية، ليخلو له الجو ولما عاد زوجها من رحلته، علم بالأمر، ونشب صراع بينه وبين نابليون. حيث طلق الزوج زوجته الخائنة، لم يتزوجها نابليون لأنه لم يكن يريد تطليق جوزفين. كما أنه كان خائفاً من أن تنجب له طفلاً.

عندما عاد نابليون إلى فرنسا في ١٧٩٩ ولم يجد جوزفين. فأصرت عليه أسرته توقيع العقاب على زوجته الخائنة. فقرر أن يطلقها رغم اعتذارها.

وتدخل ابناهما، وأذعن نابليون وعاد لزوجته. لكن «ذَنَب الكلب أعوج» فلما تم نفي نابليون إلى جزيرة «سانت هيلانة» عادت جوزفين إلى سيرتها الأولى في

معاشرة الرجال.

«فوداي» العشيقة الثانية في حياة نابليون وكانت إحدى وصيفات «جوزفين» ولقد ارتبط بها نابليون غرامياً ولما كثرت طلباتها المالية نتيجة إدمانها على القمار تركها نابليون وابتعد عنها.

مرغريت ويمر جورج كانت ممثلة دعاها نابليون إلى مقره الرسمي وأصبحت بينهما علاقة. لم يتزوجها قبل تتويجه، بل عرض عليها أن تتزوج أحد جنرالاته حفاظاً على سمعته.. لكنها ردت عليه بعبارة شهيرة تقول: «لا.. صحيح أنني ممثلة وفنانة، لكني أرفض تمثيل هذا الدور، فالذي يرضى لنفسه القيام بهذا الدور خال من الشرف والرجولة والكرامة».

■ ■ ■

٣

ماري لويز..
حفيدة ماري انطوانيت

النمساوية ماري لويز كانت زوجة نابليون الثانية.. ولدت في ١٢ ديسمبر ١٧٩١في فيينا (النمسا) وتوفيت في ١٨ ديسمبر ١٨٤٧ في بارما في إيطاليا هي ابنة إمبراطور النمسا فرانسوا الأول وحفيدة الملكة ماري إنطوانيت التي شنقتها الثورة الفرنسية.

كان نابليون قد طلق جوزفين دي بوهارني لأنها لم تلد له وريثا وقبل عرض إمبراطور النمسا بعد أن أرغمه على اتفاقية سلام إثر انتصاره وكالعاشق المغرم لم يتمكن الإمبراطور إلا ان يذهب بنفسه ليستقبل عربة ماري لويز في "كومبيانيه".

ومن دون ان ينتظر الزواج رسميا أراد في الليلة نفسها أن تقوم عروسه بواجباتها الزوجية.

وفي الغد قال لأحد ضباطه: تزوج ألمانية يا عزيزي فالألمانيات من أفضل نساء العالم فهن يتميزن بالنعومة واللطف والبساطة وهن نضرات كالورد.

وفي يوم الإثنين في الثاني من أبريل ١٨١٠ تزوج نابليون (٤٠ عاما) رسميا من ماري لويز النمساوية (١٨ عاما).

وبعد أقل من عام أي في ٢٠ مارس ١٨١١ ولد ولي العرش المنتظر وتولت مدام موتسكيو تربيته ولم تهتم به الإمبراطورة إلا قليلا ربما لأن آل هاسبورغ (النمسا) ومنهم ماري لويز نشأوا على الحقد على نابليون واحتفظت

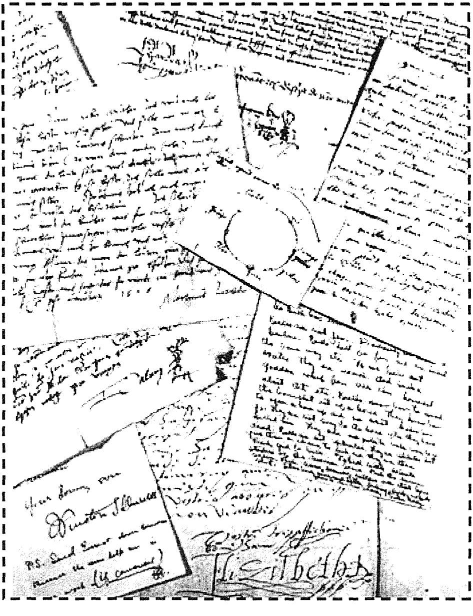
الإمبراطورة بهذا الشعور المعادي حتى بعد الزواج الذي كان في الحقيقة بمثابة تحالف سياسي بين الإمبراطوريتين.



وبعد هزائم نابليون لم ترافقه لا إلى حزيرة ألبا ولا إلى جزيرة سانت ايلين وعادت مؤقتا إلى النمسا قبل أن تصبح بموجب بيان مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ملكة على مناطق إيطالية.

ومكثت في بارما حيث حكمت حتى وفاتها عام ١٨٤٧ وبعد وفاة نابليون الأول تزوجت في الثامن من أغسسطس كونت دي نيبرغ آدام ادلبرت ثم تزوجت للمرة الثالثة بكونت دي بومبيل شارل رينيه في بارما حيث توفيت في ١٨ ديسمبر ١٨٤٧ عن ٥٦ عاما.

ولعله من العجيب تلك الحركات التي كانت تأتي بها الإمبراطورة ماري لويز زوجة نابليون بونابرت فقد كانت تقلب أذنيها بحركات بسيطة وفي أي وقت شاءت حتى يصير بطن الأذن ظاهرا وتثني طرفيهما.



رسائل حب كتبها نابوليون لماري لويز

وكان نابليون يحب أن يراها تفعل ذلك لغرابته فكان رجال البلاط يستدعونه إلى قاعة الجلوس كلما أمكنهم إغراءها بأن تفعل بأذنيها ذلك.

وقد ثبت ذلك عنها تاريخيا إذ ورد في مذكرات داليمير الذي كان كبير الأمناء في البلاط الفرنسي وذكرته أيضا الدوقة دابرانتيه وإحدى وصيفات الإمبراطورة.

وقد توقف المؤرخون طويلا عند غراميات نابليون وزيجاته ورسائله.. هذه الرسائل إليكم بعيدا عن أجواء السياسة والأزمات وما إلى ذلك من الأمور المؤلمة لنعيش جوا جميلا مع إمبراطور الحرب والحب نابليون بونابرت فهو فعلا شخصية تستحق أن نتعلم منها الكثير.

وهذه هي المرة الأولى التي تفسر فيها كامل رسائل نابليون بونابرت إلى زوجته جوزفين في مجموعة واحدة وقد أودعت في مكتب الوثائق الوطني الفرنسي عام ١٩٧٩، ورغم أن القيمة التاريخية والأدبية لهذه الرسائل محدودة فإنها سحرت جميع الذين قرؤوها منذ عام ١٨٣٣ وهو تاريخ ظهورها الأول في المكتبات الفرنسية.

كيف نفسر الاهتمام الذي لاقته دوما رسائل نابليون الغرامية؟ لاريب في أن شخصية الرجل العظيم هي سبب هذا الاهتمام لا جمال الإنشاء او قوة العواطف.

كثيرون من الطلاب كتبوا رسائل حب لاتقل عن رسائل بونابرت شوقا وهياما ولكنها ظلت رسائل مجهولة فلم تنتشر في أوروبا قاطبة.

ومنذ أقدم العصور كان حب الملوك وغراميات الأمراء تثير مخيلات الناس أكثر من عواطف العامة.

كيف كان يتصرف نابليون العاشق ؟ إن هذا القائد العظيم الذي قاد الجيوش منتصرا وحكم نصف أوروبا بدأ حياته العاطفية منكسرا خائبا.

لقد عرف الجنس للمرة الأولى مع إحدى بنات الهوى. ثم فكر بالزواج وهو لم يتجاوز مرحلة الصبا الأولى. أحب أول من أحب فتاة اسمها (إيما) فصدته ولم تبال برسائله الغرامية المشتعلة.

ومن الأسهل اقتحام حصن حصين من الاستيلاء على قلب امرأة لا تحبك. وبعد الآنسة إيما وقع نابليون في غرام الآنسة (ديزيري كلاري) وكتب إليها يبثها شوقه وهيامه أملا في الزواج منها.

ويبدو أن خلافا وقع بين (قيس) الفرنسي وبين (ليلاه) فانتهى هذا الحب الثاني إلى لاشيء. وعندما تعرف نابليون إلى جوزفين كان شابا يحمل في صدره قلبا ذاق خيبة الحب ,وهو القليل التجربة في ساحة الهوى، أما هي فكانت أرملة تكبره بسنوات ,ومعشاقة عرفت الكثير من رجال الثورة الفرنسية.

وكان لها بينهم عشاق كثيرون في طليعتهم (باراس) كبير أعضاء الحكومة الثورية. وهكذا التقى الشاب الساذج غير المجرب بالمرأة الناضجة عاطفيا والمعتادة على إغراء الرجال.

كانت أسلحة الفريقين غير متكافئة وبالتالي سيطرت جوزفين على نابليون جسدا وقلبا.

كانت المرة الأولى التي عرف بقربها (اللذة) بكل معانيها. جذبته جذبا وأصبح أسيرها قبل أن يصبح قائدا كبيرا يأسر الآلاف من الرجال. وقد بلغ من حبه لها أنه لم يلاحظ أبدا أنه كان الزوج المخدوع منذ بدء حياته الزوجية.

وما أن تزوج حتى كلفته حكومة الثورة الفرنسية بقيادة الجيش الفرنسي في إيطاليا. اضطر الى ترك باريس والالتحاق بالجبهة الإيطالية مخلفا وراءه زوجته الحبيبة وفي قلبه شوق إليها لم يرتو وفي دمه نارا لم تتطفئ.

أما هي فلم تبال بغيابه واستمرت في حياتها المتهكتة مع ضابط شاب اسمه (لويس هيبوليت شارل) كان نابليون أوفده اليها ليطمئن عليها ويطمئنها عن أحواله. إلا أن الرسول الشاب اعجب جوزفين فاحتفظت به ولم تعده إلى مرسله.

هل عرف نابليون أن زوجته تخدعه؟ كان نابليون آخر من عرف وقد عرف ذلك أثناء وجوده في مصر وبعد مدة طويلة من الخيانة الزوجية. وبعد أن عاد من مصر إلى فرنسا أراد أن يفترق عن جوزفين ولكن مصلحة الفريقين قضت بالتسامح وغض النظر والسكوت. عنما عرف نابليون بخيانة جوزفين كان قد

أصبح قائداً لامعاً فلم يعد من مصلحة القائد الكبير أن يكرس نفسه مخدوعا بطريقة رسمية وبواسطة الطلاق. يجب أن تبقى زوجة الإمبراطور فوق الظنون. ولا يجب أن نعتقد أن نابليون ظل مغرما بجوزفين دون هوادة. لقد عرف بعدها نساء كثيرات. وهي بدورها تبدلت عاطفتها نحوه.

وسنجد في رسائل نابليون إلى جوزفين ملامح هذا التطور. في البدء كان بونابارت مغرما يكتب الرسائل الحارة إلى زوجته التي كانت لا تبالي بما يكتبه لها. وفيما بعد خفت وبردت عاطفته. ولما أحست جوزفين بتحول زوجها عنها استيقظت الغيرة في قلبها ولم تطق تحرر نابليون من سيطرتها العاطفية. أخذت تبكى وتندب حظها وتثير الخلافات المتواصلة معه. اصبحت هي التي تلاحقه وتلح وتطارده. وإننا نجد في رسائله تعابير متهتكة تعبر عن نار وجده.

وبعد طلاقه منها ظل يراسلها فكانت رسائله تتضمن الحنان والكآبة إنها رسائل رجل هدأت عاصفة حبه فبدا مخلصا فيما يكتب وبعيدا عن أي غرض. ولا ريب في أن رسائل ما بعد الطلاق مؤثرة أكثر من الرسائل الأخرى.

وبكل أسف لم يصلنا من رسائل جوزفين إلى نابليون إلا القليل وبعد هذه اللمحة السريعة عن علاقة نابليون العاطفية بجوزفين ننقل للقراء فيما يلي ترجمة لبعض رسائله إليها. ولكن قبل ذلك لا بد بالإدلاء ببعض الملاحظات :

أولاً: من الوجهة التاريخية لم تثبت ظروف لقاء نابليون بجوزفين.

ثانياً: عندما تعرف نابليون إلى جوزفين كان يخلو من الجاذبية وكان فقيرا. ويبدو من المعقول أن الخطوة الأولى والبادرة في التقرب منها ظهرت عنه لا عنها.

وقد قبلت به زوجا لأنها بلغت جانبا من العمر وكان عليها أن (تفكر في آخرتها). وقد دفعها (باراس) كبير أعضاء حكومة الثورة إلى القبول بنابليون ليتخلص منها إذ كانت عشيقته المكلّفة والذابلة.

ثالثاً: إن شهادات الذين عرفوا جوزفين والتي وصلتنا لا تثبت جمالها. إلا إنها كانت امرأة ذات شهية وكان خريف العمر يلقي عليها ظلا من الجاذبية الخاصة.

وخلافا لما زعمه البعض لم يكن طموح نابليون هو الدافع إلى الزواج منها وهي السيدة صاحبة العلاقات الاجتماعية الرفيعة.

إن رسائل نابليون تبين أنه كان مجذوبا إليها بسحر الجنس وقوة الشهوة. وعلى كل حال لم يكن نابليون ذلك العارف بالنساء وبأساليب الإغراء.

كان في الحب مثلما كان على مائدة الطعام. كان دوما مستعجلا. لذلك لم يكن من مبرر لأن يكون متطلبا وكانت جوزفين تشيع عنه أخبارا في الغراميات لا يليق أن نذكرها هنا.

وكنا نأمل في أن نجد في رسائله إليها تأملات وآراء في الاقتصاد الإيطالي في أواخر القرن الثامن عشر او في الأساليب الحربية التي اعتمدها عندما كان يكتب إليها في إيطاليا. فإذا به يملأ رسائله بالعواطف المتدفقة المشتعلة المراهقة.

رابعاً: عندما كان نابليون يقود جيش الثورة الفرنسية في إيطاليا كتب إلى جوزفين يستعجل مجيئها إليه متوسلاً. ولكنها رفضت وحاورت وداورت متذرعة بشتى الأكاذيب. ولما أعيتها الحيل زعمت أنها حامل لا يمكنها التنقل.

كانت تفضل البقاء في باريس لتلهو وتعبث بقرب عشيقها الضابط الجميل.

ولكنها اضطرت أخيرا إلى الرضوخ، ولحقت به وبقيت معه قليلا وعادت إلى باريس بعد وقت قصير، ويبدو أن شكوك نابليون في سلوكها قد بدأ وقت إذن ولم تتحول الشكوك إلى يقين إلا أثناء حملة مصر.

والآن الى القراء ترجمة بعض الرسائل المرسلة الى جوزفين من نابليون وهي تمثل خير تمثيل تطور عاطفته نحوها من الحب المشتعل والشوق القوي إلى الهدوء.

وقد ذكرنا فى مسبق نموذجا من الخطابات التى أرسلها إليها.

عموما مهما كان رأي الفريقين يبقى نابليون عسكريا عبقريا وسياسيا محنكا ويشهد له هذا التاريخ بعدة دلائل وشهود.

مهما كان من أمر، ما يجذبنا في سيرة حياة نابليون هو رسائله الغرامية،

فشخص عسكري وسياسي لا بد أن تكون الرومانسية أبعد ما تكون عنه كما هو متعارف عليه، لكنك تجد في رسائله رقة وصدقا وتعبيرا جميلا صحيح أنها لا ترقى إلى مصاف الشعر أو حتى النثر الشعري لكنها جميلة جداً، كما أني اعتقد أنك إذا أردت لمس قلب شخص معين فليس المطلوب هو كتابة معلقة ولزوم ما لايلزم كل ما هو مطلوب هو التعبير من القلب فقط، واعتقد أنه من الغرابة بمكان أن يكون نابليون رقيقا ورومانسيا.

وذلك كما ذكرنا سابقاً.

■ ■ ■

8

نابليون بونابرت في ذاكرة التاريخ



١

نابليون بطل.. أم ديكتاتور

لم يشغل نابليون بونابرت في القرنين الماضيين بال المؤرخين وحدهم، وإنما شغل أيضاً، الفلاسفة والكتاب، والشعراء والباحثين على اختلاف ألوانهم، فهذا الرجل الذي ملأ الدنيا في عصره وشغل الناس بعد مماته كان فلتة من فلتات الطبيعة، وشخصية فذة ذات جوانب كثيرة ومثيرة للجدل.

وبطبيعة الحال فقد اختلفت الآراء في تحليل شخصيته، وتقدير أعماله ومواقفه، فأحبه أناس، وغالوا في ذلك، وكرهه آخرون وأكثروا من تعداد سلبياته، وإحصاء عيوبه، وحتى إنهم اختلفوا حول موته فمنهم من يرى أنه مات ميتة طبيعية ومنهم من رأى - بتحليل شعرة من شعر رأسه - أنه مات بسبب جرعات من السم كانت تدس له بمقادير ضئيلة من قبل مرافقه مونثولن الذي كان دافعه لذلك ضيقه من الإقامة الطويلة في جزيرة سانت هيلانة، وقد وجد أن التعجيل بالقضاء على حياة نابليون يجعل العودة إلى فرنسا أقرب.

وقد يكون لكل منا رأي خاص بناء على قراءاته لهذا القائد الفرنسي، ولكن المثير في الأمر هو تباين الآراء لدى بعض مشاهير الأدب والفلسفة والباحثين على اختلاف ألوانهم. فهل كان نابليون بطلاً أم ديكتاتوراً ؟

يقول الفيلسوف الألماني " آرثر شوبنهور " لم يكن نابليون في الحقيقة والواقع أسوأ من الكثيرين، إن لم نقل من أكثر الناس سوءاً. فقد كانت تسيطر عليه تلك الأثرة العادية التي تبحث عن مصلحتها على حساب غيرها من الناس، والذي ميزه عن غيره هو أنه كان أقدر من غيره على إشباع رغبته، وكان أعظم

ذكاء وعقلاً وشجاعة، ويضاف إلى ذلك أن المصادفة أتاحت له مجالاً للعمل.

وبهذه الوسائل جميعها استطاع أن يعمل من أجل أثرته ما يريد أن يصنع ألف رجل آخرون من أجل أثرتهم لو استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وكل غلام عاجز قد استطاع ببعض الفعلات الدنيئة أن يظفر لنفسه ببعض المزايا عن طريق الإساءة إلى الغير ،فإنه بالرغم من هوان شأن تلك الإساءة يشبه نابليون تمام الشبه في السوء والشر.

والذين يتوهمون أن العقوبة تجيء بعد الموت يطلبون أن يلقى نابليون العقاب الشديد عقاباً له على ما رمى به الناس من فوادح الخطوب، ولكنه ليس أكثر إجراماً من هؤلاء الذين يملكون الإرادة نسها ولكنها غير مصحوبة بنفس القدرة".

ولنترك الفيلسوف العابس المتجهم المتشائم شوبنهور لنرى كيف كان ينظر إلى نابليون الكاتب الساخر كثير الشكوى أناتول فرانس وكان أكثر رفقاً بنابليون فقال عنه " أكبر ظني أن نابليون، وقد خلق للمجد، يبدو في البساطة الساطعة التي تميز أبطال الملاحم، لابد أن يكون البطل إنساناً.

وقد كان نابليون كذلك، فقد كان عنيفاً متهوراً، ومن ثم عمق إنسانيته، وأقصد بذلك أنه كان كغيره من الناس.

وقد كان يتطلع إلى الاستمتاع بالنفوذ الذي لا يُحد، وهو ما يقدره الرجل العادي ويتطلبه، وهو نفسه كانت تتملكه الأوهام التي كان يوحيها إلى نفوس الناس، وكانت هذه الأوهام مصدر قوته وضعفه، وكانت أهم حلية يزدان بها، وكان يعبد القوة عبادة مخلصة.

وكان رجلاً بين الرجال يشبههم ويشاكلهم، ولم تجل بذهنه فكرة دون أن ينقلها إلى عالم العمل، ونابليون مثل للبطولة الكاملة، ولم يكن عقله أسرع من يده، ولم يحفل لحظة واحدة بشيء لا يستطيع تحقيقه.



وقد أوهمه خرفه المحزن الرهيب أن الإنسان قد يكون عظيماً، كان يملك قدرة فائقة على تسلية نفسه، لقد عاش خارج نفسه، والمهولات لا وجود لها في حياته، وقد كانت تحبه أمَّة بأسرها، وكانت قوته في إشعال الحب بقلوب الرجال أينما حل، وكان جنوده يسرون أن يجودوا بالحياة من أجله "

واختص الكاتب الأمريكي الكبير رالف والدو أمرسون نابليون بأحد فصول كتابه الرجال النواب . وقال فيه " ليس بطلاً بالمعنى السامي للكلمة، وقد كان نابليون معبود الناس العاديين لأنه كان فيه بصورة فائقة صفات الناس العاديين وقدراتهم " ويسترسل أمرسون " كان رجلاً يعرف في كل لحظة وفي كل طارئ ماذا يعمل، ومعظم الناس يعيشون من اليد للفم بلا خطة مرسومة.

ولم يكن نابليون ميالاً إلى سفك الدماء، ولا قاسياً فظًا غليظ القلب، ولكن الويل لمن كان يقف في طريقه، وكان لا يرى سوى هدفه، وأما العقبة فيجب أن تزول، ولم يكن هجومه من وحي الشجاعة، وإنما كان نتيجة الحساب والتقدير.



كان نابليون مجرداً من العواطف الكريمة بشكل غير عادي، وبرغم المكانة السامية التي بلغها لم يكن فيه مزية الصدق ولا الأمانة، وقد كان يجور على قواده، ويعزو أعمالهم الباهرة إلى نفسه، وكان كذوباً مسرفاً في الكذب، وقد جلس في شيخوخته بالجزيرة المنعزلة ليزيف الوقائع والتاريخ ".

إلا أن الشاعر الألماني هنريك هيني لم يكن رأيه كذلك، لقد كان شديد التعصب لنابليون مسرفاً في الإعجاب به وكان في نظره رمزاً للقوة والمجد الأرضي وعندما زار نابليون سنة (١٨١١) مدينة دوسلدورف رآه (هيني) بالعين فوصفه قائلاً: "سبحانك يا رب، هذا الإمبراطور "، وبعد موت نابليون كان هيني دائما يكبر ذكرى هذا الرجل " الذي ضاقت به الأرض "ويخاطب الإنكليز" إنكم تملكون البحر ,ولكن البحر ليس فيه من الماء ما يكفي لغسل العار الذي خلفه لكم هذا الرجل العظيم

بموته " وقد ظل إعجابه لنابليون حتى آخر حياته ,وكان - هيني - يحقد أشد الحقد على القائد الانكليزي ولنجتن قاهر نابليون في معركة واترلو لمجرد أن اسمه سيترامى على مسمع الأجيال مقترنا باسم نابليون العظيم.

ولكن نابليون تعرض أيضاً لحملات شديدة من الكاتبة الفرنسية مدام دي ستايل التي قالت عنه " إنه كان رجلاً تسكته المقاومة الحقة، وإن الذين صبروا على طغيانه واحتملوه هم شركاؤه في الذنب، وأنه لو لقي بين خصومه رجلاً مستقيماً قوي الأخلاق، لأوقفه ذلك عند حده، وإن سر براعته قدرته على إرهاب الضعفاء والاستفادة ممن لا أخلاق لهم.

وقد كان حينما يلقى الشريف وجهاً لوجه تبطل حيلته، كما تقصي الأرواح الشريرة علامة الصليب " وتردف : "إنه أنموذج مستوفي الشرائط للأناني المجرد من العطف الإنساني والذي يرى الناس آلات محتقرة، وقطعاً من رقعة الشطرنج، وهو غريب أجنبي بين الفرنسيين، لا وطن له، ولا إيمان وهو لا يسعى إلا لمجده الشخصي، وعظمته الفردية. .. وليس للدين ولا للآداب في رأيه من قيمة إلا بمقدار ما تساعده على إعلاء سلطاته وبسط نفوذه، فهو الطاغية بمعنى الكلمة.

وقد كان للكاتب والدبلوماسي الفرنسي فرانسوا شاتوبريان رأيه عندما حاول نابليون القضاء على حرية الصحافة فقال " " كثيراً ما حولت آلهة الفن تصوير الجرائم ولكن لغة الشاعر بها من الرقة والنعومة ما يعين على الزخرفة، حتى زخرفة الجرائم.

والمؤرخ وحده هو الذي يستطيع أن يصف الجرائم دون أن يقلل من فظاعتها، وحينما لا يسمع خلال الصمت الوضيع سوى صلصلة قيد العبد أو صوت الجاسوس، وينفض الجميع رعباً أمام الطاغية. ...".

وعندما قرأ نابليون كلام شاتوبريان قال " أيظنني شاتوبريان أحمق لا يستطيع فهمه ؟ سأجعله يضرب بالسيف على درج التويلري ".

وفي عام (١٨١٤) أصدر شاتوبريان رساله قال فيها عن نابليون إنه الهدام

الذي يحتقر الناس، وأنه كورسيكي أجنبي يضمر الاحتقار للفرنسيين. ... وقد كان مجمل رأيه أن نابليون كان طاغية مستبداً.

ويرى الكاتب المؤرخ الإنكليزي هربت جورج ويلز أن نابليون سنحت له فرصة لم تسنح قط لرجل في العالم من قبل. أما قوانينه فمعظمها كان من عمل مجلس الدولة، وإنه يبدو أن نابليون كان يعطل مناقشات ذلك المجلس ويعوقها أكثر مما يساعدها.

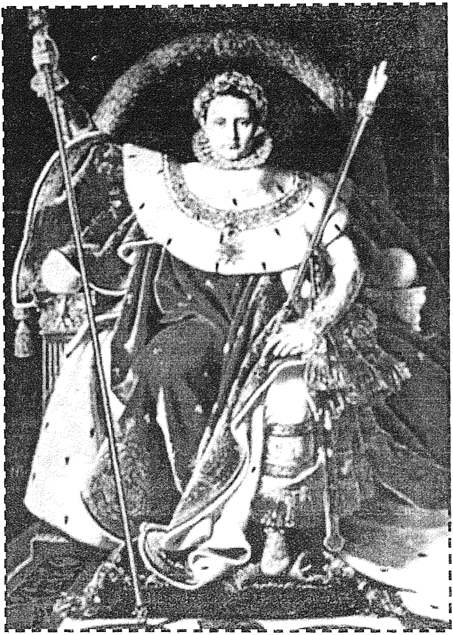
وكان يلقي في بعض الأحيان على أعضاء المجلس محاضرات طويلة خارجة عن الموضوع المطروح للدراسة، ويستبقي مستشاريه إلى ساعات متأخرة من الليل ويظهر افتخاراً ساذجاً بقدرته الفائقة على السهر.

ويرى ولز أن الشخص الذي عرف نابليون حق المعرفة هو والدته، وكأنها كانت تشعر بأن ملكه قائم على الرمال، وتقتصد من النقود التي كان يرسلها إليها، وحين لامها على ذلك قالت له " إن ادخاري هذا سيكون موضع سرورك عندما ينتهي كل شيء "!!

أما الباحث التشيكي يهودي الأصل بول روبكزاك يقول " يمكن أن يمثل نابليون نقيض النزعة الرومانتيكية تمثيلاً تامًا، فقد كان الرجل الذي يستطيع أن ينتهز كل فرصة تلوح له بدون أي تردد أو تحفظ.

وكان الرجل الذي لا يرى أن هناك شيئاً من الضآلة بحيث لا يستحق الاهتمام به، ولا أن هناك شيئاً من العظمة بحيث يكون متعذر التحقيق، وكان الرجل الذي يستطيع مواجهة كل موقف.

ويعلل روبكزاك سقوط نابليون، بأن العوامل المكونة لحياة نابليون كان كل منها قويًا في انفراده وباهراً، ولكنه لم يستطع التوفيق بين تلك العوامل وأن يربطها ربطاً صحيحاً سليماً، لذلك لم تساعد - العوامل - على ازدهار حياته وإنما أدت إلى تحطيمها.



آخر صورة لنابليون قبل النفي

لقد تكاثرت وجهات النظر حول هذا الرجل، فقد أعجب به فريدريك نيتشه ورآه شبيهاً بسيزار بورجيا وتحامل عليه المؤرخ الفرنسي بييرلانفري ودافع عنه المؤرخ الفرنسي فريدريك ماسون. وأهداه بيتهوفن السيمفونية الثالثة (البطولة) ثم عاد وسحب إهداءها إليه. نعم لقد كان رجلاً مثيراً للجدل إلى أبعد الحدود - حتى في عشقه وهيامه.

■ ■ ■

٢

نابليون وهتلر
أوْجُهُ الشَّبَهِ والتناقض

مفهوم العظمة من المفاهيم الشديدة التعقيد، التي تنعش ذاكرة المرء، وتغريه للوصول إلى مستوى العظمة. هناك عوامل عديدة تساهم في تكوين الشخصية العظيمة، وتخلد اسمه عبر التاريخ، ربما بعضها إيجابي، وبعضها الآخر سلبي، لكننا كقراء للتاريخ، لا نستطيع أن نحكم على هؤلاء إلا بالعظمة.

لقد كرس الكاتب إميل لودفيغ معظم مؤلفاته في كتابة السيرة الذاتية، لعدد كبير من القادة السياسيين، وبعض المفكرين.

يستعرض للقارئ في كتابه" من العظمة" مقارنة بين أهم قائدين قورن اسماهما بمفهوم العظمة: نابليون وهتلر، حسب رأيه عظمة هتلر مالت إلى السلبية وهو يقول:" إن هتلر لم يعرف سوى التخريب، وكان همه السيطرة على العالم".

بينما حملت عظمة نابليون صفات إيجابية وهو يقول:" استطاع نابليون في ليلة انقلابه، تأليف لجنة لوضع قوانين جديدة، للقضاء على الفوضى، حيث لا تزال بعض قوانينه فعالة حتى وقتنا الراهن".

برأي لودفيج أهم العوامل التي ساهمت في عظمة نابليون، أنه كان يعامل أعداءه برقي، يروي لنا أحد المواقف التي تدل على نبل نابليون، حيث كان نابليون في إحدى الأيام يصطاد، وأثناء مروره أمام كوخ شاتوبريان أحد أعدائه، قام بقطع غصن من الغار، ومدَّه أمام بابه، ووضع عليه قفازه.

وعندما كانت زوجته تلد له وارثه، سأله الطبيب: إننا لا نقدر على إنقاذ الأم ما لم نضح بالولد. كان جواب نابليون: أنقذ الأم في بدء الأمر.

يؤكد لودفيغ بأن العظمة غالبا غير خُلقية، يأتي لنا بمثال مواهب كازنوفا الغرامية.

هل مغامرات كازنوفا كانت أخلاقية حتى يصبح عظيما؟. . لكن هل عظمة هتلر كانت سلبية بمجملها كما يعتقد لودفيغ؟

امتاز هتلر بقوة داخلية خلاقة، يقول كولن ولسن:" بعض الرجال يفتقرون إلى التدريب الأخلاقي الأخطر بين أنماط الجنس البشري". يؤكد ولسن بأن نابليون وهتلر يمتازان بهذه القوة الداخلية، ويشبه قوة هتلر في نواح كثيرة بقوة راسبوتين، من حيث استخدام هتلر تعبير التنويم المغناطيسي في تأثيره على جمهوره.

يروي" كيرت لوديك" أحد القادة الاشتراكيين بأنه حضر في أحد الأيام خطاباً لهتلر ولشدة تأثره في بلاغة هتلر الخطابية، كاد ينضم إلى معسكر هتلر يقول: أنَّى لي أن أنأى عن سطوة قوته؟ إنها تمسك بي وتؤرجحني.. لست أنا فحسب بل جميع من كان في الصالة، لقد أسرني شعور أن أتخلى عن إرادتي لقيادته".

كان هتلر يهتم كثيراً في توقيت الخطابات، التي يلقيها، حيث كانت معظم الخطابات تلقى في الليل، ووجهة نظر هتلر بأن الحديث في الليل له أثر أكبر وأعمق على الجمهور.

يعتقد لودفيغ بأن العظمة الذهنية هي الأساس والأهم والأبقى، يقول:" هناك أبطالٌ كثيرون ليسوا من العظماء، وعظماء كثيرون ليسوا من الأبطال.

فالجندي الذي استطاع بجسارته ومهارته أن ينقذ ثمانين جندياً من زملائه في دنكرك، وإن كان جديراً بأن يعلق على صدره وسامٌ، وأن ينظم له أنشودة، وان يقام له تمثال، لا مكان له في معرض العظماء".

حسب رأيه الموت هو المفتاح الذي تعرف به حياة الرجل، وهل من مثال على كلام لودفيغ أكثر أمانة كموت سقراط. حيث مات بمحض إرادته، رغم أنه كان باستطاعته الهروب.

عندما نعود إلى نابليون، الذي عاش عظيما ,ومات عظيما، ونتذكر مذكراته في المنفى، حيث كان يعيش في المنفى حزيناً، نعرف لأية درجة صاغ حياته كرجل

عظيم يقول:" إن للمحنة جانباً طيباً فهي تعلمنا الحقائق.. الآن فقط أستطيع أن أفكر في العصور كفيلسوف".

فيما لو استعرضنا الأيام الأخيرة لبسمارك، سنلامس العظمة في بعض جوانب شخصيته.

في عام ١٨٦٦ كانت من أكثر اللحظات حرجاً في حياة هذا الرجل، حيث رأى نفسه مستقيلاً، والكل يعارض رأيه، الملك والجنرالات.

يروي لودفيغ كيف كان بسمارك مريضاً، يرتدي لباسه المدني، لأول مرة وهو يستقبل الملك والقادة العسكريين في غرفته، باعتباره الشخص الوحيد المعارض. كتب بسمارك عن تلك اللحظة بمرارة وهو يقول:" لم تقو أعصابي على مقاومة التأثيرات التي كانت تتملكني بالنهار والليل، فنهضت صامتاً، وذهبت إلى مخدع نومي المجاور، حيث تولتني نوبة بكاء عنيفة، في تلك الأثناء سمعت كيف انقضى المجلس الحربي الذي كان منعقداً في الغرفة المجاورة".

يؤكد لودفيغ بأن أحداً لم يجرؤ عل الاحتكاك بهذا الألماني، الذي هو أقوى رجل بين قومه، وأمتع رجل في نفس الوقت.

لكن هل نستطيع أن نصبغ مفهوم العظمة بأي شكل من الأشكال على مجمل حياة ستالين؟؟

ما من قائد سياسي عبر التاريخ وصلت شعبيته إلى أدنى مراتبها، كما وصلت شعبية ستالين؛ خاصة في أيامه الأخيرة، حيث كانت ذروة المأساة، عندما لامست الانكسارات عائلته، وذلك في إحدى أمسيات أكتوبر من عام ١٩٣٢.

كان ستالين وزوجته يزوران بيت فورشيلوف إلى جانب وجود أعضاء المكتب السياسي الآخرين، وعندما تحدثوا عن المسائل السياسية، تدخلت ناديا زوجة ستالين، وتكلمت بصراحة عن المجاعة والاستياء اللذين يعمان البلد، وعن التدهور الخلقي الذي ألحقه الإرهاب بالحزب، حينها انفجر ستالين أمام الجميع موبخاً زوجته بفيض من الشتائم.

يذكر بأن ناديا خرجت من بيت فورشيلوف وانتحرت في الليلة ذاتها. يؤكد إسحق دويتشر كاتب سيرته الذاتية، بأن ستالين كان يمتاز بقلة الكلام والتهذيب، ويروي للقراء عن المحادثة التي تمت بين هتلر وستالين قبيل الحرب بيومين، حيث كان هتلر يخاطب ستالين بصيغة المفرد كأن يقول:" إني أقبل.. إني أحب.. وزيري" بينما كان ستالين يخاطبه بصيغة الجمع، لكن ستالين كان يفتقد إلى عامل الثقة بالنفس، خاصة عندما علم بانتصارات هتلر الساحقة على بولونيا، نرى بأن هتلر كان يمتلك الثقة بالنفس حتى لحظة انتحاره.

ربما عدم ارتقاء ستالين إلى العظمة، لكونه كان عسكريا أكثر من أن يكون رجلاً خلاقاً، بينما نرى بأن الشخصية العظيمة تمتلك على الدوام القوة الداخلية والأرضية الثقافية الخصبة، كما في شخصية هتلر وبسمارك ونابليون وبطل الحرب العالمية الثانية شارل ديغول.

نلاحظ أن العوامل التي تلعب دوراً أساسيا في الشخصية العظيمة هي صفات ملهمة ومميزة، ليس من الضروري أن تخدم هذه الصفات القيم الإنسانية النبيلة كما ذكرنا في البداية: مقولة لودفيغ الشهيرة عن مفهوم العظمة، ولكننا لا نستطيع أن ننكر بأن هؤلاء العظماء استطاعوا أن يمنحوا البشر دروساً هامة في فن الحياة.

وفي لغز من ألغاز التاريخ التي لم تحل إلى يومنا هذا وربما كان صدفة ولكنها نادرا ماتكون في حياة هذين الشخصين، وهو سر العدد ١٢٩ عند هتلر ونابليون. ... واليكم التالي:

❖ قامت الثوره الفرنسية سنة ١٧٨٩

وقامت الثوره الألمانية سنة ١٩١٨

والفرق بينهما :

١٩١٨-١٧٨٩=١٢٩

❖ استلم نابليون بونابرت الحكم بعد الثوره الفرنسية سنة ١٧٩٩

واستلم هتلر الحكم في ألمانيا سنة ١٩٢٨

والفرق بينهما:

١٢٩=١٧٩٩-١٩٢٨

❖ توج نابليون بونابرت إمبراطورا على فرنسا سنة ١٨٠٤

وتسلم هتلر زمام الحكم في ألمانيا سنة ١٩٣٣

والفرق بينهما :

١٢٩=١٨٠٤-١٩٣٣

❖ بدأت حملة نابليون على روسيا سنة ١٨١٢

وبدأت حملة هتلر على روسيا سنة ١٩٤١

والفرق بينهما :

١٢٩=١٨١٢-١٩٤١

❖ خسر نابليون معركة واترلو سنة ١٨١٥

وخسر هتلر سنة ١٩٤٤

والفرق بينهما :

١٢٩=١٨١٥-١٩٤٤

■ ■ ■

٣

ولينجتون ونابليون
الدوق والإمبراطور

في المنطق العربي لا يمكن أن يكون حبيب عدوي حبيبي وخصوصا بين العسكريين، فكل قائد يتسلم عشيقة عدوه يتوقع أن تدس له السم في أول كأس إخلاصاً للماضي وعملا بنصيحة من قال إن النساء تخون جميع العاشقين إلا المرايا.

ولك أن تضيف لتعديل ذلك الفهم أن الجميلات يفعلن المستحيل للبقاء في السلطة بعد تجريبها ولا طريق لذلك إلا هجر العشيق الآفل، والترحيب بمن يحل محله، ويضمن استمرار الامتيازات ولوازم السلطة والرفاهية.

وصدق أو لا تصدق، فكل ما كان يقال عن عداوة نابليون بونابرت والدوق ويلنجتون يكاد يكون لغوا فالرجلان متشابهان أكثر مما يظن أي مؤرخ حصيف وقد تشاركا في صفات كثيرة، وعشقا في مرتين على الأقل المرأة ذاتها، وهذا ما يثبته بالتواريخ والأرقام والاعترافات كتاب جديد لاندرو روبرتس عن الإمبراطور الفرنسي والدوق الإنجليزي الذي هزمه في معركة واترلو، وورث إمبراطوريته وعشيقاته في باريس، وروما.

ويبدأ ذلك الكتاب المثير وعنوانه «نابليون وويلنجتون» بدراسة التشابه بين الإمبراطور والدوق في البدايات، فالاثنان ولدا عام ١٧٦٩ بفارق ثلاثة أشهر، والاثنان مقتلعا الجذور فوالد نابليون فرنسي في كورسيكا ووالد ويلنجتون بريطاني في أيرلندا، والاثنان صعد نجماهما سياسيا وعسكريا بوساطة الإخوة، فلوسيان بونابرت هو الذي نظم انقلاب ١٧٩٩ ليجعل من نابليون المستشار الأول للدولة الفرنسية. وشقيق ويلنجتون أعطاه أول فرصة لإظهار ذاته في الحروب

الهندية عام ١٨٠٣ ميلادية.

والظاهر أن الإمبراطور الفرنسي قد تحول إلى هاجس دائم للدوق الإنجليزي الذي حطم مجده وإمبراطوريته. فالكتاب الجديد يشير إلى أن الدوق اشترى منزل شقيقة نابليون وكان يحتفظ بصورة شبه فاضحة لشقيقته الاخرى بولين في غرفة نومه مما يدل على أن عقله الباطن كان يتطلع الى انتصار جنسي على الإمبراطور على غرار انتصاراته العسكرية.

والكتاب يدخل في سيرة غرف النوم، فذاك ما يبحث عنه قراء الإثارة الذين سيكتشفون أن ويلنجتون ورث عن نابليون عشيقته الأولى مغنية الأوبرا الإيطالية جوزفينا غراسيني وعشيقته الثانية المثلة مارغريت وايمر، أما التفاصيل، فيستحسن أن نعبر بها بهدوء وتدقيق لنكتشف أن فساد السلطة ليس اختراعا معاصرا.

فقد كان نابليون يصرف على المغنية الإيطالية مبلغ سبعين ألف فرنك سنويا وهو مبلغ ضخم بمقاييس تلك الأيام والفرنكات كلها كما هو متوقع من جيب المواطن العادي الذي كان يضحي صاغرا في سبيل مجد الإمبراطورية وعشيقاتها.

وينفي مؤلف الكتاب الجديد الشائعات التي قالت إن تلك المطربة الجميلة طلبت أن تذهب مع الإمبراطور المنفي إلى جزيرة «البا» فالواقع يثبت أنها لم تترك وقتا طويلا لتظهر ثانية مع الدوق المنتصر كعشيقة كاملة الأوصاف ولكن مخفضة المصاريف فظروف الحرب وتوابعها لم تجعل الدوق الإنجليزي بكرم الإمبراطور الفرنسي نظراً لكثرة المدققين في الجيش البريطاني.

وغير أمجادها في مشاركة الاثنين مخادعهما تزعم تلك المغنية أنها حاولت أن تصلح بينهما قبل أن تقع الحرب لكن نابليون لم يستمع إليها وكذلك زوجته الشرعية الإمبراطورة جوزفين التي كانت تكرهها وتتجسس عليها وتعترف في رسائلها الحميمة لصديقاتها بأن كل مشاكلها منها، فلولاها لما هجر الإمبراطور سرير الزوجية.

ولم يطل الوقت حتى جاءتها المشاكل من الممثلة الشابة مارغريت وايمر التي

كانت تصغر نابليون بـ ١٨ عاما وقد عاملها بكل خرافة الشيخ الذي يعشق مراهقة ووضع ذات يوم كما يقولون أربعين ألف فرنك في صدرها تماما كما يفعل أي أبله مع رقاصة في ملهى لكن العشيقة الثانية التي ورثها ويلنجتون أيضا لم تكن بذكاء الأولى فلم تستطع كما قال مؤلف الكتاب أندرو روبرتس أن تستثمر ماضيها مع الإثنين جيدا لذا انتهت مفلسة وقدمت طلبا للعمل بوظيفة حقيرة ورفض طلبها.

وتزعم العشيقة الثانية على ذمة مؤلف الكتاب أن الدوق كان الأفضل على جميع الجبهات وفي الحرب والمخدع على حد سواء لكن هذه التهمة التي تصيب سمعة نابليون (كزير) نساء في مقتل يصعب التثبت منها فقد اعتاد الناس على إلصاق التهم كلها بأي مهزوم، والعشيقات لسن استثناء في هذا الإطار فهن مطالبات بالولاء قبل غيرهن وبالشهادة للجديد على حساب القديم إلا إذا كان عندهن أخلاق، وهذه مسألة في مثل هذا الظرف وهذا الوضع فيها أكثر من قول، وأكثر من نظر.

لقد قال هولاند روز ملخصا صفات القائدين إن نابليون يمثل كل صفات أهل الجنوب الحامية المقتحمة والهادمة بينما ويلنجتون يلخص صفات الانجلوسكسون بكل ما فيهم من عناد وقسوة وحذر وواقعية وقد استشهد المؤلف بهذا القول ليتعصب لمواطنه أيضا ويوحي بأن انتصاراته في المخادع والجبهات كانت متوقعة.

ولن يطول الوقت حتى يصدر كتاب فرنسي يكيل الصاع ثلاثة للإنجليز بهدف إعادة الهيبة لنابليون، فكل شيء يهون إلا أن تظهر وثيقة غرامية تشهد لخصمه بالتفوق، وأين..؟ في المخدع حيث يجب أن يتفوق إخلاصا للتاريخ النظري العاشق اللاتيني على جميع عشاق العالم وأولهم نموذج البرودة الدولي العاشق الإنجلو سكسوني.

■ ■ ■

٤

نابليون وكليبر
أغرب الوصايا

أغرب الوثائق هي وصية نابليون لكليبر التي يقول فيها: إذا أردت أن تحكم مصر طويلا فعليك باحترام مشاعر الناس الدينية واحترام حرمات منازلهم. وقد سمح بناء على اعتقاده للجنرال مينو بأمر عسكري بالتحول إلى الإسلام والزواج من سيدة من رشيد.

ووثيقة أخرى شديدة الإثارة عن حلم نابليون بحفر قناة السويس وعدم إضاعة قطرة واحدة من ماء النيل إذا قيد له أن يحكم مصر طويلا، وأن يجعل من مصر قاعدة لإمبراطورية هائلة شرق السويس تمتد حتى إيران وأفغانستان.

" فأنا لست أقل من الإسكندر الأكبر. رغم حزني الشديد لأن الإسكندر غزا مصر في سن السادسة والعشرين بينما أنا في الثامنة والعشرين ".

وهناك وثيقة أخرى رقم ٣٦١٨ بتاريخ ٤ نوفمبر ١٧٩٨ يوقع فيها بونابرت على قرار عسكري بأن تدفع فرنسا رواتب شيوخ الديوان، وهم الشيخ إسماعيل البراوي والشيخ يوسف الموصلي والشيخ عبدالوهاب الشبراوي والشيخ سليمان الجوسقي والشيخ أحمد الشرقاوي.

ويبدو أن هؤلاء لم يكونوا قد انضموا إلى علماء الديوان في تكوينه الأول. وهناك أوامر عسكرية في سطور قليلة تكشف عن كيفية إدارة شؤون الجيش الفرنسي في مصر. وتكشف الوثائق عن وجود مراسلات بين المعلم يعقوب قائد كتيبة الأقباط وجرجس الجوهري أحد أعيان أقباط مصر، وهي خطيرة لأنها

تكشف عن مخططات واسعة المدي للفصل بين أقباط مصر ومسلميها الذين تضمهم وحدة الوطن (الرسالة رقم ٣٨٧٢ بتاريخ ٧ ديسمبر ١٧٩٨).

ثم هناك رسالة تهنئة بتاريخ ٢٦ فبراير ١٧٩٩ تحت رقم ٤٢٦٢ للجنرال مينو علي قيامه بإلقاء خطبة الجمعة كمسلم في مسجد غزة في أثناء الحملة علي الشام، ويقول له: إن أفضل الطرق للحفاظ علي السلم في مصر هو تبني عقيدة الإسلام أو على الأقل عدم معاداتها واجتذاب ود شيوخ الإسلام ليس فقط في مصر بل في سائر العالم الإسلامي. وتكشف وثائق أخرى عن توصيف دقيق بقلم نابليون نفسه لبعض المعارك الحربية مثل معركة الرحمانية (رقم ٤٦٢٦ بتاريخ ٢٠ يوليو ١٧٩٩)، وأخرى في اليوم التالي، ثم أخرى لأهالي القاهرة للتأكد من حيادهم في حربه ضد مسلمي الشام.

ثم عشرات الرسائل والأوامر بإعدام المجرمين وقطاع الطرق في القاهرة، وأيضا إعدام جنود فرنسيين ثبت إجرامهم في حق الأهالي.

علي أن أشد هذه الوثائق إثارة هي الوثائق الأخيرة التي وقعها قبل رحيله عن مصر، ومنها وصيته للجنرال كليبر رقم ٤٧٥٨ بتاريخ ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ ثم وثائق أخرى تثبت أنه كان ينوي بعد عودته إلى فرنسا إرسال تعزيزات وجيش جديد لمصر، لكن استسلام مينو في الإسكندرية في يوليو ١٨٠١ قضى نهائيا على حلمه. من أقوال نابليون حول مصر كما ذكرنا سابقا.

١ - في مصر لو حكمت لن أضيع قطرة واحدة من النيل في البحر، وسأقيم أكبر مزارع ومصانع أطلق بها إمبراطورية هائلة، ولقمت بتوحيد الإسلام والمسلمين تحت راية الإمبراطورية ويسود العالم السلام الفرنسي.

٢ - في مصر قضيت أجمل السنوات، ففي أوروبا الغيوم لا تجعلك تفكر في المشاريع التي تغير التاريخ، أما في مصر فإن الذي يحكم بإمكانه أن يغير التاريخ.

٣ - لو لم أكن حاكما على مصر لما أصبحت إمبراطورا على فرنسا.

٤ - الرسول محمد، بنى إمبراطورية من لا شيء.. من شعب جاهل بنى أمة

واسعة.. من الصحاري القفر بنى أعظم أمبراطورية فى التاريخ.

٥ - الإسلام كالمسيحية تفسدهما السياسة ويلعب القائمون عليهما بالنار إذا تخطوا حدود أماكن العبادة لأنهم يتركون مملكة الله ويدخلون مملكة الشيطان.

٦ - حلمي تجسد في الشرق بينما كاد يتحول إلى كابوس في الغرب.

ورغم كل ذلك فقد لقى الجنرال كليبر حتفه فيما بعد. . و كان وراء ذلك قصة تم تدوينها في كتب التاريخ.



الجنرال كليبر

أدرك الجنرال كليبر قائد الحملة الفرنسية على مصر بعد نابليون بونابرت حرج موقفه، وعدم قدرة أفراد حملته على الاستمرار في مصر، فقرر التفاوض مع "يوسف باشا ضيا" الصدر الأعظم الذي جاء على رأس جيش ضخم لإخراج الفرنسيين من القاهرة، واتفق الطرفان على طريقة تحفظ الكرامة لخروج الجيش الفرنسي وتبقي على شرفه العسكري، وتضمّن الاتفاق طريقة تنظيم جلاء الفرنسيين عن مصر، وتحدد المراحل والأزمنة لتحقيق هذا الجلاء، وأطلق

على هذا الاتفاق معاهدة العريش، وأبرمت في (٢٢ من شعبان ١٢١٤هـ=٢٤ من يناير ١٨٠٠م).

وعلى الفور بدأ كليبر في تنفيذ ما تم الاتفاق عليه فأجلت الحملة قواتها في بعض المناطق البعيدة، فدخلها العثمانيون وحلوا محل القوات الفرنسية المنسحبة، وعسكر الصدر الأعظم بجيشه في "بلبيس"، وتسلل جزء من الجيش العثماني إلى داخل القاهرة.

وعين العثمانيون واليًا لهم على الصعيد، وأصبح جلاء الفرنسيين قاب قوسين أو أدنى، غير أن كليبر فوجئ برسالة من قائد الأسطول البريطاني يعلنه أن اللورد كيث القائد الأعلى للأسطول قد رفض التصديق على المعاهدة، وأنه لم يعد أمام الفرنسيين سوى التسليم بلا قيد أو شرط كأسرى حرب، ولا سبيل لعودتهم إلى فرنسا على هذا النحو الذي تم الاتفاق عليه مع الدولة العثمانية.

جن جنون كليبر وثار ثورة عارمة وقرر أن يبطش بالعثمانيين، فأعاد احتلال المواقع التي كان قد أخلاها، ثم باغت الجيش العثماني المرابط على مشارف القاهرة في المطرية وعين شمس في (١٦ من شوال ١٢١٤هـ=٢٠ من مارس ١٨٠٠م)، فارتد الجيش العثماني على غير نظام بعد أن كبلت خطاه المفاجأة، وأفقدته القدرة على التوازن وصد الهجوم، وهو الجيش الذي كان يعادل أربعة أمثال الجيش الفرنسي، وتقهقر إلى الصالحية، ثم غادر الحدود المصرية إلى سوريا، والجيش الفرنسي في إثره.



سليمان الحلبي

وفي أثناء القتال تمكنت فصيلة من الجيش من التسلل إلى القاهرة، وحرضوا أهلها على الثورة ضد الفرنسيين في الوقت الذي تدور فيه رحى الحرب في عين شمس، ولم يكن الشعب المصري يحتاج إلى أكثر من إشارة حتى يهب هبة عارمة ضد الغاصب المحتل، لا يبالي بشيء، وفي ساعات قليلة تجمع الشعب وحمل السلاح، وأقام المتاريس حول الأزهر والأحياء المحيطة، وشرع في مهاجمة المواقع الفرنسية في الأزبكية، وكانت نقطة ابتداء الثورة وإعلان الجهاد على الفرنسيين في حي بولاق، ثم امتدت بعد ذلك إلى سائر أحياء العاصمة.

وقام الثائرون بإنشاء معامل للبارود ومصانع لصب المدافع، وعملوا القنابل، وقاوموا قوات الاحتلال وصمدوا للحمم الملتهبة التي كانت ترميهم بها مدافع الفرنسيين، وثبتوا للحصار الذي فرضته القوات الفرنسية على المدينة، وكان صبر المصريين أمرًا مثيرًا للإعجاب والتقدير.

وعندما وصل كليبر إلى القاهرة بعد انتصاره على العثمانيين وجد الثورة قد اشتد أوارها، وامتد لهيبها إلى الوجه البحري منذ أن أخلى الفرنسيون مراكزهم المهمة في الدلتا، وبخاصة في دمياط وسمنود، فأرسل ثلاثة من قادته لإخضاع الوجه البحري، وانتظر عودتهم حتى يتمكن من التفرغ لإخماد ثورة القاهرة.

ولما ازدادت الثورة اشتعالاً وعجز كليبر عن إخمادها لجأ إلى علماء الأزهر يستعين بهم في إيقاف الثورة، وقابل عددًا من كبارهم في مقدمتهم الشيخ عبدالله الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر، ومحمد المهدي، والسرسي.

وعرض عليهم إنهاء الثورة وإعطاء أهالي القاهرة أمانًا وافيًا شافيًا، على أن يخرج ناصف باشا والجنود العثمانيون والمماليك من القاهرة، ويلحقوا بزملائهم من فلول جيش يوسف باشا الصدر الأعظم، غير أن مساعي الصلح تبددت أمام إصرار زعماء الثورة على الاستمرار في المقاومة.

ولم ييأس كليبر فلجأ إلى الاتصال بمراد بك أحد زعماء المماليك، وتفاوض الاثنان على الصلح، وأبرمت بينهما معاهدة بمقتضاها أصبح مراد بك حاكمًا على الصعيد في مقابل أن يدفع مبلغًا إلى الحكومة الفرنسية، وينتفع هو بدخل هذه الأقاليم، وتعهد كليبر بحمايته إذا تعرض لهجوم أعدائه عليه.

وتعهد مراد بك من جانبه بتقديم النجدات اللازمة لمعاونة القوات الفرنسية إذا تعرضت لهجوم عدائي أيًا كان نوعه، وكان هذا يعني أن مراد فضل السيادة الفرنساوية على السيادة العثمانية.

ولم يكتف مراد بك بمحاولته في إقناع زعماء الثورة بالسكينة والهدوء، بل قدم للفرنسيين المؤن والذخائر، وسلمهم العثمانيين اللاجئين له، وأرسل لهم سفنًا محملة بالحطب والمواد الملتهبة لإحداث الحرائق بالقاهرة.

استمرت الثورة أكثر من شهر، وقائد الاحتلال يفكر في وسيلة للقضاء على الثورة التي يقودها عمر مكرم الذي التف الشعب حوله، وأصبح رمزًا للمقاومة والصمود، وفشلت المحاولات لوقف الثورة، وإزاء ذلك أمر كليبر بالهجوم العام على حي بولاق مصدر الثورة بعد أن جاءته المؤن والمهمات من حليفه مراد بك.

وشرعت المدافع تصب نيرانها على الحي الثائر، حتى أحدثت ثغرات في المتاريس التي أقامها الثوار، نفذ من خلالها الجنود الفرنسيون، لإشعال الحرائق في البيوت والمتاجر والوكالات، فاشتعلت النيران في الحي.



وسقطت البيوت على من فيها، وتناثرت جثث القتلى، واستمر الضرب بالمدافع حتى دمر الحي بأكمله، ثم تتابع هجوم الفرنسيين على سائر أحياء القاهرة، حيا حيا، واستمرت هذه الأهوال ثمانية أيام جرت في أثنائها الدماء أنهارًا في الشوارع، وأصبحت أحياء القاهرة خرابًا بلقعًا.

تحرك علماء الأزهر واستأنفوا مساعيهم لحقن الدماء، ووقف عمليات الإحراق والتدمير، ودارت مفاوضات التسليم بين الثوار وكليبر انتهت بعقد اتفاق في (٢٦ من ذي القعدة ١٢١٤هـ=٢١ من إبريل ١٨٠٠م)، وقع عليه ناصف باشا من الأتراك العثمانيين، وعثمان أفندي عن مراد بك، وإبراهيم بك عن المماليك.

وفيه تعهد العثمانيون والمماليك بالجلاء عن القاهرة خلال ثلاثة أيام مع أسلحتهم وأمتعتهم ما عدا مدافعهم إلى حدود سوريا، في مقابل أن يعفو كليبر عن سكان القاهرة بمن فيهم الذين اشتركوا في الثورة.

وكان من نتيجة تلك الثورة أن ازدادت نقمة كليبر على القاهرة، وكانت فيه غطرسة وكبرياء، ففرض على أهالي القاهرة غرامة مالية ضخمة قدرها ١٢ مليون فرنك، وخص علماء الأزهر بنصيب كبير منها، وعلى رأسهم الشيخ السادات، ومصطفى الصاوي ومحمد الجوهري وغيرهم.

واشتط في تحصيل تلك الغرامة منهم، وألقى بالشيخ السادات في السجن، وقام بتعذيبه دون أن يراعي مكانته وسنه حين عجز عن تدبير المبلغ الذي طالبه به من الغرامة، وكان مائة وخمسين ألف فرنك.

وأدت تلك السياسة الحمقاء التي مارسها كليبر مع أهالي القاهرة وعلماء الأزهر أن قام سليمان الحلبي باغتياله في (٢١ من المحرم ١٢١١هـ=١٤ من يونيو ١٨٠٠م) أثناء تجوله في حديقة منزله.

ولد سليمان الحلبي عام١٧٧٧ في قرية كُوكَانْ فوقاني " الجَزْرُونِيَّة " (التابعة لمنطقة عفرين في الشمال الغربي من مدينة حلب) من أب مسلم متدين اسمُهُ : محمد أمين " عائلة أُوسٍّ قُوبَار " من عائلة (عثمان قوبارو).

عمل والده في مهنة بيع السمن وزيت الزيتون إلى أنْ بلغ العشرين من عمره ؛

أرسله أبوه عام ١٧٩٧ بَرّاً إلى القاهرة ليتلقي العلوم الإسلامية في جامعة الأزهر، فاستقرَّ في " رُوَاق الشَّوام " المخصص للسكن الداخلي لطلبة الأزهر من أبناء بلاد الشام - حيث التعلم والمبيت مع أقرانه الشوام

توطّدت صلته بالشيخ أحمد الشرقاوي أحد أساتذته الشيوخ، حتى كان يبيت أحياناً في منزل هذا الشيخ.. الذي رفض الاستسلام للغزوة الفرنسية.. مساهماً في إشعال فتيل ثورة القاهرة الأولى يوم ٢١ أكتوبر (تشرين الأول) ١٧٩٨.

وكان سليمان الحلبي بجانب أستاذه الشيخ الشرقاوي عند اقتحام جيش نابليون أرض الجيزة، ثم أرض (المحروسة - القاهرة).



لوحة فرنسية للحلبي و هو يقتل كليبر تعود لزمن الحملة الفرنسية

وراح الغزاة الفرنسيون يذيقون الشعب المصري الويلات كما يذكر الجبرتي.. في الوقت الذي كان فيه (إبراهيم بك) يحرض المصريين على الثورة ضد الغزاة (الكفرة) من مكانه في غزة، و(مراد بك) يحض الشعب المصري على المقاومة في صعيد مصر..

الأمر الذي دفع بونابرت إلى الخداع.. بإرسال رسالة إلى شريف مكة غالب ابن مسعود، وإلى توجيه بيان آخر إلى مشايخ وأعيان (المحروسة. القاهرة).. يبشرهم - كما يزعم - بأنه قد هدم الكنائس في أوروبا، وأنه خَلَعَ بابا روما قبل قدومه إلى مصر.. وأنه عاشقٌ النبي محمد.. وهو نصيرٌ للدين الإسلامي.!!

فلم ينخدع الشعب المصري بهذه المزاعم.. إلى جانب التنكيل بهم.. لذلك أججوا (ثورة القاهرة الأولى) ضد الغزاة انطلاقاً من منطقة الجامع الأزهر، ورَدَّ عليهم الغزاة بقذائف مدافعهم التي نالت من قدسية (المسجد الأكبر)، ودنسته خيول الغزاة باحتلاله.. وحكموا على ستةٍ من شيوخ الأزهر بالإعدام منهم الشيخ الشرقاوي أستاذ سليمان الحلبي "، واقتيدوا إلى القلعة، حيث ضربت أعناقهم.. ثم انتشلت أجسادهم إلى أماكن مجهولة..

وبعد تمكن الغزاة من إخماد ثورة القاهرة الأولى، تضاعفت مظالمهم، ولوحق كل مشبوه باسم الجهاد أو المقاومة الشعبية الوطنية المصرية الإسلامية. فاختفى من اختفى، وهرب من مصر من هرب. ثم توافرت الظروف لتوحيد (خطط الجهاد) داخليًا وخارجيًا.

وكان سليمان الحلبي.. ممن غادروا أرض مصر إلى بلاد الشام بعد غياب ثلاث سنوات، وتوجه إلى مسقط رأسه (قرية كوكان بعفرين)، فليلتقي في حلب (أحمد آغا وهو من انكشارية إبراهيم بك)، ويُخبَرُ أن والي حلب العثماني قد فرض غرامة كبيرة على والده محمد أمين -بائع السمن والزيت - ووعده (أحمد آغا) بالسعي لرفع الغرامة عن أبيه، وأمره بالتوجه إلى مصر لأداء واجبه الإسلامي الجهادي.. وكلفه بمهمة اغتيال خليفة بونابرت الجنرال كليبر..

وكان بونابرت قد اجتاح كلاً من : خان يونس والعريش وغزة ويافا.. وفشل

في اجتياح أسوار عكا.. نتيجة تحالف واليها أحمد باشا الجزار مع إبراهيم بك.. الذي غادر غزة إلى القدس، وجبال نابلس، والخليل.. يثير روح المقاومة، إضافة إلى استمرار مساعيه بالتحالف مع الآستانة، للوقوف في وجه الغزاة داخل مصر.

وبعد فشله باقتحام عكا، عاد نابليون بجيشه إلى مصر مدحوراً من بلاد الشام، ومنها توجه سرا إلى فرنسا عن طريق البحر.. ليلة الاثنين ١٦ أغسطس ١٧٩٩، تاركاً قيادة جيشه في مصر إلى الجنرال كليبر. وبعد أن وجَّهَ نابليون بيانه الشهير إلى اليهود.. لإقامة دولة إسرائيل الكبرى.. بدءاً من ارض فلسطين.

تابع سليمان الحلبي مسيره حتى وصل إلى القدس، وصلى في المسجد الأقصى في مارس (آذار) عام ١٨٠٠، ثم توجه إلى الخليل حيث إبراهيم بك ورجاله في جبال نابلس.

وبعد عشرين يوماً من إقامته في الخليل، سار في أبريل ١٨٠٠ إلى غزة في استضافة: ياسين آغا " أحد أنصار إبراهيم بك " في الجامع الكبير، وسلمه سليمان رسالة من أحمد آغا المقيم في حلب.. تتعلق بخطة تكليفه بقتل الجنرال كليبر.. نظراً لكون سليمان عنصراً من عناصر المقاومة الإسلامية.. التي تناضل في سبيل تحرير مصر من الغزاة.

وفي غزة.. سَلَّمَ ياسين آغا ٤٠ قرشا إلى سليمان الحلبي.. لتغطية نفقات سفره برفقة قافلة الجمال التي تحمل الصابون والتبغ إلى مصر، وليشتري سكينة من محلةٍ في بلدة غزة (وهي السكينة التي قتل بها سليمان، الجنرال كليبر).

استغرقت رحلة القافلة من غزة إلى القاهرة ستة أيام، وانضم سليمان ثانية إلى مجموعة طلاب الأزهر الشوام المقيمين في (رواق الشوام)، وكان منهم أربعة مقرئي القرآن من فتيان فلسطين أبناء غزة، هم : محمد وعبد الله وسعيد عبد القادر الغزي، وأحمد الوالي. وأعلمهم سليمان عزمه على قتل الجنرال كليبر، وأنه نذر حياته للجهاد الإسلامي في سبيل تحرير مصر من الغزاة.. وربما لم يأخذوا كلامه على محمل الجد.

وفي صباح يوم ١٥ يونيو ١٨٠٠ . كتب الفتى سليمان الحلبي عدداً من الابتهالات الضارعة إلى ربه.. على عدد من الأوراق.. وثبتها في المكان المخصص لمثلها في الجامع الأزهر.. ثم توجه إلى (بركة الأزبكية) ؛ حيث يقيم الجنرال كليبر في قصر (محمد بك الألفي)، الذي اغتصبه بونابرت لسكنه.

فرغ كليبر من تناول الغداء في قصر مجاور لسكنه (ساري عسكر داماس) ومعه كبير المهندسين الفرنسيين قسطنطين بروتاين.. وكان سليمان قد دخل حديقة القصر، وتمكن من طعن الجنرال كليبر بسكينته أربع طعنات قاتلة ؛ في الكبد والسُرَّة، وفي ذراعه اليمنى وخده الأيمن.

وتمكن كذلك من طعن كبير المهندسين قسطنطين بروتاين ست طعنات في أماكن مختلفة من جسمه.. فألقيَ القبض عليه في الحديقة من قبل الفرنسيين: العسكري الخيَّال الطبجي جوزيف برين، والعسكري الخيال الطبجي روبيرت، وجرَّداه من سكينته التي جاهد بها، رجاء الفوز بشرف الجهاد الإسلامي في سبيل حرية مصر وكرامتها من أيدي الطغاة.

أجريت محاكمة الفتى سليمان.. وكانوا قد أحرقوا يده اليمنى خلال التحقيق حتى عظم الرسغ.. ونفى صلته بالشيخ الشرقاوي، وبحركات المقاومة الشعبية الإسلامية المصرية المختلطة " المصرية، العربية الحجازية، المملوكية، التركية العثمانية، الشامية.

لكنه ألمح في مجريات التحقيق إلى أنه بات ٣٤ يوماً قبل إقدامه على تنفيذ (مهمة القتل) مع المقرئين الأربعة من أبناء غزة، وليس فيهم مصري واحد ولا صلة لهم به.. وأنه أسَرَّ إليهم بعزمه على قتل الجنرال كليبر من منطلق جهادي نضالي صرف.. فلم يأخذوا كلامه على محمل الجد.

وبذلك الاعتراف.. أدانتهم المحكمة بالتستر على الجريمة قبل وقوعها.. وكان الحكم بالعقوبات التالية :

- حُكِمَ على سليمان الحلبي إعداماً بالخازوق.

- وعلى أحمد الوالي و محمد وعبد الله الغزي إعداماً بقطع رؤوسهم أمام

سليمان الحلبي.. قبل إعدامه بالخازوق. (أما سعيد عبد القادر الغزي.. فقد كان هارباً).

وفي الساعة ١١,٣٠ من يوم ٢٨يونيو١٨٠٠ . نفذ حكم الإعدام بالفلسطينيين الثلاثة أمام سليمان، وتمَّ حرق أجسادهم حتى التفحم. ثم غُرِزَ وتد الخازوق في مؤخرة سليمان الحلبي فوق تل حصن المجمع "تل العقارب ". وبقي جثمانه على الخازوق عدة أيام.. تنهشُهُ الطيور الجوارح، والوحوش الضواري..

وكان ذلك عقب دفن الجنرال كليبر في موضع قريب من (قصر العيني) بالقاهرة.. باحتفال رسمي ضخم.. ثم وضع جثمانه في تابوتٍ من الرصاص ملفوفٍ بالعلم الفرنسي، وفوق العلم سكين سليمان الحلبي المشتراة من غزة.

خلفه الجنرال جاك مينو الذي كان من قبل (صاري عسكر مدينة رشيد). وكان قد أشهر إسلامه بلعبة سياسية قذرة، وسمى نفسه (عبد الله مينو)، وتزوج من سيدة مطلقة تدعى : زبيدة بنت محمد البواب.. وقد أنجب منها، ورحلت معه إلى فرنسا بعد نجاح الخلافة العثمانية بالتحالف مع بريطانيا في إرغامه على الانسحاب من مصر ومعه كل رجاله.. لينضم إلى مسيرة نابليون بونابرت.. الذي ارتقى إلى منصب قنصل فرنسا، قبل أن يغدو إمبراطورها الأعظم.. ثم أسيراً في جزيرة ألبا.. ثم في جزيرة سانت هيلانة.. حيث قضى نحبه مسموماً بسائل الزرنيخ.

وقد حمل الجنرال عبد الله جاك مينو معه إلى باريس، عظام الجنرال كليبر في صندوق، وعظام سليمان الحلبي في صندوق آخر.

وعند إنشاء متحف (انفاليد ـ الشهداء) بالقرب من (متحف اللوفر) في باريس، خصص في إحدى قاعات المتحف اثنان من الرفوف: رف أعلى.. وضعت عليه جمجمة الجنرال كليبر، وإلى جانبها لوحة صغيرة مكتوب عليها : جمجمة البطل الجنرال كليبر. ورف أدنى تحته.. وضعت عليه جمجمة سليمان الحلبي، وإلى جانبها لوحة صغيرة مكتوب عليها: جمجمة المجرم سليمان الحلبي. والجمجمتان لا تزالان معروضتين في المتحف.

٥

نابليون اسكتلنديا وليس فرنسيا !!

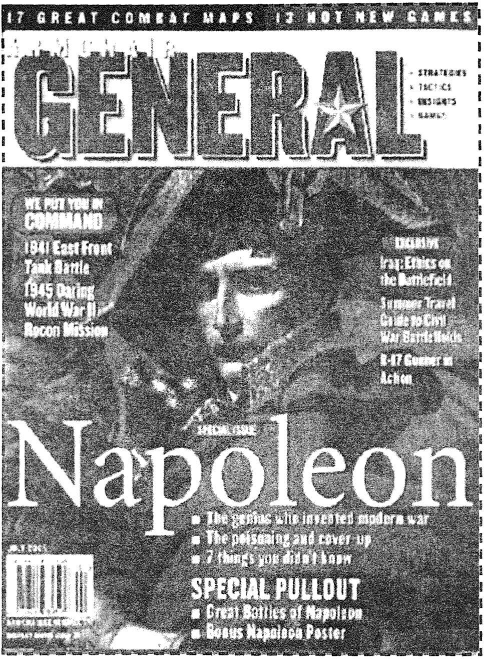
زعم أحد علماء التاريخ الإسكوتلنديين مؤخرا أن نابليون بونابرت من أصل سكوتلندي، وتكاد ترتعد فرائص الفرنسيين وهم ينظرون إلى برج إيفل خوفا من يأتي أقوام آخرون يدعون نسبته أو نسبة مهندسه جوستاف إيفل إليهم، ويتساءلون: ماذا يكون موقفهم لو أن الولايات المتحدة سرقت (القبلة الفرنسية) وأعلن أحد مفكريها، أن هذه القبلة لا علاقة لها بفرنسا على الإطلاق، ومبتكرها شخص أمريكي يدعى فرنش كان بارعا بالتقبيل، ومع الزمن اختلط الأمر على الناس فظنوا أن (فرنش) نسبة لفرنسا، بينما الواقع هو أنها نسبة لفرنش الأمريكي.

ونشرت جامعة أوكسفورد البريطانية بحثا قالت فيه، إن روبنسون كروزو ليس إسكوتلنديا ورد ذكره في قصة للكاتب السكوتلندي الكسندر سيلكيرك، كما يظن الإسكوتلندى، وإنما طبيب جراح بريطاني اسمه هنري بتمان أدين بجريمة، ومثل أمام المحكمة، وصدر حكم بنفيه إلى جزيرة في البحر الكاريبي.

والمذكرات التي خلفها بتمان كانت هي الأساس لقصة دانيال ديفو عن روبنسون كروزو. وهنالك من يقول إن وليام شكسبير لا علاقة له بكل المسرحيات والقصائد التي تحمل اسمه، فشكسبير كان مجرد سائس خيول في المسرح يتجسس لمصلحة الفاتيكان، والمسرحيات التي تحمل اسمه كتبها نبيل بريطاني استخدم اسم شكسبير ليخفي شخصيته الحقيقية.

ونعود الى عالم التاريخ السكوتلندي روبرت تورينز الذي قال قبل مدة إنه اكتشف أن نابليون سكوتلندي الأصل، وذكر في مقال نشره بعنوان (أصل عائلة

الإمبراطور نابليون بونابرت)، إنه عثر على كتاب نشر عام ١٨٨١ في برتشاير، إحدى قرى كييف، يذكر أن نابليون ينتمي للجيل الثالث لأسرة سكوتلندية الأصل.



فالجد الأكبر لنابليون، واسمه باين، رجل عانى الكثير في حياته، واضطر في النهاية لأن يفر في منتصف القرن السابع عشر من قرية بالوش القريبة من كييف إلى جزيرة كورسيكا التي تعرف اليوم باسم (جزيرة الجمال)، وقام أهل الجزيرة بإكرام الضيوف السكوتلنديين، وعرفوهم في البداية باسمهم الحقيقي (باين) الذي سرعان ما أصبح (باين أند هز بارتي) أي باين ورفاقه، ومع مضي الوقت عرف التعديل الأول تعديلاً ثانياً لكي تندمج العائلة أكثر في المجتمع الجديد، وأصبح اسمها (بون دو بارتِ) ليستقر الاسم أخيرا عند (بونابرت). ورغم أن الكتاب - الوثيقة لم تتعزز فرضيته بأدلة حية، إلا أن الجدل احتدم وزاد خوف الفرنسيين على ما تبقى من رموزهم.

والطريف أن هذه ليست المرة الأولى التي يتنازع فيها الأوروبيون نسب بونابرت، فقد ادعى الباحث بنكر فيلدبرج في بداية القرن الحالي أن نابليون من أصل ألماني، وأخيرا قالت الأميرة لوسيان مورات إنه يوناني اسمه الأصلي كالوميروس الذي يعادل بونابرت بالفرنسية، وتتبع آميدي جابورج نسب نابليون مؤخرا أيضا وقال إن جده الأكبر قاطع طرق، وجدته راعية ماعز !!

■ ■ ■

٦

نابليون بونابرت
ومحمد علي باشا

بقي الخلاف قائما بين المعنيين بتاريخ مصر الحديث حول الأهداف البعيدة للحروب التي خاضتها مصر ضد الدولة العثمانية خلال ثلاثينيات القرن التاسع عشر، إذ بينما رأى البعض، وعلى رأسهم الأستاذ شفيق غربال في كتابه عن محمد علي الكبير، أن باشا مصر المرموق قد استهدف من وراء تلك الحروب دعم حركة الإصلاح داخل الدولة، ومواجهة الأطماع الأوربية التي أخذت تحدق بها على اعتبارها (رجل أوربا المريض)، نظر آخرون إلى القضية من زاوية مختلفة تقوم علي أن باشا مصر، إنما كان يسعى في النهاية إلى فصل ولايات الدولة (العربية) لتشكل إمبراطورية مستقلة تحت حكمه.

ونرى أن هذا الخلاف قد اتخذ أبعادا جديدة بعد قيام جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ مما قوى أصحاب الرأي الثاني، ومن ثم كان من الطبيعي أن تفسح الأهرام في هذا العدد التذكاري، الصادر عام ١٩٤٩، مساحة لهؤلاء ممن رأوا في محمد علي (رجل العرب المرتقب).

من مذكرات نابليون بونابرت وهو في المنفي أنه قال: "إن الأقاليم التي تخضع للدولة العثمانية ويتكلم أهلها باللسان العربي لتنادي من صميم قلبها تريد إحداث انقلاب عظيم، وإنها لتنتظر رجلها". وقد حاول بونابرت نفسه وهو في عنفوان دفعته الأولى نحو الشرق أن يكون هو ذلك الرجل الذي تنتظره شعوب العرب فاصطحب معه في حملته إلى مصر مجموعة نادرة من العلماء والمستشرقين، وأحضر معه مطبعة بحروف أوربية وأخرى عربية جاء بها

خصيصا من روما وأخذ يصدر منشوراته في مصر ويطبعها بذلك الأسلوب العربي السقيم الذي كان يستعمله الناس حينذاك.



نابليون

ثم أنشأ ديوانا وطنيا للحكم ألفه في أول الأمر من الشيوخ الوطنيين وجعل يولي المصريين بدلا من الأتراك مختلف أعمال الحكومة وفي مقدمتها ولاية القضاء. ولكن هذا كله لم يفد منه بونابرت كثيرا فما كاد يخرج بحملته علي سوريا حتي وقف أمام حصن عكا المنيع، وكانت القوات البحرية الإنجليزية تظاهر الحصن من جهة البحر فارتد بونابرت مرة بعد مرة حتي لم ير أخيرا محيصا عن الجلاء لا عن عكا وحدها بل عن مصر والميدان الشرقي كله، وانسل ذات ليلة سرا إلي فرنسا تاركا الشعوب العربية تنتظر رجلها المرتقب. ولم يكن هذا الرجل سوي محمد علي الكبير.

وليس من شك أن محمد علي قد ورث فيما ورث عن نابليون في مصر فكرة إنهاض العرب ومحاربة التبعية التركية وذلك بخلق روح عربية فتية تساير السلطان التركي في أول أمرها ثم لا تلبث أن تناهضه وتظهر عليه في النهاية.

وكانت تركيا إذ ذاك ' الرجل المريض ' كما كانوا يطلقون عليه في حالة من الضعف والارتباك والتدهور دعت دول أوربا الكبري إلي عقد ' استشارات ' دبيلوماسية دورية فيما بينها للبحث في حالة المريض ومصير ممتلكاته في أوربا بعد وفاته.

وكان من أثر هذه الاستشارات الفردية أو الجمعية أن تدخلت الدول فعلا وأجرت للمريض عملية البتر لأكثر من عضو في جسمه.

فقد ساعدت أولا علي فصل اليونان، ثم تدخلت روسيا فكسبت لرومانيا الحديثة استقلالها الذاتي. ورنت فرنسا ببصرها فوجدت في شمال إفريقية عضوا أشل مواجها لسواحلها فلم تتردد في بتره وضمت إليها بلاد الجزائر لتكون قاعدة تثب منها في المستقبل شرقا وغربا حتي يصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة شبه فرنسية.

لذلك كان طبيعيا أن يعمل محمد علي، وهو السياسي العبقري الحصيف، على إنقاذ البلاد العربية المجاورة لمصر والسودان وذلك بأن يؤلف من هذه البلاد وحدة تمتاز عن باقي أملاك تركيا بخصائص جنسها وتقاليدها ولسانها العربي المبين.

وقد يظن البعض أننا باستعمالنا كلمة الوحدة العربية في مقام الكلام عن محمد علي إنما نحمل الألفاظ أكثر من مدلولها، إذ كان الشعور الديني أو المذهبي لا الشعور الوطني القومي هو الذي يسيطر على عقول الناس وأفكارهم.

ولكن المصلحين العباقرة من أمثال بطرس الأكبر وبونابرت ومحمد علي لا يقفون مكتوفي الأيدي أمام صمت الأهالي وجمودهم وعدم مسايرتهم لروح الزمن وحاجاته، إنهم يسبقون أزمانهم عادة ويقيِّمون من النظم ويحققون من الآراء والإصلاحات ما قد يستعصى على الناس فهمها واستساغتها في أول الأمر..

ولا يختلف ما قام به محمد علي نحو مصر والشرق العربي في جوهره عما قام به بطرس الأكبر نحو روسيا من تمدينها ومد حدودها غربا وجنوبا، أو ما قام به نابليون بونابرت في فرنسا وأوربا عامة، غير أن من الناس من يقول إن محمد علي وابنه إبراهيم الذي كان ساعده الأيمن في تنفيذ مشروعه العربي لم يكونا من عنصر عربي ولم يتكلما باللغة العربية إلا قليلا فكيف كان يرجي لمشروعهما نجاح وهما عنه غريبان، والحقيقة أن المذاهب والخطط السياسية العامة لا يشترط لنجاحها بين الناس أن يكون الداعون إليها متفقين والأهالي في الجنس أو اللغة أو الدين، فخليفة المسلمين العثماني لم يكن عربيا حين كان سلطانه الروحي يمتد علي سائر البلاد العربية والإسلامية.

علي أن محمد علي كان قد وضع حدا فاصلا لجنسيته عندما قرر أن يتبني أرض مصر ويبني لها ولنفسه ولأسرته مركزا عاليا ومجدا موئلا، وحين أرسل فوافته أسرته وأتاه قبل ذلك ابنه إبراهيم، وهو في سن المراهقة، فاكتملت نشأته ورجولته تحت سماء مصر، وتأدب فيها بأدب القرآن الكريم واللغة العربية، فما لبثت شمس مصر المشرقة أن دمغت إهابه وحولت دمه - على حد قوله - إلى دم مصري صميم.

على أنه لم يخدم قضية العرب، سواء في مصر أو بلاد الشرق الأوسط عامة، أمير أو رئيس أو ملك بمثل ما خدمها به محمد علي وابنه إبراهيم. ويكفي أن يكون محمد علي هو أول من ألف جيشا في العصور الحديثة من

العناصر العربية، فجند منهم عشرات الألوف وسار بهم ابنه إبراهيم إلى مختلف الميادين حاملين ألوية النصر فوق هاماتهم من صقع إلى صقع حتى شغلت أوربا بأنباء الجيش المصري العربي وبحركات الأسطول المصري العربي.

ولقد جنت الفكرة العربية في مصر وسائر بلدان العرب من وراء ذلك فوائد أدبية وقومية لا تقدر، فالجيش كان عنوان الوحدة القومية يخدم فيه المسلم والقبطي أو المسيحي والمصري والسوري والحجازي والسوداني جميعهم على قدم المساواة.

وأوجد الجيش في هذه الأرجاء جميعا روحا نظامية قومية لا عهد للشرق بها منذ قرون وبذلك قضى على حال الذل والمسكنة التي شقي بها أهل البلاد طوال القرون التي سبقت محمد علي.

وكما كانت جيوش نابليون تبذر في أثناء فتوحها في أوربا بذور مبادئ الثورة الفرنسية وتعلن حقوق الإنسان في الحرية والإخاء والمساواة كذلك كان محمد علي يحرص كنابليون على تزويد حملاته بالخبراء والعلماء.

وكان رجاله إذا حلوا بإقليم جديد ألغوا فيه الفوارق وامتياز الطبقات ووحدوا الضرائب وساووا بين المذاهب الدينية وجعلوا نصب أعينهم تأمين الناس على حياتهم وأملاكهم ونشر التعليم بين جميع الطبقات.

وإذا عرفنا أن نفوذ محمد علي قد شمل بلاد الشام ولبنان وفلسطين وشبه جزيرة العرب والسودان فضلا عن جزيرة كريت وإقليم أطنه في الأناضول، أدركنا إلى إى حد يعتبر العالم كله مدينا للعاهل الكبير الذي غرس شجرة المعرفة والحرية في تربة الشرق العربي لأول مرة في العصر الحديث.

وكأن القدر قد أتاح للرجل الذي خلق مشروع الوحدة العربية أن يستتبت الفكرة في بيئتها ويأتي البيوت من أبوابها فكانت بلاد العرب أول ما اتجهت إليه همة محمد علي في سبيل نشر سلطانه وإعلاء كلمة العرب.

ولا بد أن يكون محمد علي قد جعل من استيلائه على مكة والمدينة وعلى جزيرة العرب عامة أقوى سند وأدمغ حجة لتأييد حقه في زعامة العرب ضد الترك. حتى إذا دانت له بلاد العرب وصارت كلمته في البحر الأحمر هي العليا

اتجهت جهوده بطبيعة الحال جنوبا نحو السودان ليصبح البحر الأحمر بحيرة عربية مصرية، وإذا كانت الدولة العثمانية لم يمتد نفوذها في هذه البلاد الجنوبية الواسعة إلا على بعض الثغور مثل سواكن ومِصَّوَع، فإن محمد علي لم يتوانَ عن إدراك ما تقاعست عنه همة تركيا، فكان أن تم له فتح بلاد السودان في قلب إفريقية حتى الحدود المعروفة في ذلك الوقت واستأجر الثغور العثمانية علي البحر الأحمر فأتاح بذلك صيتا بعيدا لمصر وللنفوذ العربي إذ كان أهل البلاد من النيل الأبيض إلى دنقلة جلهم من المسلمين الذين ينتسبون إلى العرب.

وكان من الطبيعي أن يعمل محمد عَلَى وصل هذه البلاد بمصر ووضعها داخل المجموعة العربية الناشئة.

وكما كان لجيش محمد علي أثره العظيم في بعث الروح القومية بين الشعوب العربية كذلك كان إنشاء الأسطول المصري بمثابة إيذان للعالم بأن القوة التي خلقها محمد علي في الشرق قد تهيأت لأن تقتحم ميدان النشاط الدولي في السياسة والتجارة، وأن السيادة في شرق البحر المتوسط توشك أن تنتقل من أيدي بحارة اليونان الثائرين المدربين الذين دوخوا الأتراك وأججوا ضدهم لهيب الثورة من جوف جزر بحر إيجه عدة سنوات.

وفعلا ما كاد أسطول مصر الأول يبرح الإسكندرية بقيادة إبراهيم الفاتح ومعه صهره القائد البحري محرم بك حتى أنفذوا خطتهم في احتلال جزيرة كريت والسيطرة على بحر ايجه ونزلت الحملة المصرية بأرض المورة فأسقط في يد الثوار وأخذت حصونهم وقلاعهم تسقط واحدة تلو الأخرى حتى خيف أن يقضي العرب على سلالة الإغريق القدماء في أرض هيلاس صاحبة الفضل الأول على مدنية أوربا الحديثة.

لذلك تدخلت الدول إلى جانب اليونان وانسحبت قوات محمد علي من المورة وهو جد ناقم علي السلطان ساخط على رجاله أشد السخط. ولأول مرة في تاريخه أملت عليه حكمته السياسية أن يلتزم الحيدة ويأبي معاونة السلطان في حربه ضد روسيا، فكان هذا مقدمة للصراع الذي نشب بينه وبين السلطان

واستمر نحو ثمانية أعوام.

وكان صراعا بين جنسين وفكرتين، وبين أسرتين وعاصمتين، بين الشعوب العربية المغلوبة المتحفزة وبين السلطان العثماني المتعجرف. بين إستنبول عاصمة الأتراك العثمانية وبين القاهرة حاضرة الشرق العربي ومنبر الأزهر ومثوي الخلفاء وعاصمة الخديويين، بين فكرة القومية العربية الناهضة وبين فكرة التتريك والركود داخل البناء التركي المتخاذل المتداعي الذي يوشك أن ينهار في أي وقت على أصحابه واللائذين به، وقد زاد من عنف الصراع وقوته أن المتنافسين كانا يقاتلان من أجل السيطرة في الشرق كله.

هل يبقي الترك في الشرق حاكمين مسيطرين أم ينهض العرب من سباتهم ويمتشقون الحسام ضد سادتهم حتى إذا كتب لهم النصر حطموا أغلال تبعيتهم العثمانية وقرروا مصائرهم بأنفسهم.

وقاد إبراهيم حركة التحرر القومية برا وبحرا في صميم بلاد المشرق، فما لبثت أن سقطت غزة ويافا وبدأ حصار عكا وفي أثناء ذلك استولت القوات المصرية علي القدس وطرابلس وبيروت ثم سقط حصن عكا في مايو سنة ١٨٣٢، وكان لسقوطه دوي نبه العقول من غفوتها فقام الناس من كل حدب يرحبون بالجنود المصريين أينما حلوا، وجعلت المدن والقلاع تنافس بعضها في فتح أبوابها واستقبال كتائب التحرير القومية على حين كان القواد الأتراك يهرعون خارج المدن والحصون فرارا من غضب الشعب ونقمته. وعند ذلك تدخلت الدول رغم انشغالها بثورة سنة ١٨٣٠ في أوربا فناصرت الدول محمد على خشية انفراد روسيا بالتدخل لحماية السلطان.

وعلى ذلك امتد حكم محمد علي حتى شمل سوريا ولبنان وفلسطين وأصبح هو الحاكم المتصرف في دولة عربية واسعة النطاق يحدها الخليج العربي شرقا وكريت غربا وجبال الطوروس شمالا إلى أعالي النيل الأبيض جنوبا، وسنحت بذلك فرصة دعم فيها محمد علي حركة النهضة العربية في جميع هذه الأرجاء.

ولكن الدول ما لبثت أن فرغت من آثار ثورة سنة ١٨٣٠ وعاد سلطان تركيا

يبغي الانتقام. فقام الصراع مرة ثانية بين الترك والعرب وعادت آلهة النصر تتوج هامات إبراهيم وجنده بأكاليل الظفر.

ولكن بريطانيا ومعها سائر الدول عدا فرنسا كانت لمحمد علي بالمرصاد فلم يكن يرضيها أن تقف مصر عقبة في طريقها إلى الهند - أعني طريق السويس وطريق الفرات وخليج العرب - فصممت على أن ترتد قوات محمد علي داخل مصر والسودان. وبذلك عاد العالم العربي إلي غطيطه القديم تحت الحكم العثماني قرابة قرن آخر من الزمان.

وكان العراق آخر حلقة من سلسلة البلاد العربية التي كان محمد علي يرنو إلي إدماجها في ملكه العربي الكبير.

ولم يأل جهدا في تتبع أخبار العراق والاهتمام بشؤونها إذ كان يعلم مبلغ ما تردت فيه ولاية بغداد من سوء الحكم وضعف الإدارة وبؤس السكان وطغيان الحكام في عهد واليها علي باشا.

ففي الوقت الذي كانت الجيوش المصرية تتقدم في السودان شرقا وغربا نحو جنوب الوادي، كان محمد علي لا يغفل لحظة عن تتبع أخبار الشرق العربي، حتى إنه أرسل في أواخر عام ١٨٢١ إلى محافظ المدينة المنورة في الحجاز أن يوافيه أولا بأول بأنباء العراق ويطلب إليه ' أن يكون دائما علي بينة من أحوال بغداد فيرسل إليها الجواسيس من المدينة أو من عنيزة أو من جبل شمر من ذوي العلاقات هناك، فكلما وصلته أنباء يوافيه في الحال '.

أما سبب اهتمام محمد علي الكبير بأنباء العراق في ذلك العام، فهو العلاقات السيئة التي كانت بين تركيا وإيران، واحتمال غزو شاه إيران لبغداد في الوقت الذي كان الدفاع العثماني عن بغداد تافها ضعيفا لا يستطيع أن يقاوم أو يصمد للغزاة.

وفي العام التالي لاحت لمحمد علي فرصة غزو العراق بأمر السلطان، فقد كتب الصدر الأعظم باسم الباب العالي إلي محمد علي بتاريخ (١٥ شعبان ١٢٣٨ هـ) يقول له إن والي بغداد قد أقر بعجزه عن رد اعتداء إيران وصدهم

عن بغداد وطلب إليه المعونة بإرسال حملة كبيرة على رأسها البطل إبراهيم باشا إلى بغداد ليقوم بمهمة الدفاع عنها، ورأى محمد علي إذ ذاك أن الوقت غير ملائم، وأن حملة السودان لم تنته بعد، وكان عليه أن يرد هذا الطلب في حكمة وتلطف، فاحتج أنه مشغول بمراقبة المطامع الإنجليزية في موانئ البحر الأحمر الجنوبية، إذ كان الإنجليز قد ضربوا ميناء (مخا) على ساحل اليمن بالقنابل تمهيدا لاحتلالها، وأخيرا أبدى الباشا استعداده للقيام بنفسه إلى العراق على رأس جيش كبير يتم إعداده كاملا ليزحف في العام المقبل إلى العراق للدفاع عنها وإقامة حكومة قوية فيها.

هدأت الأحوال بعد ذلك في الشرق بين إيران وتركيا، وجدت أحداث في الغرب عندما اشتعلت الثورة اليونانية، فلم يعد السلطان إلى الاستجاد بمحمد علي لحماية بغداد، بل عاد إليه ليستنجده لحماية كيان الإمبراطورية العثمانية التي تهددها ثورة اليونانيين الجارفة.

وظلت العراق على ما هي عليه من سوء الحكم وضعفه حتى حدث النزاع بين محمد علي والسلطان وراجت الإشاعات عن عدة مشروعات يقوم بها محمد علي لغزو العراق وإدماجها في الإمبراطورية العربية التي كانت في طريق التكوين.

وقد هزت تلك الإشاعات في عامي ١٨٣٣ و ١٨٣٤ مشاعر الإمبراطورية البريطانية وتوالت المخابرات بين حكومة الهند ووزارة الخارجية البريطانية، وتدافعت التقارير السرية بين بومباي وبغداد ودمشق والقاهرة ولندن كلها تنذر بقرب هبوب العاصفة المصرية علي بغداد، وتصف سوء الحال في العراق وتطلع السكان في أمل وغبطة إلى قرب اندماجهم في الكتلة العربية الجديدة التي يحكمها محمد علي.

ففي ديسمبر سنة ١٨٣٣ كتب القنصل الإنجليزي في بغداد إلى وزارة الخارجية البريطانية يقول: «ترزح ولاية بغداد في الوقت الحاضر تحت أسوأ حكم عرفته في تاريخها وهاهم الأهالي الذين يضجون من سوء تصرف واليها علي باشا يتطلعون إلى إبراهيم باشا» وجاء في رسالة أخرى له بتاريخ ١٠

مارس سنة ١٨٣٤: وصل أحد الضباط المصريين إلي بغداد متنكرا وبعد أن اتصل ببعض الأوساط أثناء إقامته التي استغرقت عدة أيام زار الحدود الإيرانية، مما يدل على أن الباشا يفكر جديا في هذه البقعة من العالم.

أما رسول محمد علي واسمه سيد خالد أفندي فيحمل رسائل من محمد علي إلى إمام مسقط وأمير شيراز وشيوخ شعيب والمنتفق وينتظر أن يحمل ردودا من هؤلاء إلى سيده، وقد قال الرسول لأحد التجار الأتراك في بغداد إنه غادر مصر منذ أربعة أشهر وأن العراق وسواحل الخليج العربي سوف تنضم إلى محمد علي ابتداء من سنة ١٢٥٠ هـ ' وأضاف القنصل الإنجليزي قائلا: ' إن الأهالي هنا يفضلون حكم والي مصر، وليس في العراق من يستطيع أن يقاوم أية محاولة يقوم بها الباشا لغزو البلاد ' ولم يكد بلمرستون وزير الخارجية البريطانية والعدو التقليدي لمحمد علي يعلم باحتمال الغزو المصري للعراق حتي ثارت ثائرته وكتب إلى الكولونل كامبل سفير إنجلترا في مصر يطلب إليه أن يقابل الباشا ليستشف منه مدى تفكيره في هذا المشروع، ولم يتوان كامبل عن الذهاب إلي محمد علي في قصره بشبرا، ثم كتب بعد ذلك إلى بلمرستون يقول إن الباشا لا يفكر في الوقت الحاضر في غزو بغداد إذ أن جيوشه في سوريا لا تكاد تكفي لتوزيعها على الحاميات هناك.

ولكن هل كان محمد علي يرغب حقا في أن تتقدم جيوشه لغزو العراق؟ نستطيع الإجابة علي هذا السؤال أنه لولا تدخل إنجلترا ومحاربة بلمرستون له لكانت الجيوش المصرية قد غزت أرض العراق. فقد استتب له الأمر في بلاد *العرب ونجحت جيوشه في الشام نجاحا منقطع النظير، فتطلع إلى العراق.* وقد بذلت محاولتان في هذا السبيل.

أولاهما : عندما استولت الجيوش المصرية علي حلب، أراد محمد علي أن تتقدم جيوشه إلي أورفه والدير، وذلك بين عامي ١٨٣٤ و ١٨٣٥ ولم يمنعه من إتمام هذه الخطوة إلا إنذار بلمرستون له بأن إنجلترا لا يسعها أن تقبل أي اعتداء على العراق.

أما المحاولة الثانية فكانت في عام ١٨٣٩، ولكنها هذه المرة لم تأت من وحي الباشا نفسه، بل كانت فكرة جالت في خاطر قائده العظيم خورشيد باشا وتحمس لها أشد التحمس عندما استولت جيوشه على سواحل الخليج العربي، وعقد الاتفاق مع أمير البحرين على الانضواء تحت الحكم المصري.

مضى على خورشيد باشا قرابة عامين في نجد والاحساء وهو يجمع المعلومات التي تفيده في القيام بحملة على العراق. وكان له أعوان وعيون هناك يمدونه بالأخبار ويهيئون له الجو وينشرون الدعاية للحكم المصري بين السكان الناقمين على الحكم العثماني. وكان أكبر القائمين له بهذه الدعوة عالما نجديا كان يشتغل قاضيا في الزبير من أعمال العراق، هو الشيخ ' حمودة بن جسار '، فكان يكتب إليه تقارير وافية عن أخبار العراق وحركات واليها علي باشا.

وفي الوقت ذاته كان يتصل بالأعيان وكبار التجار ورجال الإفتاء لكي يستميلهم إلي الحكم المصري، بل اتصل أيضا ببعض رجال الجيش من الوطنيين العرب ليهيئ السبيل لخورشيد باشا بانضمام أكبر عدد ممكن من الجند العرب إلى صفه واستطاع فعلا أن يقنع عددا كبيرا من رؤسائهم.

ولم يكن أهل البصرة أقل اهتماما بما قيل عن قرب غزو المصريين للعراق، فقد اجتمع الشيخ حمودة بنقيب الأشراف هناك (عبد الرحمن أفندي) واثنين من رجال الإفتاء وبعض أعيان البصرة ووجد منهم جميعا استعدادا كبيرا للمعونة والانضواء تحت لواء الحكم المصري. ولما شاعت الأخبار في البصرة بانتصارات خورشيد باشا في نجد وسواحل الخليج العربي. وقرب وصول الجيش المصري إلى البصرة حاول بعض ضباط الجيش العراقي وجنوده الفرار إلى خورشيد باشا، وفعلا تمكن فريق منهم عدده سبعون أن يفر إلى نجد وطلبوا إلى خورشيد باشا أن يسمح لهم باستدعاء بقية الجنود المرابطين في البصرة وعددهم خمسمائة لكي ينضموا إلى الجيش المصري في الحملة التي ستقوم إلي العراق.

بعد واقعة نزيب (نصيبين) رأى خورشيد باشا أن الفرصة جد سانحة لفتح

العراق فكتب إلى ولي النعم يستأذنه في فتحها، ويلح في ذلك إلحاحا شديدا، مطمئنا الباشا إلي أنه منذ عام وهو يعد العدة لتلك الحملة، وختم التماسه قائلا: 'إن العراق ملك عظيم يضاهي ملك مصر، وهو الآن كالحسام الجوهر الذي سقط في حيره، فالتقاطه الآن واجب. والشيء إذا صار وقته فلا ينبغي تركه'.

ولكن فات خورشيد مدى اهتمام الإنجليز ببلاد العراق نفسها لا بالخليج العربي فحسب، وأنهم يربطون مسألة الخليج العربى بالعراق ربطا وثيقا، ويعتقدون اعتقادا جازما بأن محمد علي يريد تأسيس مملكة عربية تضم جميع البلاد التي تتكلم العربية، وأن خطوته التالية ستكون الانقضاض علي العراق، إما من ناحية الجزيرة العربية حيث ترابط قوات خورشيد باشا، وإما من سوريا حيث ترابط جيوش إبراهيم، أو من الجهتين معا في نفس الوقت، فأخذت إنجلترا تبذل قصارى جهدها في العمل علي حراسة العراق حتي لا تقع في قبضة محمد علي فيتحكم لا في الخليج العربي فقط بل في نهري الدجلة والفرات. وطريق الخليج العربى في نظر بلمرستون، فضلا عن أهميته الجغرافية طريق المستقبل الذي يهتم به، وتعلق عليه شركة الهند آمالا كبارا، إذ لم يكن في ذهنهم أي احتمال لإنشاء قناة السويس، بل كان يشغل بالهم مشروع الملاحة من الخليج العربي عبر الفرات، ولم يكن طريق السويس إلى الهند يستهوي الإنجليز بقدر ما كان يستهويهم طريق الفرات إلي الإسكندرونة.

لذلك بدأ التدخل الإنجليزي في حدته منذ أواخر عام ١٨٣٨ حين كثرت مقابلات القنصل الإنجليزي لمحمد علي منذرا إياه بالحد من نشاطه في منطقة الخليج العربي والعراق. فوقف المشروع عند هذا الحد، ولكنه كان من الأسباب التي أذكت نار العداوة في صدر وزير الخارجية البريطاني الذي كرس كل جهده لتأليب الدول على عاهل مصر الكبير ولولا ذلك لتحققت الوحدة العربية تحت زعامة قوية رشيدة.

■ ■ ■

٧

احتفاء سويسري لا ينقطع بنابليون!

احتفلت سويسرا مؤخرا بالمائوية الثانية لـ"عقد الوساطة" الذي تم التوقيع عليه تحت إشراف نابليون بونابارت الذي مثل في حينه محاولة للمواءمة بين التقاليد والثورة.

وقد أتاح "عقد الوساطة" لست مناطق سويسرية هي فو وأرغوفي وتورغوفي وسانت غالن والتيشينو وغراوبوندن بالارتقاء إلى مصاف كانتونات.

وفي مراسم رسمية انتظمت في باريس، احتفل ممثلون عن سويسرا وفرنسا بمرور قرنين كاملين على التوقيع على "عقد الوساطة" في قصر اللوكسمبورغ الذي يحتضن مقر مجلس الشيوخ.

ومع أن الحدث مر مرور الكرام وسط التوتر العالمي السائد إلا أنه يعني الكثير بالنسبة للسويسريين والفرنسيين على حد السواء.

من حين لآخر يحتفي السويسريون بأنفسهم وبمحطات "مفصلية" من تاريخهم، لكن الفرنسيين المعروفين بتفننهم في إحياء المناسبات أضفوا على الذكرى المائوية الثانية للتوقيع على "عقد الوساطة" بعدا احتفاليا رسميا ومهيبا.

فقد جرت مراسم استقبال عسكرية لاستقبال الوفد السويسري الذي قاده رئيس الكونفدرالية باسكال كوشبان في ساحة مقر رئاسة مجلس الشيوخ الفرنسي وفُرش السجاد الأحمر للضيوف بل "احتل" أعضاء الوفد السويسري أكثر من نصف مقاعد المجلس.

"هنا، يوجد نابليون في بيته!"، بهذه العبارة افتتح كريستيان بونسوليه رئيس مجلس الشيوخ الفرنسي الاحتفال الرسمي الذي حضره أيضا بالمناسبة أحد المنحدرين من سلالة نابليون بونابارت.

وعلى الرغم من أن أحد النواب الفرنسيين (وهو عضو في مجموعة الصداقة فرنسا- سويسرا) فاجأ الحضور بالكشف عن "سر مثير" يتمثل في وجود "قطرات دم" سويسرية لدى نابليون من جهة أمه ذات الأصول البازلية (نسبة إلى مدينة بازل الواقعة على الحدود الألمانية- الفرنسية- السويسرية)، إلا أن التاريخ كان المحور الرئيسي لثلاث ساعات من الخطب والمداخلات.

وقد تناول الخطباء "عقد الوساطة" بكثير من التقدير لكنهم ذكّروا بأن تدخل نابليون في عام ١٨٠٣ في الشؤون الداخلية السويسرية كان يرمي أيضا إلى الحفاظ على المصالح الفرنسية وحمايتها.

ففي تلك الفترة كان يتوجب على الإمبراطور الفرنسي وضع حد للنزاعات القائمة في بلاده كما كان يريد نشر المزيد من الجنود من أجل غزو الشرق ومن أجل ذلك كان يحتاج بلا شك إلى المال.. وكان يعرف من أين يحصل عليه..

في المقابل، حرص الرئيس السويسري على التنويه بالميراث الإيجابي لـ"عقد الوساطة" وقال في تصريحات خاصة بسويس إنفو إنه عمل انطوى على "حكمة سياسية" مضيفا "لقد كان خطوة معقولة وذكية أعادت السلم إلى سويسرا الممزقة".

وفيما كانت المناسبة الاحتفالية فرصة للغوص مجددا في بعض ثنايا التاريخ المشترك للبلدين، حرص عدد من المتدخلين على الاحتفاء بالحاضر أيضا من خلال التذكير بأواصر الصداقة القائمة بين البلدين إلى اليوم وبالدعوة إلى تعزيز التعاون الذي يمكن إثراؤه عبر تفاهم أفضل.

في هذا السياق حاول رئيس مجلس الشيوخ السويسري إيف كريستن أن يشرح ماهية سويسرا للمندوبين الفرنسيين. ففي ظرف زمني وجيز لم يتجاوز ثلاث دقائق، قام بجرد مكثف جدا لكل ما يمكن العثور عليه في بلد صغير بمثل هذا التعقيد.

فالكانتونات التي يتشكل منها حضرية وجبلية وريفية، وهي زراعية أو ذات طابع صناعي. والسكان يتحدثون الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية أو الرومانش. وهم إما من الكاثوليك أو من البروتستانت. أما التقاليد السياسية السائدة فتتوزع بين المشاركة الشعبية الواسعة والتمثيلية مع جرعات متفاوتة من المركزية المحلية..

ومرة أخرى يتضح أن محاولة شرح الماهية السويسرية لأمة ذات تقاليد مركزية راسخة - مثل فرنسا - تظل مهمة عسيرة وهو ما دفع نابليون إلى القول في وقت مبكر: "إن سويسرا لا تُشبه أي دولة أخرى"، مثلما ذكّر بذلك المؤرخ جون تولار.

وبالعودة إلى "عقد الوساطة"، يعترف بيار هايريسون رئيس جمعية الصداقة "فرنسا - سويسرا بأن "السويسريين قد يكونوا مطلعين عليه أما الفرنسيون فلا"، ويضيف عضو مجلس الشيوخ الفرنسي "لذلك فإن التعريف بهذه الحقبة من تاريخنا المشترك يمثل أحد أهدافنا".

في المقابل، أشار العديد من المشاركين في الاحتفال إلى أهمية إطلاع فرنسا وأوروبا على خصائص النظام الفدرالي نظرا لإمكانية الاستفادة منه في عملية البناء الأوروبي.

أما بيتر شونينبيرغر رئيس الحكومة المحلية لكانتون سانت غالن (شرق) التي تحولت بأكملها إلى العاصمة الفرنسية فيرى أنه "يجب على السويسريين أن يتدربوا على التعرف بشكل أفضل على أوروبا".

وفي المحصلة النهائية، يمكن القول إن الاحتفال الرسمي الفرنسي والسويسري بمرور قرنين على إبرام "عقد الوساطة" تحت إشراف نابليون بونابارت، كان أكثر من مجرد مناسبة بروتوكولية أو رمزية.

■ ■ ■

٨

سقط الفارس..
وبقيت مرارة الذكريات

الحديث عن نابليون بونابرت حديث يطول وربما يذكرنا أيضا بما أحدثه من تغيرات في تاريخنا المعاصر يوم غزا مصر عام ١٧٩٨م. و بعد أن هرب من مصر عام ١٧٩٩م ليبدأ انقلابا يتولى بعده السلطة في فرنسا وهو الذي أشرف على مراجعة القانون الفرنسي الذي أعطى الكثير من الحريات للشعب الفرنسي ثم انطلق ليكون إمبراطورية أوربية هائلة الي أن هزم في روسيا ثم هزم بعد أن تحالفت عليه أوروبا في معركة الأمم حيث سقطت باريس في أيديهم في ١١ أبريل ١٨١٤ وتنازل عن العرش ونفي إلى جزيرة (ألبا) في الساحل الشمالي الغربي لإيطاليا.

ولكن نابليون صاحب الطموحات التي لا تحد عاد إلى فرنسا من جديد وحكم مائة يوم حيث تصدى له الحلفاء بقيادة إنجلترا وتحت قيادة القائد دوق ولينجتون حيث هزم في موقعة (ووترلو الشهيرة) وهنا فر إلى باريس وتنازل عن العرش ونفي إلى جزيرة سانت هيلانة.

والعجيب أن نابليون وهو في سنوات تألقه لم يكن يؤمن إطلاقا بشيء اسمه الحظ.. كان كل شيء عنده محسوبا بالقلم والمسطرة.

المعارك العسكرية ممكن الانتصار فيها من خلال خطط موضوعة تتسم بالعلم والمنطق ولا مجال للهزيمة في ظل هذه الخطط المحكمة. والسياسة لابد أن تحقق النتائج المرسومة لها طالما أعد لها الإعداد الجيد.

ولكن هذه الأفكار عن الموضوعية والتخطيط ابتدأ يتحفظ عليها يوم غزا

روسيا وتألبت عليه قوى الطبيعة البالغة القسوة بجانب المقاومة الروسية مما جعله يفقد نصف مليون جندي ويعرف معنى الهزيمة.

كما أنه أيقن أن هناك القدر الذي لا يمكن الإفلات منه وأحس بهذه السطوة في المعارك التي خاضها وفشل فيها فقد كان يقول قبل أن يخوض معركة (ووترلو) التي هزم فيها وانتهي دوره التاريخي بعدها قال نابليون قبل هذه المعركة.

'هاتف داخلي ينبئني أن النتيجة سوف لا تكون سارة وأني أعزو فشلي إلى أفول نجمة حظي'.

لقد اعترف نابليون بأن هناك أمورا من الصعب التحكم فيها فوق قدرة البشر ومن هنا عرف الرجل الذي لم يكن يؤمن بكلمة المستحيل أن المستحيل قد يصبح حقيقة لا نعرفها في بعض الظروف.

كان نابليون يردد: إن الحظ يعمل ضدي..

وكان يظن أنه بعد أن انتهى به المطاف سجينا في جزيرة (سانت هيلانة) أنه سوف يعيش البقية الباقية من عمره هادئ البال بعد أن عاش حياته السابقة كلها في طموحات تكوين إمبراطورية فرنسية بالغة الاتساع تشمل بجانب أوروبا أجزاء من آسيا وإفريقيا ولكنه رأى أحلامه وهي تتهاوي ورأى مجده وهو يتساقط وأنه الآن حبيس جزيرة جرداء وآن له أن يستريح!

ولكن نابليون لم يكن يتصور أن نهاية حياته لن تكون راحة ولن يكون فيها ما يصبو إليه من سكينة اليأس وأن سجانيه سوف يعاملونه بقسوة بالغة لا تليق بالإمبراطور نابليون الذي دوى اسمه وشهرته في كل مكان!

ولم يكن يدري أن الإنجليز سوف يحولون حياته إلى جحيم لا يطاق في تلك الجزيرة القاحلة القابعة في جنوب المحيط الأطلنطي.

لم يكن يتصور أن حاكم هذه الجزيرة التي تخضع للنفوذ الإنجليزي سوف يعامله بصلف وغرور وأنه مجرد أسير.. وكان هذ الرجل الإنجليزي اسمه (هدسون لو) وكان يقول:

أنا آمر القائد بونابرت أنه أسيري!! وقد سمعه نابليون يقول ذلك فرد عليه في حدة وغضب:

أنا لست أسير أحد إنما أنا ضيف الأمة الإنجليزية!!

ويرد عليه الحاكم الإنجليزي

هذا هراء وسأرغمه على طاعتي أو أضعه في القيود والسلاسل.

وعاملوه معاملة في غاية القسوة والإذلال حتى عبر عن ذلك أحد أصدقاء نابليون بونابرت بقوله:

'إنهم يقتلون بوخز الإبر رجلا عجزت عن هزيمته جيوش أوروبا'!

وما أكثر ما احتد النقاش بين نابليون وسجانيه وكان نابليون يقول لهم إنه سيد أوروبا وسيظل اسمه في التاريخ بينما لن يعرف التاريخ عن سجانه هذا شيئا.

وقال له نابليون يوما:

إنك تضحكني!

واتهمه هدسون بخشونة الأخلاق!!

وقرر نابليون ألا يلقي هذا الحاكم مرة ثانية لأنه يثير فيه الغضب وبالفعل لم يلتق به هذا الحاكم بعد ذلك إلا ونابليون على سرير المرض.

ويعلق المرحوم علي أدهم، على هذا بعد دراسته عن (نابليون واستهزاء الأقدار) بقوله:

«وهكذا ظلت الحرب التي ظن أنه قد نبذها وباعدها بقبوله المنفى فلاحقه وتأبى أن تتركه وظلت الحرب ناشبة إلى يوم مماته ولكنها كانت حربا ضد الطغيان الذي حاول أن يفرضه عليه هدسون لو كانت حرب صغائر وسفاسف يثيرها مستبد ضئيل الشأن على رجل فقد كل شيء وعزيز قوم ذل».

وصار نابليون يعتقد أن هذه المعركة هي الحلقة الأخيرة من المعارك التي دامت طوال حياته ضد الإنجليز وكان (هدسون لو) في نظره يمثل الإنجليز.

قال لليدي مالكوم:

"لقد لبست تاج فرنسا الإمبراطوري وتاج إيطاليا الحديدي وإنجلترا الآن تقدم لي تاجا أروع وأعظم وهو إكليل الشوك"..

فالإهانة والتحقير والاستبداد تزيد في شهرتي وإني أعزو الي إنجلترا تألق مجدي وكان يعزي نفسه بقوله:

غيري من الناس يخفضهم فشلهم أما أنا فقد رفعني الفشل إلى أسمى المراتب ولم يستطع أن يواجه حقيقة أن حبسه كان ثمنا تقاضته الأقدار لطموحه المتناهي ومطامعه البعيدة وللحيوات البشرية التي حطمها وأسال دماءها في حروبه العديدة ولكنه كان في منفاه وقد أثقلته المصائب وأذلته الأحزان أشجع منه في أيام مجده والدنيا عليه مقبلة.

كان عظيما وجلداً صبوراً كان رجلا وقد صبر صبراً جميلا على سخرية الأقدار.

هذه صورة سريعة عن قائد من أعظم قواد التاريخ طالما صال وجال وطالما حلم بإمبراطورية لا تغرب عنها الشمس وقد ذهب عنه كل هذه الطموحات وعرف معنى الهزيمة وعرف الشتات والغربة وقضبان السجون ثم انتهى كل ذلك ولم يبق إلا مرارة الذكريات.

■ ■ ■

مصادر الكتاب

- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية علي مصر- جوزيف ماري مواريه- ترجمة كاميليا صبحي - مكتبة المصطفى - ٢٠٠٠

- كتاب "مائتا عام على الحملة الفرنسية: رؤية مصرية" - د. ناصر أحمد إبراهيم- الدار المصرية - اللبنانية - القاهرة

- نابليون في القاهرة - أحمد تمام

- القادة السياسيون.. ومفهوم العظمة - أمينة بريمكو - ٢٥ يوليو ٢٠٠٧

- كتاب عجائب الآثار - عبد الرحمن الجبرتي - دار الجيل - بيروت.

- موسوعة تاريخ مصر - أحمد حسين - دار الشعب - القاهرة - ١٩٧٣ .

- الحملة الفرنسية وظهور محمد علي - محمد فؤاد شكري - مطبعة المعارف -القاهرة - ١٩٤٢

- الأزهر جامعًا وجامعة - عبد العزيز محمد الشناوي - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٨٤ .

- مصر الحديثة (١٥١٧-١٨٠٥) - جلال يحيى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الإسكندرية - ١٩٨٢ .

-كتاب" من بونابرت إلى بلفور" - دومينيك ترامبور وران آرونسوهن (تحرير) - المركز الوطني للبحث العلمي - باريس - ٢٠٠٢

- نهاية نابليون - د. محمد هشام راغب - جريدة الوسط الألكترونية

- الدوق والإمبراطور - محيي الدين اللاذقاني - الشرق الاوسط - ٢٧ ابريل ٢٠٠٢

- كتاب «مائتا عام على الحملة الفرنسية: رؤية مصرية» تأليف: د. ناصر

أحمد إبراهيم- الدار المصرية – اللبنانية – القاهرة

– كتاب راسبوتين وسقوط القياصرة – كولن ولسن

– كتاب نابليون- أميل لودفيغ

– كتاب نابليون بونابرت فاتحا لمصر – روبير سوليه – دار سويل . باريس- ٢٠٠٦

– معركة ووترلو – قناة المجد الوثائقية – برنامج: تاريخ الحروب – حلقة: معركة واترلو

– ثلاثون دقيقة قاتلة في معركة نابليون الأخيرة – الشرق الأوسط – ٢٤ فبراير ٢٠٠٥

واترلو: مقامرة نابليون الأخيرة – – اندرو روبرتس – هاربر كولينز -لندن- ٢٠٠٥

– ابنة تاجر الحرير – ابن منصور – الوحدة – ٨ مايو ٢٠٠٧

– خادم نابليون أبجاهيا . رستم . بابا تام: أسماء لخادم واحد كان في عهدة نابليون بونابرت – مريم علي جبة -٣٠ يونيو ٢٠٠٤.

-كتاب من العظمة- أميل لودفيغ

■ ■ ■

فهرس المحتويات

الفصل الثالث

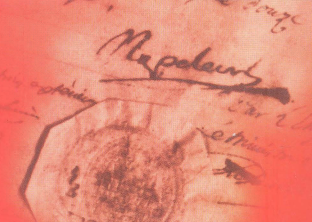
الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن



نابليــون.. لمــاذا؟

في تاريخ العالم شخصيات محورية غيرت مساره، وشكّلت أحداثه الكبرى، ولولاها لما أصبح العالم كما نراه عليه الآن.. نابليون بونابرت يأتي في طليعة هذه الشخصيات الرئيسية، التي تقاطعت مسارات العالم ذات يوم عندها، فراحت تعيد تشكيله وفق رؤيتها، وبحكم قوتها، وحجم تأثيرها الفاعل من موقعها هذا على مجريات الأحداث.

نابليون بونابرت هذا القائد العسكري الفذ، والإمبراطور الفرنسي العتيد هو نموذج متقن للعبقرية العسكرية، ورمز لا يضاهى في السطوة السياسية عندما تؤتى لحاكم لا يُشق له غبار.

ورغم رحيل نابليون منذ زمن طويل، إلا أن الحديث عنه لا ينقطع، والنبش في سيرته لا يتوقف، سواء بهدف الكشف عن المزيد من عبقريته، أو فك طلاسم حياته وموته، أو استيفاء الدروس والعبر من سيرة رجل أقام الدنيا في زمانه ولم يقعدها.

ورغم أن إمبراطور فرنسا وصاحب الانتصارات المتعددة وأعظم عبقرية عسكرية عرفها التاريخ في زمانه، كان إمبراطورا في الحرب، إلا أنه كان إمبرا... أيضا.

ولطالما توقف العالم أمام غراميات نابليون، كما توقف با... حروبه وفتوحاته، انتصاراته وانكساراته.

وفي هذا الكتاب نتوقف عند سيرة نابليون إمبراطور الحرب و... تتعلق بشخصية وأعمال هذا القائد التاريخي، دون أن نغفل آخر ما تكش... خفايا تتعلق بحياته ورحيله.

I.S.B.N. 977-376-490-7
9 789773 764906

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة